ناظم حكمت

الحياة جميلة يا صاحبي

رواية

الفارابي

ناظم حكمت

الحياة جميلة يا صاحبي...

رواية

نقلها إلى العربية: هشام القروي

مراجعة: د. فيصل درّاج

دار الفارابي - بيروت

١٩٩٠

حقوق الطبع محفوظة

دار الفارابي ـ بيروت

ص. ب. ٣١٨١ ـ تلفون ٣٠٥٥٢٠

دخل أحمد البهو. كانت الخادمة تسبقه. بهو واسع، مفروش بالرخام، معتم، ورطب. لم تسير هذه الفتاة على رؤوس أصابعها؟ أيكون في البيت مريض؟ لاحظت أنني صرت أمشي مثلها. تبّاً! كما لو أني خشيت إيقاظ نائم. تعمّد طرطقة عقبي حذائه المصفحين على البلاط.

دخلا صالوناً كبيراً. كان أكثر عتمة من البهو.

- يرجو سيدي أن تنتظر قليلاً. إنه وسيدتي يتناولان طعامهما.

جلس أحمد على أحد المقاعد الكبيرة الموقّاة بالقماش. أعرف جيداً ما يوجد تحت وقاء المخمل الأحمر. خشب مذهّب ومزخرف. هناك مثله عند جدي، في بيته الذي على ضفة البحر. في سكوتاري.

على اليمين، جدار من الزجاج الكامد. وفي الخلف، حجرة الطعام. وأنا جائع. تباً إني أتضور جوعاً، وتزيد الجوع حدّة أصوات الملاعق والأشواك والسكاكين، علاوة على عبق الأطعمة. أمامي صوان من خشب الجوز، بدرج، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة... بخمسة أدراج. وفي المرآة فوقه، أراني أثني

جفني، وأوسع عيني... ثم أحك أنفي، وشاربي... الدقيق... ترى، هل أبدو مزهواً إذا ما قلت إنه طويل ورقيق كالحرير؟... يا إلهي! إني لا أكف عن التلاعب به.

- أهلاً وسهلاً بك يا ولدي...

وقف أحمد...

- شكراً يا عمي.

كان شكري بك طويلاً، ناحلاً، أشيب الشعر. وكان آخر لقاء لأحمد بزوج عمّته قبلها بسنتين، في موسكو شتاء ١٩٢٣. وفي موسكو، التي قدم إليها شكري بك لشراء السجاجيد، أوقفوه لسبب لا يعلمه سوى الله، فأعلن أنه قريب لأحمد، وهو طالب في الجامعة. ذات مساء، في حدود السابعة، تلقّى أحمد مخابرة من التشيكا. أجبت بلى، إنه قريب بالفعل، وأحد أقدم الاتحاديين القدماء. عميل؟ لا، لا أظن. نعم، إنني أضمن ذلك. بعدها بساعة، أوصلوا شكري بك إلى مسكن أحمد. كنت قد استدنت بعض المال، وأولمنا. كفيار أسود، فودكا. أكل شكري بك وشرب. ثم قال: «أحمد، ولدي، لن أنسى جميلك إلى آخر أيام عمري».

- كيف حالك يا صغيري أحمد؟

- شكراً يا عمي. إني بخير...

حلوة هي دائماً العمة جميلة. لو كان للشيطان أنثى، وكانت أنثاه جميلة، لكان لها نفس هذا الضرب من الجمال. لقد كانت

معشوقتي في صباي. إنها لا تزال تحكي بين حين وآخر كيف كانت تغسلني وأنا في الثالثة من عمري. تحصرني بين ركبتيها في حمّام جدي، في ذلك البيت الذي على ضفاف البحر بسكوتاري. فأحمرّ خجلاً لسماعي القصة.

سعل شكري بك.

ـ لا أريد أن أكون فضولياً، ولكن هل لي أن أعرف يا ولدي سبب مجيئك إلى إزمير؟

ـ فكرت يا عمي، بأني قد أجد هنا عملاً. أي عمل... لا يهمّ... إن الحصول على عمل في اسطمبول أصبح من المستحيل.

سعل شكري بك. أعرف ما سيقول.

ـ يا ولدي، أنا لم أنس جميلك، أؤكد لك ذلك... وها هو يقف، فجأة، ويتجه إلى النافذة التي على اليمين، ويشير إليّ بالاقتراب، فيما يهزّ الستارة قليلاً. من خلال غصون شجرة المانوليا السابحة في الشمس، ومن فوق سور الحديقة، يُرى الشارع.

ـ أنظر إلى ذلك الرجل المقرفص هناك في الزاوية. نعم، ذلك الشحّاذ. إنه من البوليس. هذا القذر!.. أنا مراقب.

ـ آه، يا صغيري أحمد. إنهم لا يدعون عمك يرتاح، رغم أنه تخلّى عن السياسة. إنهم ما زالوا وراءه...

ـ عد إلى اسطمبول يا ولدي، وانتظر عودة الهدوء إلى

سابقه، وسأخطرك في أوانه، سأعطيك مالاً لتسافر إذا كنت معوزاً. إني مدين لك بالكثير في موسكو.

ـ عندي المال.

ـ هل أوقفوا صدور صحفكم أيضاً؟

ـ نعم.

ـ وهل أخذوا باعتقال جماعتك؟

ـ لا.

ـ لا شك أن صورتك موجودة هنا عند البوليس...

ـ لا أظن.

ـ بلى، بلى. لا بد أنها عندهم. إذا ما علموا بزيارتك لي، هلكنا معاً. إنهم سيعتقلون جماعتك بلا ريب. وكذلك أنا. سوف يقدمونني للمحكمة الاستثنائية. نعم، نعم... التمرد الكردي ليس إلاّ ذريعة. إنها الذريعة التي وجدها مصطفى كمال لإعادة المحاكم الاستثنائية، وتوزير عصمت من جديد. عصمت ذراعه الأيمن، وأشد رجاله قسوة. سوف ينتهز الفرصة ليثأر للماضي. وسينتقم منّا نحن الذين بقينا مخلصين «للاتحاد والترقي». لماذا؟ لأنه في السابق، عندما كان منخرطاً في الحزب، لم يحصل على المركز الذي كان يصبو إليه. نعم. تلك هي السياسة. ان المرتدين يصيرون ألدّ أعداء حزبهم السابق... سوف يأمر مصطفى كمال باعتقالي. نعم، فهو يتحيّن مني زلّة قدم. زلّة واحدة...

أمام باب الحديقة، انبهر أحمد بالشمس الساطعة. انعطف إلى اليسار متحاشياً المرور بالشحاد المقعي في الزاوية. أهو حقاً من البوليس؟ أم أن شكري بك اختلق قصة كاملة ليتخلص مني؟

وراح يهبط المنحدر. لا أحد. لا شيء سوى ضوء النهار الدافىء، فوق شجرة المانوليا، وسقوف القرميد، وفوق مصاريع الشبابيك المغلقة في هـذا الحي الإزميري الثري، وقبالته، في الأسفل تماماً، تظهر إزمير قائمة، واسعة، آسنة ومغلقة. أين يقع مدخل هذا الخليج؟ ومن أين يفضي إلى عرض البحر؟ في هذه المياه، رسا الأسطول اليوناني سنة ١٩١٩. وعلى هذا الساحل، تلقت الجيوش اليونانية أمر الانكليز بالنزول إلى أرض الأناضول، وكان الشعير قد حصد، وشرع الفلاحون في حصاد القمح. وفي هذا المكان أيضاً، وفي أحرّ أيام سنة ١٩٢٢، تقهقروا إلى البحر تاركين المدينة التي أحرقوها. كانت آثار الحريق تتراءى من علٍ، كتلاً من التجاويف المنتثرة بفوضى. ورأى أحمد الفارس التركي يدخل إزمير مقتحماً اللهب. فارس واحد. لماذا؟ إنه لا يعلم. فلاح من قرى أضنة. وأحمد لا يعرف السبب. لِمَ فلاح من أضنة؟ إنه يحمل الراية الحمراء بيد، وبالأخرى يمتشق سيفاً... أين تراه الآن، في سنة ١٩٢٥، ذلك الفلاح الأضني الذي كان أول من دخل إزمير في أحرّ أيام ١٩٢٢؟ ماذا تراه يفعل؟ أعامل مياوم؟ في أرض أي بك أو أي مزارع؟ والشيوعيون اليونان؟ لا أولئك الذين أعدموا

بالرصاص لدعوتهم الجيش اليوناني إلى التمرد؛ فهم ينامون في أرض أناضول، جنباً إلى جنب مع الجنود الأتراك. بل الآخرون. أولئك الذين زجّ بهم في السجون؟ أتراهم لا يزالون وراء القضبان، في جزيرة من جزر اليونان؟

وصل أحمد أسفل المنحدر. ودخل مقهى يقع في طرفه. طلب شاياً، وجبنة، وكعكة بالسكر، ونرجيلة. ألم أقل للرفاق ان شكري بك سيجد طريقة للتخلص مني؟ لا. لا بد من استنفاد كل فرص العمل العلني. وها نحن قد استنفدناها. حسبه على الأقل ألاّ يخبر عني الشرطة، هذا الصهر العزيز! طلب جبنة أخرى، وكعكة. لم يدعواني حتى لآكل لقمة. وحين أتاه النادل بالنرجيلة، استزاده الشاي من جديد. سوف يعلمهم، يخابرهم. وإذا كانوا يستهدفون الوحدويين الآن، فلا بد أن يكون شكري بك حقاً في طليعة القائمة... لم يدخن أحمد النرجيلة سوى مرتين في حياته، وفي اسطمبول. يقال إن نرجيلة إزمير تسكر من لم يعرفها. حقاً! في رأسه دوار. أغمض عينيه. اكتسحت العتمة صفرة قشية مشمسة. مرحى أنوشكا! استشعر في جنبه الأيسر ألماً حاداً، مثل طعنة سكين. فتح عينيه. إلى اللقاء أنوشكا. دخل رجل المقهى. جال ببصره يميناً وشمالاً كأنه يبحث عن أحد ما. جلس إلى تلك الطاولة التي على اليسار. إنه يرمقني من تحت جفنيه الضخمين، المتورمين، وقد أغمضهما نصف إغماضة. شرب قهوته وانصرف. أوشكت أن أسأل النادل عمّن يكون

ذاك الرجل الذي غادر الطاولة اليسرى.

خرج أحمد من المقهى. كان الوقت أصيلاً، غير أن بلاطات إزمير كانت لا تزال تنضح بحرّ الظهيرة.

أرض متِرامية، مزروعة ببقايا حريق. فجأة يجد أحمد نفسه وجهاً لوجه أمام البحر العاري. الأرض المترامية عارية أيضاً. وأنا كذلك عار هنا. إنهم يترصدونني. لا أوهام في ذلك.

عبر أزقة. دخل مسجداً صغيراً. كانت تفوح من الحصائر المتعفنة رائحة شياط. حذو المنبر، كان هنالك شاب ضرير، لابساً أسمالاً، يرتِّل القرآن متمايلاً على ركبتيه، مرّة إلى الأمام، ومرّة إلى الخلف. كانت أقدامه الحافية نظيفة جداً، وباطنها خشن.

جلس أحمد وأسند رأسه إلى الجدار.

عندما كان صغيراً، كان جده يرتل له أشعاراً مولوية حتى يأخذه النعاس.

حين كنت في المدرسة الداخلية، كنت ملزماً بتأدية فرائض الصلاة والصوم، وحين فارقتها فارقت تأدية الفرائض أيضاً. أما القرآن فلم أتمكَّن أبداً من قراءته قراءة صحيحة. النبرة الصوتية، والإشارات، وكل ذلك كان يربكني ولا يقدم لي وضوحاً. غير أني كنت مؤمناً. أو بالأحرى، لم يخطر ببالي أبداً أن الله لا وجود له. ذات يوم، ـ ودون أن أكون قد بحثت مسألة وجود الله أو عدم وجوده ـ قلت في سريرتي إن المؤمن يفعل الخير لأنه

ينتظر أجراً إلهياً يجعله من سكان الفردوس، ويَضمَن له حياة سرمدية. وهو يتجنَّب الحرام لأنه يخاف العقاب والجحيم. آنئذ، أذهلني خضوع المؤمن وتبجّحه، كما لو أني لم أكن يوماً مؤمناً. ومنذئذ، اجتهد أحمد في جميع ممارساته وأفعاله في الابتعاد عن فكرة الثواب وصورة العقاب. لقد استطعت الإفلات من الله بارتياح لسبب آخر أيضاً، وهو مشاهدتي «الرجل الصالح» في ممارساته بالأناضول. لم يكن هذا الرجل يشبه جدي المولوي، ولا الخوجا صاحب النظّارة ورباط العنق، الذي كان يدرّسنا التاريخ الإسلامي في المدرسة الداخلية، ولا حتى إمام مسجد حيّنا الصغير بسكوتاري ذي الحديث العذب. كان الرجل الصالح، إذ يضع يده على كل شيء في القرية، شبيهاً بتنين الأسطورة الرابض على الينبوع ليمنع الماء عن الآخرين. ومن حوله، كانت تتدفّق أمواج عصر ظلامي من الخرافات، والنفاق، والتعصب، والرعب القاتم.

نام أحمد ورأسه إلى الجدار. استيقظ. نظر إلى ساعته. كانت العتمة قد شملت المسجد. دخل ثلاثة شيوخ. كانوا متشابهين مثل توائم. ربما بسبب لحاهم البيضاء. وربما أيضاً بسبب ملابسهم التي رتقت حتى غاب لونها لا يزال الضرير يتلو القرآن. وأنا مغتمّ. تبّاً للسماء! «اسمع ما يقوله الناي الشاكي من الفراق...».

خرج أحمد من المسجد، على مهل. في ضوء الفانوس المعلّق

على باب الصحن، كان رجل يقتعد العتبة. إنه يشبه الشحاد الذي أراني إياه شكري بك. ولعلني مخطىء بعد كل حساب. إذن، فقد جدّوا في أثري. ومرَّ بالشحاد. يعني، ما أن خرجت من عند شكري بك حتى... ولعلّه لم يقل شيئاً. لعلّ الرجل تبعني بدون هدف. ذاك الصباح، كان إسماعيل قد وصف له بدقة المكان الذي يجب أن يلتقيا فيه لدى حلول المساء. شعر أحمد كأن أحداً يقتفي خطاه. من الغباء أن يلتفت. اغتاظ للوجيف الذي يهز قلبه. وفي طرف الشارع، توقف بغتة. عاد أدراجه. لا أحد. من الشرف الصغيرة، كانت تسيل خيوط ضياء تزيد في وحشة الشارع. انعطف إلى اليسار. إمّا أنني تجاوزت هذا الرجل، وإمّا... آه! تبّاً! أأكون واهماً؟

جالساً على آخر درجة من مدرج حجري نصف منهار، كان إسماعيل يدخن سيجارة حجبها في داخل يده. انطلقا في الطريق. القمر طالع. وبين بيوت الخشب المسود ذات النوافذ المحدودبة، يزحف الشارع ملتوياً، ضيقاً، ووحيداً. وهذا الصمت. وهذه العزلة. أنا سمكة صغيرة. في ليلة مقمّرة مثل هذه الليلة، استسلمت لنفس الإحساس، وأنا أتجوّل في كركوف المجهولة، حيث نزلت من قطار دون ضوء.

خرجا من المدينة. ضجة محرّك بعيد راحت تملأ الصمت القمري شيئاً فشيئاً. بت. بت. بت. بت. فجأة، شعرت بقلق. كنا نتقدّم في درب مغبّرة. لا شجرة، ولا دار، على امتداد

البصر. ها قد وصلنا سفح هضبة تربض عارية على اليمين، وضجة المحرّك لا تزال تتوالى. على جانب الهضبة، يقوم كوخ حجري معزول، وبلا نوافذ.

ـ اسماعيل، ما هذا المحرّك؟

ـ محرّك يضخ الماء ليل نهار. إنه على بعد ساعة من هنا.

فتح اسماعيل القفل الضخم المعلّق بالباب الخشبي. أوقد مصباح الكاز. اقتعد أحمد أحد فراشي المكان.

ـ أكاد أعتقد أنك توقعت وصولي.

ـ أحد الفراشين تركه لي ضياء...

كانت الأرضية من طوب مجفّف. أحضر اسماعيل من خزانة الطعام جبنة بيضاء، وبعض البندورة، والخيار، والملح، وزجاجة ماء.

ـ إسماعيل، أأنت على يقين من أن أحداً لم يتبعنا؟

ـ إنهم ليسوا أرواحاً خالصة يا عزيزي. لقد كنّا لنلاحظهم...

نهض أحمد، وهو يقضم خيارة. ضرب الأرض بقدمه.

ـ آمل ألاّ نجد تحتها صخراً.

ـ ولِمَ تريد أن نجد الصخر يا صاحبي؟... لدينا أدوات ضياء. معول ورفش. أما الأخشاب والمناشر والبقية، فسأجلبها شيئاً فشيئاً.

ـ لا أحد يعلم أنني سأسكن عندك، أليس كذلك يا

إسماعيل؟

- لم أعلم بعد حتى الرفاق بمجيئك. - شرع يخلع ثيابه بكسل. - سأذهب لآخذ حقيبتك، أمّا أنت، فابقَ بعيداً عن العيون. - لم يبقَ لابساً سوى سرواله الطويل المعقود على ربلتي ساقيه، وصدار لباسه الداخلي، الذي تنقصه أزرار. كانت يداه تبدوان أضخم، وأكثر سمرة وشباباً.

جس أحمد الأرض بقدمه مرة أخرى.

- غداً أقوم بالقياسات، وأرسم خطة.

- برأيي أن العرض والعمق لا يمكن أن يكونا بأقلّ من مترين ونصف. ينبغي أيضاً أن ترسم لي صورة بقلم الفحم.

- هل مصنعك يبعد عنّا كثيراً؟

- ساعة من السير. استيقظ فجراً. كان يدوّر ساعة منبّه ضخم. إنها لضياء. دس الساعة تحت وسادته.

- حتى لا أوقظك.

كان أحمد يخلع ثيابه. جذب إسماعيل الغطاء إلى ذقنه.

- أحمد، الشاي والسكر في خزانة الطعام. الموقد هناك، في الزاوية. إنها تركة ضياء. والآن أطفىء المصباح.

- هل يجب إغلاق الباب؟

- لا، إذا كنت تستطيع النوم في ضوء القمر... يمكننا التنفس. ضياء لم يكن يستطيع ذلك.

كان أحمد لابساً سروالاً قصيراً، وقميصاً داخلياً بلا أكمام.

ملمس الغطاء الخشن يخز إسماعيل في ذقنه.

ثلاث عشرة سنة، إثر ذلك، في ١٩٣٨، سوف يزجّ إسماعيل سراً في سجن أنقرة العسكري لمدة ستة أشهر. لم يكن ما يسمونه سراً سوى زنزانة مسدودة. على نافذتها قضبان، ولا زجاج. وسيسقط الثلج على أرضية الإسمنت. وسيذكر إسماعيل تلك الليلة، والغطاء الذي يخز ذقنه، وأحمد الذي ينفخ على المصباح، دون أن يتمكن من إطفائه.

ـ أنزل الفتيل يا أحمد...

وأطفأ أحمد المصباح نافخاً عليه دون أن ينزل الفتيل. من الباب المفتوح، يتسلّل ضوء القمر، وإسماعيل يغطّ غطيطاً خفيفاً. وضجة المحرّك. بت. بت. بت. بت. في سكوتاري، وفي البيت القائم على ضفة البحر، كنت أجلس في فراشي منقبض القلب، منصتاً إلى زفير محركات المراكب تقرع قلب الليل، في سفرها الذي لا بداية له ولا نهاية.

نهض أحمد ليفتش عن سجائره وكبريته في بنطاله الملقى على كرسي القش. أوشك المسدس أن يسقط من الجيب الخلفي. أنا عاجز عن استعماله. ومع ذلك أحمله معي من مكان إلى آخر. سحقاً! جلس على العتبة. أشعل سيجارة. في الأسفل، كانت الطريق التي تمتد في عزلتها ترتعد مع ضجة المحرّك.

وأنا أرفع رأسي بين فينة وأخرى، لأنظر إلى الفتاة ذات العيون الزرق التي تقشّر البطاطا مثلي. الساعة تقارب منتصف

النهار. في الخارج، يندف الثلج على موسكو. لكن مطبخ الجامعة دافىء. لِمَ لا ترفع الفتاة التي تقابلني الشال عن رأسها وكتفيها؟ إلى يساري، أستاذي في الاقتصاد السياسي. إلى يميني، حسين زادة، الطالب الإيراني. بجانبه، سِي - يَا - وْ الصيني، طالب أيضاً. ثم زوجة مدير الجامعة. إنها حلوى ممتلئة بكمية مفرطة من البيض وثاني الكربونات. بقربها بتروسيان، سكرتير خلية الحزب بالجامعة، وقد شكّ في قميصه ذي الياقة المقفلة وسام العلم الأحمر. كنا جميعاً جالسين على مقاعد خشبية، متحلّقين حول دلو ضخم، مسخَّرين للخدمة في المطبخ. ومن الأكياس نسحب البطاطا محدَّبة، ومتربة، نقشّرها، ونرمي بها في الدلو. من آن لآخر، يحمل اثنان منا الدلو ليفرغانه في برميل مليء بالماء.

- أحمد، إنه دورك...

نهضت.

التفتسِي - يَا - وْ إلى الفتاة ذات العيون الزرق:

- وأنتِ أيضاً، أنوشكا.

نهضت. لمحت قامتها الفارعة. أخذنا الدلو، كلّ من ناحية. لم أستطع رؤية ساقيها، فهي تلبس جزمة لبدية. أفرغناه في البرميل. غسلت يديها في الحوض. يدان بيضاوان، أصابعها طويلة، ومكتنزة.

- بأية حال ستتّسخ يداك من جديد، أنوشكا.

لم تجب.
ـ هل أنت تشتغلين في السكرتارية؟
ـ منذ متى رفعت الكلفة بيننا؟
كنت أعرف أن أعضاء الحزب القدامى، والمثقفين الروس على الأخص، يتخاطبون بضمير الجمع. غير أن الشباب مثلنا في الجامعة، يرفعون الكلفة، سواء كانوا متعارفين، أم لم يكونوا. وهذا ما أغاظني.
ـ أنتِ أرستوقراطية قديمة على ما يبدو.
ـ أما أنت فإنك لا تشبه بروليتارياً البتّة...
عند الغداء، بحثت عن أنوشكا في قاعة الطعام، فلم أرها. لكن لم يمنعني ذلك من التهام حساء الكرنب الخالي من الدهن، بعد أن فتّتّ فيه خبزي الأسود. وبنفس النهم، أفرغت في بطني الشاي الشبيه بماء الغسيل.
مساءً، انقطع الثلج النادف بغزارة على موسكو منذ الفجر. والآن، ندف ثلج رقيق من جديد. أنا في سخرة كامل اليوم. ها أنذا جاثم على صاديق السمك المجفّف المتراكمة في شاحنة وسط باحة الجامعة. وصلت الشاحنة متأخرة، بحيث لم تفرغ حمولتها. بيدي بندقية، وقدماي باردتان وسط الحذاء العسكري. يجب أن أنزل وأضرب الثلج بقدمي لتدفئتها. وهو ما فعلت. نزلت. وضربت الثلج بقدماي. دفئت. من الباحة، أرى جرس دير ستراسنوا. تمرّ زلاجة. قلنسوة الحوذي الغريبة علاها الثلج. لا

بد أن ركاب العربة من رجال الاقتصاد(★). أحزر ذلك من فرائهم وقلابقهم. ما من شك أن الغناء ممنوع أثناء الحراسة. غير أني أشعر برغبة في غناء نشيد بوديوني: «هيا بنا إلى وارسو! هيا بنا إلى برلين!» لا ريب أن البندقية التي بين يدي هي التي ولدت فيّ هذه الرغبة. أو ربما هم الاقتصاديون. وأرى إلى شارع ستراسنوا كيف يترامى، ليتيه في الليل وفي الثلج. شيئاً ما يتحرّك. إنها لفكرة مستبعدة. ولكن، لعلها أنوشكا. التفتّ. وفي ضوء المصباح، ألمح قربي واحداً من أولئك الأطفال الشاردين، تكسوه الأسمال من الرأس إلى القدمين. في وجهه المتسخ الذي غابت ملامحه، تلتمع عينان. أنفه الدقيق أحمر. إثنتا عشرة سنة ربّما، وربّما أقل.

ـ مرحباً عماه، قال.

ـ مرحباً، قلت.

ـ في الجو رائحة سمك، يا عمّ.

ـ أنا لا أشم شيئاً.

ـ أليس بالشاحنة سمك؟

ـ بلى، هناك سمك.

ـ أأنت تحرس منذ وقت طويل يا عم؟

ـ نعم.

★ رجال الـ N.E.P.: السياسة الاقتصادية الجديدة في الاتحاد السوفياتي.

ـ إني أشمّ رائحة السمك.

ـ وأنا لا أشمّ شيئاً.

ـ ألا تستطيع أن تهبني سمكة يا عم؟

ـ كلا.

ـ أنا جوعان.

ـ ألم تستطع اختلاس شيء اليوم؟

ـ لا شيء سوى حافظة أوراق. كانت فارغة.

ـ إنهم يجمعونكم في مراكز، ويعطونكم الطعام،.والثياب كذلك. فلمَ لا تذهب إلى هناك؟

ـ إني أحبّ الحرية يا عم.

ـ من أي مكان أنت؟

ـ من حوض الفولغا.

ـ كيف أتيت إلى هنا؟

ـ سيراً على الأقدام. وفي القطار أيضاً. في عربة نوم.

ـ أو بالأحرى في الصناديق. بين عجلات العربات. أليس كذلك؟

ـ كما تريد... وإذا ما أعطيتني سمكة، سمكة صغيرة؟

ـ لا أستطيع.

ـ هل ذلك لأن الأسماك معدودة؟ لو نقصت واحدة أو زادت، من سيلاحظها؟

ـ أنا.

ـ إني جائع، أقسم لك.

ـ وإذا ما أعطيتك نقوداً بالأحرى؟

ـ هاتها.

أعطيته النقود. دسّها تحت أسماله.

ـ أعطني سمكة أيضاً.

ـ لكن... لقد أعطيتك نقوداً.

ـ في هذه الساعة تكون كل المتاجر مغلقة. أو تتوهم أن النقود صالحة دائماً؟ سمكة صغيرة، صغيرة.

ـ مستحيل.

ـ ولِمَ يا عم؟

ـ لو أعطيت سمكة لكل من يطلب مني فلن تبقَ في الشاحنة واحدة.

ـ وهل أنا مثل كل من يطلب منك؟

ـ أوَلست مثلهم؟

ـ كلا. أنا فيديا ـ ذو الأصابع الستة.

ـ ولِمَ الأصابع الستة؟

مد يده اليمنى. قرب الخنصر كان يتدلّى طرف لحم صغير.

ـ ألديك سجائر يا عم؟

أعطيته سيجارة.

ـ هل تريد ناراً؟

ـ التدخين مع خواء البطن مضرّ. أعطني سمكة بالأحرى.

أعطيت سمكة لفيديا ـ ذي الأصابع الستة القادم من حوض الفولغا.

ـ وماذا لو أعطيتني واحدة أخرى يا عم؟

ـ آآآ!... أنت لا تنقصك الجرأة.

ـ لا تغضب. إليك هذه. خذها وأعطني واحدة أكبر.

أخذتها، وأعطيته سمكة كبيرة. خبّأها بين أسماله.

ـ لِمَ لا تأكل؟ ألم تقل إنك جائع؟

ـ سآكلها مع سانكا.

ـ ومن هي سانكا؟

ـ إنها حبيبتي.

ـ كم سنها؟

ـ هي أصغر مني. ألا تعطيني من أجلها سمكة؟

ـ هيا، هيا، أغرب عن وجهي.

ـ لا تغضب. أنا ذاهب.

ابتعد مقوّس الظهر، شابكاً ذراعيه على صدره. ثم توقّف، واستدار:

ـ لن أقول لأحد إنك توزّع السمك هنا. لو كان كل الحراس مثلك، لخربت الحكومة السوفياتية... إلى اللقاء يا عمّ!...

خرج من الباحه، وغاب في الليل المثلج الذي يلف شارع ستراسنوا.

عندما عدت إلى المهجع، كان الجميع نياماً. وحده فراش سِي-يَا-وْ كان شاغراً قرب فراشي. ودخل سِي-يَا-وْ، فيما كنت أحلّ القماط الذي ألفّ به ساقيّ. كان سِي-يَا-وْ الطالب الوحيد في الجامعة الذي يلبس بنطالاً مخطّطاً. بل وقد كان له حذاء مبرنق وربطة عنق بشكل فراشة. كانت له أيضاً قبعة لبدية لم يعد يعتمرها. يبدو أنه خرج ذات يوم معتمراً قبعته. وفي شارع سفيتنسوا، راح الصبية يتبعونه متصايحين: «برجوازي، برجوازي!» كان يتكلّم الفرنسية بطلاقة. ولقد جاء إلى موسكو من باريس على ما أعتقد. لكني لست متأكّداً. ثمة أسئلة لا يتساءلها أولئك الذين يصلون هنا - مثلي - دون جواز.

- إسمع يا سِي-يَا-وْ... من تكون تلك الأنوشكا؟

- كاتبة المدير.

- أعرف هذا. لكن من يكون أبواها؟

- كان أبوها مهندساً أعدمه كولتشاك. أمّا أمّها فلقد ماتت بالحمّى الصفراء. ليلة سعيدة.

ضجيج المحرّك يكسر صمت الليل. وأحمد يجرجر قدميه باتجاه السرير. ويستلقي على ظهره. إلى اللقاء أنوشكا!

حينما استيقظت، كانت حزم من ضوء النهار تتسلّل من فجوات الباب إلى عتمة الكوخ. فتحت الباب الذي أوصده إسماعيل عندما خرج. شربت شاياً في كأس رقيقة الزجاج. لا

شك أنّها تركة ضياء أيضاً.

أغلق أحمد الباب، وأشعل المصباح. ومع ذلك، فلا تزال ضجة الموتور واضحة. هل ترى يُسمع صوت معولي من الخارج؟ وضع المسدس على الفراش. لا بدّ من وسيلة أوصد بها الباب. وما الجدوى؟ إذا ما عثروا عليَّ أحفر، هل سيصمد مرتاج حديدي؟ نظر إلى ساعته. الثامنة والربع. شرع يحفر في منتصف الكوخ. نظر إلى ساعته. التاسعة والنصف. لم تمض سوى ساعة وربع، وها أنا ذا ألهث تعباً. تبّاً للسماء! شرب جرعة ماء. أشعل سيجارة. فتح الباب. في الأسفل، كانت الطريق لا تزال صامتة وسط الغبار، وفي ضوء النهار الصافي.

أغلق أحمد الباب. بين فينة وأخرى، كان يقذف بالتراب المنكوش إلى زاوية من الكوخ، وينظر إلى الساعة. منتصف النهار إلا عشر. كفّاي منقطتان، والكوخ تحوّل إلى حمّام. البرد في موسكو لا يؤذي الإنسان. إنه برد جاف، يتحمّله حتى من يأتي من أفريقيا السوداء. كنت في حفلة راقصة أقامها طلاب معهد الشرق، بحذائي العسكري، وقماط ساقيّ، وقميصي الروسي المنسوج من كتّان خشن. في الحقيقة، لم يكن بوسعي الظهور بلباس آخر حتى لو أردت ذلك. كان البهو الواسع مليئاً بالراقصين. وبين الملأ لمحت سي-يَا-وْ. كان ببدلته الزرقاء الغامقة المتقنة التفصيل يبدو وكأنه قادم في ثوب تنكّري إلى حفلة مقنّعة. لم يرني. بدأت أعرق. يا إلهي. مسح أحمد جبينه

الناضج بذراعه العارية. كان قد خلع قميصه. وها هو ينتصب ليستند على مقبض المعول. يا للروعة! سِي-يَا-وْ يرقص. ومع من؟ مع أنوشكا. لمحتني. وابتسمت. شعرها أشقر كالتبن. جيدها طويل مستدير. نظرت إلى ساقيها. كانتا غليظتين. سررت لاكتشافي شيئاً غير جميل فيها. خرج أحمد ليقف على العتبة وسترته على كتفيه. ها أنذا مبلّل. ومع سرعة زكامي... تبّاً! إلتهم كل ما وجد من طعام. سجق. خبز. وبندورة. إجتاز الطريق باص وسط سحابة غبار. أغلق أحمد الباب من جديد. سأرتاح قليلاً. انبطح فوق الفراش. وحين فتح عينيه قال له إسماعيل:

- تبدو متعباً.

- كم ساعة نمت؟

كان باب الكوخ مفتوحاً. وفي الخارج كان المساء الرائق يذوب في الظلمة.

فتح أحمد الحقيبة.

- هل الخطة حاضرة؟ سأل إسماعيل.

- شرعت في العمل دون خطة. لكن سوف أرسم واحدة. مثل التي رأيت في متحف الثورة في موسكو.

- سوف أنقل التراب إلى الخارج. لكن، لننتظر ريثما يحل الليل. ثمة قفة وراء الكوخ. تركتها خلفها ضياء. آه! كدت أنسى. تقرّر الاجتماع غداً.

إقتعدا العتبة. كان إسماعيل قد أتى ببعض الحلوى.

ـ أود أن تشتري لي كل يوم صحيفة اسطمبولية، وأخرى إزميرية. نقلا التراب في القفة. كلاهما من جهة ـ مثلما حملنا دلو البطاطا، أنا وأنوشكا ـ حتى الهضبة.

ـ غداً، يجب ألاّ نخرج معاً من الاجتماع يا إسماعيل. الأفضل ألاّ يعلموا أني مقيم عندك.

وفي الليلة التالية عادا من الاجتماع في ساعة متأخرة. لكنهما لم يرقدا إلاّ بعد أن نقلا التراب.

ذات مساء ممطر ـ كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الفرق بين أمطار الصيف في إزمير وأمطار اسطمبول ـ مدّ إسماعيل الصحف إلى أحمد:

ـ البوليس يبحث عنك، منذ أسبوع على ما يبدو. لقد أوقفوا شخصين يسميان أحمد القادري، للتحقيق معهما.

ـ مؤكّد أن شكَري بك هو الذي...

ـ ربما... ولكن في هذه الحال، قد يكون أعطى أوصافك أيضاً، ممّا لا يؤدّي إلى إيقاف جميع من يسمّون أحمد القادري.

ـ لعلّهما يشبهاني. لا بدّ أنهم طلبوا أوصافي من اسطمبول. المسألة هي في معرفة المصدر الذي أعلمهم بوصولي إزمير. وبالإضافة، ما الذي يجعلهم مهتمّين إلى هذا الحد بالقبض عليّ؟

ـ لقد بدأت الاعتقالات.

ـ ماذا تقول؟

قلبي يدقّ، سريعاً، جباناً، قذراً. تماماً كما في المساء الذي تخيلت فيه أنني ملاحق. لقد أوقفوا ـ حسب الصحف ـ شيوعيين في اسطمبول، وأنقرة. سيمثلون أمام المحاكم الاستثنائية. أمّا الذين لم يُعتقلوا بعد، فإنهم مطاردون بلا رحمة. وأنا أحدهم.

ـ إذن، من كان على علم بمجيئك إلى إزمير؟

ـ الذين يعلمون لم يتم اعتقالهم... والشرطة هنا...

ـ ... لا تعرف الرفاق... لعلّهم سيستنطقون حسني إذا ما حظّروا اتحاد عمال سكك الحديد...

ـ سوف يُحظّر بالتأكيد...

انقطع المطر. وسط العتمة الدافئة الرطبة، كان ضجيج المحرّك يتواصل غامضاً، أجشّ، واهناً.

تناولا عشاءهما على العتمة، خبزاً وزيتوناً وحلوى.

ـ إلاَمَ سيتعرّض الرفاق حسب رأيك يا أحمد؟

ـ مع المحكمة الاستثنائية، لا يمكن التكهّن بسهولة.

ـ لن يشنقوهم مع ذلك، أليس كذلك يا صاحبي؟

في ذاك المساء، انتظرا حتى عمَّ ظلام الليل فنقلا التراب. كانت الحفرة تنفتح عن مساحة متر مربّع، واعتزما تغطيتها خلال يومين. سوف يصنعان صندوقاً خشبياً، يملآنه تراباً، ويضعانه وسط الحفرة. وهكذا، سيختلط تراب الغطاء بتراب الأرضية، ويتسنّى لهما فتح النقب وإغلاقه متى أرادا ذلك.

لم يعد أحمد، من يومها، يفتح الباب قطّ في النهار، ولا عاد يقتعد العتبة. ومن الصباح إلى المساء، كان يقرأ في ضوء المصباح كتب ضياء، ـ ومن بينها كتاب شعر.

ـ إسماعيل، ما الذي حفظته من كل هذه القصائد؟

ـ بيت واحد: «نحو أي ميناء يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟»

ـ ولِمَ هذا البيت؟

ـ بسبب الصواري.

وقع حلّ اتحاد عمّال سكك حديد إزمير. حقّقوا مع القادة، ومن بينهم حسني. ثم أطلقوا سراحهم.

مضى شهر، لم أخرج طواله مرّة واحدة. تخلّينا آنها عن الاجتماعات قرأت جميع كتب ضياء، مع الصحف التي كنت أطالعها، بما فيها الإعلانات. حاولت رسم المركب ذي المئة صارية ـ ولم أفلح.

وضع إسماعيل الطعام الذي أتى به على الطاولة، بمهل. ثم التفت إلى أحمد:

ـ لقد أصدر الرفاق في بروس جريدة «الرفيق».

ـ متى كان هذا؟

ـ قبل موجة الاعتقالات بوقت قصير. علمت ذلك اليوم.

ـ وبعد؟

ـ عطّلت...

ـ عليك أنت إعداد موضع المطبعة السرية، ولا شيء غير هذا. ما تبقّى، سوف نخبرك به لاحقاً. هذا ما قاله الرفاق لأحمد في اسطمبول، قبل رحيله إلى إزمير. إنه يفهم الآن. لقد كانوا يريدون، بعد استنفاد جميع الوسائل الشرعية، إصدار «الرفيق». حسناً! ولكن، ألم يكن بالإمكان استغلال الوسائل الشرعية لخزن الورق، والحروف، والحبر، والمطبعة، ثم لا أعرف ماذا أيضاً؟ لا شيء غير حفرة قذرة، وحسب. أتراهم وثقوا بالدستور، بينما برجوازيتنا تضرب به عرض الحائط؟ عندما اندلع التمرّد الكردي، كنّا الوحيدين الذين أعلنوا أن القضية ليس لها علاقة بالصعلكة. لقد قلنا وكرّرنا أنه من الواجب توزيع أراضي البكوات على الفلاحين الأكراد الذين يعملون فيها: وإذا كان للإنجليز أو لمن يوالون الخليفة دخل بالقضية، فلقد كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لاقصاء نفوذهم. وقلنا: يجب ألاّ يسيل الدم بين الشعبين، الكردي والتركي. لقد قلناه. كتبناه. كرّرناه. وها هي النتيجة...

تكلّم إسماعيل وكأنه أبصر أفكار أحمد:

ـ إنّها أجمع القذرون على إبادتنا جميعاً يا صاحبي...

ـ أكنت تتصوّر عكس ذلك؟ منذ زمن طويل، فقد القادة في بلادنا سمتهم الإصلاحية... أو على الأقل، ثمانين بالمئة من هذه السمة... إنه لمن الضروري استيعاب ذلك، تبّاً للسماء!...

بعدها بعشر سنوات، أي في ١٩٣٥، كان بوسع ضياء أن

يستعيد آراء أحمد ويحكيها من جديد: « قد كان بإمكان إسماعيل القول: أتعرف يا ضياء من لاقيت بالأمس؟ أحد النواب الذين جلسوا على كرسي القضاء في محكمة ١٩٢٥ الاستثنائية.

ـ ماذا كنتم تريدون منذ عشر سنوات؟ قلت للرجل إذن.

نظر إليّ بخبث، وقال:

ـ أيها السيد العزيز، إنكم جلبتم الهموم لأنفسكم بأنفسكم! أنا مثلاً، صاحب ملكيّتين. فَلَوْ كنّا قد وزّعنا أراضي البكوات الأكراد على الفلاحين الأكراد، لقام بعض الأوغاد لمطالبتنا نحن كذلك بأراضينا... ولقد كان هذا من شأنه أن يمثّل سابقة مؤسفة يا عزيزي!...

نهض أحمد مستنداً بكلتا يديه على الطاولة:

ـ أنا عائد إلى اسطمبول يا إسماعيل...

ـ هل فقدت عقلك؟

ـ علينا أن نحاول إيجاد الورق، وصندوق الحروف، والبقية. كما يجب إعادة الاتصال بالرفاق.

ـ لقد غادروا اسطمبول بالتأكيد. ثمّ، هل لديك فكرة عن المراقبة في القطارات، والمراكب؟

اجتمعوا، مرّة أخرى، عند حسني. وتقرّر ألاّ يعود أحمد إلى اسطمبول. ولم يرسلوا إليها أحداً آخر، إذ أن أحمد لم يكن يثق كثيراً بالعناوين التي لديه. أقلعت عن إنارة المصباح. في أشعة الشمس المتسرّبة من فجوات الباب الموصد، كنت أتأمّل

ألعاب ذرات الغبار، رقصاتها الفاتنة، حيويتها المجنونة، وأسأل أنوشكا إلى أين يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟ في الليل، رسمت صورتين لوجه إسماعيل. أعجبته إحداهما. إنها التي لا تشبهه...

ومرّت ثلاثة أسابيع أخرى.

آه! لو أفتح الباب. لو أخرج إلى الشمس. لو كنت أستطيع أن أستلقي على الهضبة التي ألقينا فوقها التراب المنكوش... آه! عشر دقائق فقط... وبدأت أعدّ الساعات التي يعود بعدها إسماعيل، ساعة ساعة، دقيقة دقيقة. لقد نسيت جميع ذكرياتي. هذا فقط ما يمكنني قوله. بعض الناس يقضون سنيناً من عمرهم في السجون، في الزنازن، وفي الخفاء. نعم. غير أنهم يعلمون منذ البدء، أنه لا يسعهم فتح الباب، والخروج. بينما، بإمكاني أنا، أن أفتح الباب في هذه اللحظة، وأخرج. ذاك عذابي. أن لا أستطيع فتح باب أعرف أنني أستطيع فتحه.

أسبوع آخر يمضي.

منذ ساعة تقريباً، وأحمد يلصق عينه بفجوة من فجوات الباب، محملقاً في الخارج. وقلبي يزداد وجيفه. سوف أرتكب حماقة. إنني أدرك ذلك. سوف أفتح الباب، أعرف. وأعرف أنها حماقة، أعرف. فتحت الباب، على مهل. وحين هبطت المنحدر الآخر للهضبة، كنت أتمالك نفسي بمشقة كي لا أنطلق راكضاً. كنت قد حلقت شاربي، ولبست ثوب عمل أزرق،

قديم، لإسماعيل. كنت قد سوّدت وجهي أيضاً. أتصوّر أنني أشبه بهذه الهيئة حدّاداً، أو شيئاً من هذا القبيل. سرت في الطريق مدة ربع ساعة. وابتعدت حين مرّت الحافلة الذاهبة إلى المدينة. على يميني، شاهدت سطحاً عالياً بعض الشيء، وفوقه بناء لم يكتمل بعد. على السطح رجلان، وشجرة دلب. وعلى السطح أيضاً، أوراق تبغ تجفّ مصفّفة تحت عريش. وعند أسفل السطح، كان هنالك ينبوع. وضعت قدمي على حافة الحوض، وألصقت شفتي بالصنبور. رحت أنهل، مستشعراً عزاء شفتي من شاربها، وقد تبلّل صدري وذراعي اليمنى، حتى ارتويت. استقمت واقفاً، وأنا أمسح فمي بظاهر يدي. أحسست كأنّ قضيباً حديدياً يلسع ربلة ساقي. التفتّ، فإذا هو كلب أصفر يقلّب برطيليه مكشّراً عن أنيابه. لعلّني مخطىء. كلاّ. إنه يقلّب برطيليه، رواله يسيل، ولعلّه لا يروّل. بعد ذلك فكّرت أنه يروّل. كلب أصفر، ابتعد بلا صوت، وذيله بين قوائمه، لا يهتزّ. كما لو أنّه ذعر لرؤيته عينيّ. تحسّست ربلة ساقي، ونظرت إلى أصابعي: دم! الرجلان على السطح شاهدا الحادثة: «لا تقلق لذلك أيها الشاب! ضع التبغ على موضع العضّ. ترى، ماذا دهاه؟ إنّه حيوان هادىء في العادة!» قالا لي. تناولت بعض التبغ. وضعته على الجرح، وعقدت حوله ضمّادة بمنديلي.

لم يلاحظ إسماعيل تلك الليلة على الفور شارب أحمد الحليق. وبينما كان الأخير يقطع فتيلة المصباح بمقص أظافر لتعديل

شعلتها، فيما يتراقص على وجهه المتفكّر مزيج من السخام والشرر، قال له:

ـ لم حلقت شاربك يا صاحبي؟

ـ هل تغيّرت كثيراً؟

ـ لم ألمح ذلك فوراً. ولكن إذا نظرنا لرؤية ما إذا كان ذلك يغيّرك، فهذا أكيد. نعم، لقد تغيّرت. لا يناسبك الشارب الحليق.

ـ هذا يجعل أنفي أطول. أليس كذلك؟

لم يعلمه بما وقع له ذلك اليوم. إنه لمخجل أن أفعل ما فعلت وأخفيه عن إسماعيل. ومع ذلك، فقد سكت.

مرّت أربعة أيام.

كان أحمد يقضم حبة بندورة كبيرة، بعد أن يغمّسها بالملح، وهو يطالع صحيفة إزمير. وكان إسماعيل يبدّل ورق الجرائد المفروش على رفوف خزانة الطعام.

ـ قل يا إسماعيل...

ـ ماذا؟

ـ هناك كلاب كَلِبة سائبة في المنطقة، هذا ما تقوله الصحف.

ـ نعم، يبدو ذلك. لقد عضّت أطفالاً؛ وقبل الأمس، ناطور المصنع.

ـ وبعد؟

ـ ماذا بعد؟ من يعضّه كلب، يرسلونه إلى اسطمبول، حيث يوجد معهد للكَلَب.

ـ وهل ثمة من يكلب؟

ـ بالتأكيد!

ـ وأصحاب الكلاب الكلبة يعاقبون بغرامة؟..

ـ ومن يعترف بامتلاك كلب مصاب بالكَلَب؟

ـ تباً للسماء! إسماعيل، يجب أن نعقد اجتماعاً في مساء الغد.

وحكيت له كلّ شيء.

ـ تلك هي القصة!...

ـ تلك هي القصة! هه!... أعاد إسماعيل. ثم أردف:

ـ الكلب للرجلين الذين رأيتهما على السطح. لقد ذهبت مع ضياء مرات عديدة لشرب القهوة تحت شجرة الدلب. سأذهب لرؤية الكلب غداً. إنه موجود بالتأكيد، فلو كان مصاباً بالكَلَب لعضّ أحداً قبلك، ولكان الفلاّحان قد قتلاه منذ زمان.

ـ وهل من المفروض أن يعضّ أحداً قبلي؟ ألم يكن ممكناً أن يبدأ بي؟

ـ مؤكّد أنه ممكن. ولكن لم نفترض الأسوأ يا صاحبي؟

انعقد الاجتماع مرة أخرى في بيت حسني. بيت من الخشب، غير مطلي. يتكوّن من رواق في الطابق السفلي، وحجرتين في الطابق العلوي، وعلى نوافذه مشربيات. لدى وصولهم، يخلع

الجميع أحذيتهم في الرواق، ويصعدون إلى أعلى، ليدخلوا الحجرة التي على اليسار. كانت نظافة تلك الأرائك الموقّاة بالكتّان تبعث فيَّ الارتياح. وكانت الأرضية البيضاء الشبيهة بالرّاتنج، لفرط ما غسلت، وحكّت، ولمعت، رطبة بعد، تفوح بمزيج من روائح الصابون، - صابون أندرينوبل على ما يبدو - والخزامى، وخشب التّنوب البليل. وفي الغرفة المجاورة، كانت ابنة حسني البالغة ستة أشهر تبكي. وبدأت الجلسة برئاسة حسني. شرحت القصة بأكملها، وأخذ إسماعيل الكلمة:

- لقد ذهبت لملاقاة الرجلين، وعلى حدّ قولهما، يبدو أن الكلب قد نفق بحادث سيارة.

تكلَّم حسني، الذي كان قميصه أبديّ النظافة، ولحيته لا تزيد ولا تنقص في طولها عن إصبعين، على الدوام:

- متى دهسته السيارة؟

- هذا الصباح.

- أيمكن أن نتأكّد من ذلك؟ لعلّ الرجلين خافا من الغرامة والمشاكل! لعلّهما يكذبان!

- أتعني أن الحيوان كان مصاباً بالكَلَب؟

اجتنب حسني النظر إلى أحمد والتفت إلى إسماعيل:

- هذا ممكن... هل قلت للرجلين ان الكلب قد عضَّ أحمد؟

- أأنت مجنون؟

كالعادة، أحضرت لهم المرأة الشابة، ذات الخمار الأبيض، القهوة. وكالعادة، كان نهداها المكتنزان بالحليب يوتّران صدار فستانها الواسع.

كان أحمد يرتشف القهوة بأناة، ويمتصّها محدثاً صوتاً. ثم ها هو يحاول الكلام كأنّ الأمر لا يعنيه شخصياً:

ـ الكلب مات مريضاً إذن، وصاحباه يزعمان أن سيارة دهسته، لخوفهما من الغرامة. أليس كذلك؟ هذا ممكن. أو مثلما يقول حسني، ممكن جداً... ولكن، ربما لم يكن قطّ مريضاً، وربما دهسته السيارة حقاً، وأنا قد يكون عضّني، ليس لأنه مصاب بالكَلَب، ولكن لأنه ببساطة، كلب!... هذا أيضاً ممكن... أليس كذلك يا إسماعيل؟

ـ بالتأكيد!... بل إنني أتذكّر الآن أنه حاول يوماً عضّ ضياء في يده.

ـ لماذا؟ سأل حسني.

ـ كان ضياء قد أتاه بعظم، وراح يرميه إليه، ثم يأخذه منه. لقد أزعجه.

استمع أحمد إليهما بصبر، ثم قال:

ـ أنا لم أسرق منه عظمه. ولكن، جائز أن يكون قد عضّني لأنه ببساطة كلب. وإذا ثبت هذا، فأنا مستعدّ لتقبّل اللّوم الذي أستحقه لتصرّفي اللاّمنضبط، وخروجي من الكوخ. هذا كل شيء! ـ تنشّقت الهواء بقوة وبحزن ـ. ولكن إذا ما هلك

الحيوان كَلَباً، إذا ما كان مريضاً حين عضّني، هذا يعني أنني سأكلَب أيضاً...

- رغبت في الضحك. سأكلب! إن لفي هذه الكلمة شيء مثير للضحك! تبّاً للسماء! - إذن، ولكي لا أكلب، يجب أن أذهب إلى اسطمبول من أجل المصل... أنا أعرف الطبيب مدير المعهد...

- قال حسني:

- سبق وقررّنا عدم رجوعك إلى اسطمبول. غير أن الأحداث تلزمنا بالتراجع عن هذا القرار. ربما أمكنك الوصول إلى اسطمبول بسلام. ثم، إذا كان الطبيب صديقاً لك، فمن الجائز ألاّ يخبّر عنك...

دخلت الغرفة المرأة ذات الخمار الأبيض. أخذت فناجين القهوة، وانصرفت. قلت:

- بإمكاننا تلخيص الوضع كما يلي: - لقد فهموا الوضع تماماً، غير أنني ألحّ ومرّة أخرى أطرح كل شيء، تحدّياً، - هناك ثلاثة احتمالات، الأول: أن يكون الكلب مريضاً، أو أن يوقفوني في الطريق إلى اسطمبول، أو أن يخبّر عني الطبيب، لأنه لا يريد المجازفة بمداواة رجل تبحث عنه المحكمة الاستثنائية. إذن، حالما أتعافى، - إذ أنهم في كافة الأحوال سيعالجونني - ، أرسل للمثول أمام محكمة الاستثناء. هذا هو الاحتمال الأول. أما الثاني: فالكلب مريض؛ وفي الطريق إلى اسطمبول، لا

أوقف، ويظهر الطبيب رجلاً لطيفاً، يعالجني، وأنجو. ولنمرّ الآن إلى ثالث الاحتمالات: الكلب مريض، وأنا لا أذهب إلى اسطمبول للعلاج، وأكلب هنا. هل ينبغي أن أعود إلى اسطمبول، نعم أم لا؟

لم يتخذوا قراراً. تصرَّف كما تريد، هكذا قالوا.

كالعادة دوماً، سبق أحمد بالخروج. وكالعادة، لحقه إسماعيل في ذات المكان الذي تصبح فيه ضجة الموتور مسموعة. وسارا دون أن يتبادلا كلمة.

وفيما كانا يخلعان ثيابهما، بعد إشعال المصباح، أعلن أحمد:

ـ لن أذهب إلى اسطمبول.

لم يجب إسماعيل. اضطّجع وانحنى أحمد على بنطاله الذي كان ملقياً على كرسي تناولت مسدسي. ووضعته على ملابس إسماعيل المرمية على كرسي آخر.

ـ إليك مسدسي يا إسماعيل.

ـ لماذا؟

ـ لأن هناك احتمالاً بنسبة خمسين بالمئة أن أكون مصاباً بالكَلَب...

ـ وإذا ما خرجت سليماً وعدت...

ـ لا! إذا كان من المحتمل خمسين بالمئة أن يكون الكلب مريضاً، فمن المحتمل خمسين بالمئة أيضاً أن يشي الطبيب بي؛ علاوة على مخاطر اعتقالي في الطريق. لن أعود... وإذا كلبت،

أطلق عليَّ الرصاص... واقبرني في هذه الحفرة... وإذا أهلت عليَّ التراب، فلن تتسرّب الرائحة... ـ كلّ هذه الكلمات، هذه الـ: أطلق عليَّ الرصاص... في هذه الحفرة... الرائحة... ألفظها كأنما لاستثير إسماعيل، ـ لا أحد يعلم بسكناي هنا... ـ ابتسم: ـ لكن، لتفادي كل احتمال، سوف أكتب رسالة، حبّ يائس، وانتحار: إلخ!.. ـ تبّاً للسماء! لأول مرّة في حياتي تراني أقول أشياء بمثل هذه التفاهة! ـ هذا كل شيء، إسماعيل...

ـ إنك لمجنون حقاً! أقسم على ذلك...

ـ وماذا يعني أنك لمجنون؟ هـه؟ وإذا مـا ارتميت عليـك لأعضك؟ هه؟

لم يجب إسماعيل.

ـ أتعرف أن تستعمل مسدساً؟

ـ نعم...

ـ أأنت ماهر في الرماية؟

ـ لا بأس!...

زرعت الكوخ جيئة وذهاباً. توقّفت أمام خزانة الطعام. فتحتها. أغلقتها.

ـ ألا فلتأوِ إلى مرقدك يا صاحبي!

ـ إئتني بكتاب طبّ غداً.

ـ ولأي غاية؟

ـ سوف ندرس فيه أعراض الكَلَب. على ما أعلم، لا يصبح

الواحد كَلِباً بين عشية وضحاها، بالتأكيد... هذه القذاره تسبّب نوبات... قبل الارتماء على الناس رايلاً، وقبل العواء...

- العواء؟ ماذا تراك تختلق يا صاحبي؟

- كنت قد حضرت مسرحية في اسطمبول... كان محسن يمثّل في... «حرّاس المنارة»، أو شيء من هذا القبيل... تدور الأحداث في منارة... ليلة عاصفة... تنعزل فيها المنارة عن الأرض تماماً... أحد الحارسين، وأعتقد أنه الابن، يكلب، ويرتمي على أبيه... كان يعوي في المسرحية...

- حسناً! نم، وأطفىء المصباح...

- لا تنسَ الكتاب...

- حسناً! حسناً! إذا وجدت...

- وكيف، إذا وجدت؟... يجب أن تجده، وتأتيني به.

- حسناً! حسناً!

ليلتها، كان المحرّك يجأر وسط الكوخ.

- إسماعيل...

- ماذا؟

- هل نمت؟

- أحاول بلا جدوى...

ضوء القمر يتسلّل من شقوق الباب، ويكتسح ظلمة الكوخ.

- فيمَ تفكّر يا إسماعيل؟

ـ في لا شيء...

إنه يفكّر في شيء مع ذلك... لكن أحمد كان يريد من العالم بأسره، وبخاصة إسماعيل، أن يفكّروا فيه هو، في وضعه. هذا الولد محقّ!... غير أن إسماعيل كان يفكّر في أمّه...

الخط السادس

قذف أحمد الكتاب الذي مدّه إليه إسماعيل بإهمال، وجلسا يأكلان صامتين.

ـ هل تصفّحت الكتاب يا إسماعيل؟ سأل أحمد، فيما كان كلاهما يشعل سيجارة.

ـ نعم.

ـ وبعد؟ أصحيح أن المرء يأخذ في العواء ككلب؟

ـ صحيح.

ـ وماذا أيضاً في الكتاب؟

ـ إقرأ بنفسك، سوف ترى...

ـ وفي غضون أربعين يوماً؟ أليس كذلك؟

ـ أو واحد وأربعين...

وضع أحمد الكتاب دون أن يفتحه فوق ثيابه، ونفخ على المصباح. صمت.

ـ لمن تمثّل هذه الكوميديا يا صاحبي؟ قال إسماعيل... اشعل

المصباح، واقرأ الكتاب...

أشعلت المصباح من جديد، وقرأت. لم يكن فيه ما يزيد على معلوماتي. يبدأ المرض بنوبات صداع، وأوجاع في المفاصل، ووهن كبير؛ ويلي ذلك التقزّز من الأكل، ثم الخوف دونما سبب. الخوف من الماء، فالخوف من النار، فالعذاب الذي تسبّبه الحاجة إلى العضّ، والارتماء على الناس، بفم مزبد، والعواء... ثم يكون الشلل في اليوم الأربعين، أو الواحد والأربعين...

نهضت. تناولت طبشورة من صندوق أقلام الفحم. رسمت على الباب ستة خطوط. ستة خطوط بيضاء.

ـ ماذا تفعل يا أحمد؟

ـ إنه اليوم السادس يا إسماعيل...

ـ أنت ممسوس حقاً!... أؤكّد لك يا صاحبي... ـ أشعل سيجارة، وقذف بواحدة إلى أحمد. حالة صديقه تفزعه. إنه لم يكلب بالتأكيد، غير أن هذه الأيام الأربعين سوف تنهك هذا الصبي.

أطفأ إسماعيل المصباح. في العتمة، كان أحمد يميّز الخطوط البيضاء الستة المرسومة على الباب. الخطوط التي رسمتها على باب الداتشا، لم تلاحظها أنوشكا سوى في اليوم السابع:

ـ ما هذه الخطوط يا أحمد؟

ـ إنه يومنا السابع. يبقى لنا إذاً، ثلاثة عشر يوماً يا أنوشكا.

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ؟ أنت تعلمين جيداً. تنتهي إجازتك وتنتهي عطلتي، ونؤوب إلى موسكو...

ـ أحمد...

ـ ماذا ؟

ـ لقد صرخت في نومك هذه الليلة، كأنك تذبح. لا شك أنه كابوس.

ـ إنه ليس الكلب بالتأكيد... حتى آلام الصداع لم تبدأ بعد. يحدث لي ذلك مرة أو مرتين في السنة. في المرة القادمة، ما عليك سوى أن تلمسيني لمسة خفيفة. إنها تكفي... فأنا أريد أن أستيقظ ولا أقدر. تبّاً!... أغلب الأحيان، لا أعرف في أيّ مكان أكون. ولكن يحدث أيضاً أن أعتقد نفسي في غير المكان الذي أكون فيه. أحسّ أنّني سأموت إذا ما لم أستيقظ فوراً. فإذا حدث ذلك يا أنوشكا، لا تخافي، بل المسي ذراعي بلطف. وستكفي لمستك...

لم يحمل إسماعيل المسدس معه لدى خروجه في الصباح.

ـ غداً، خذه، إسماعيل...

إسماعيل لا يجيب. إنه نائم.

مدينة باتوم شبيهة برقعة شطرنج. يجوز أن تنهمر عليها الأمطار أربعين يوماً وأربعين ليلة، ولكن ما أن تسطع الشمس، حتى تجفّ شوارعها المبلّطة بالحصى.

أنا جالس إلى طاولة في فندق فرنسا بباتوم... جميع أنواع الأشجار، والأزهار، والحشائش الاستوائية، موجودة في باتوم، بالرأس الأخضر، وسط حديقة النباتات. يمكن للمرء أن يتأمّلها، ويتلمّسها، ويتنشّقها. كيفما أراد. في ذلك الصيف من سنة ١٩٢٢، كان الناس رجالاً ونساء، منبطحين أو مستلقين على ظهورهم جنباً إلى جنب، عرايا كالديدان على رمال شاطىء باتوم. وكنت قادماً لتوّي من الأناضول، الذي لم ألمح من المرأة فيه سوى عراء يديها وقدميها، وعينيها أيضاً، فقط في باحات الأسواق... لكن، كثيراً ما التقى بصري في السوق بنظرة عينين مركّزتين عليَّ. عينان عاريتان بين الأخرة. كان يبدو لي آنئذ، أنني أرى المرأة عارية من الرأس إلى القدمين. بل وأكثر من ذلك... إن المرء يعتاد العراء التام بسرعة، فيما يعتاده من تمام الأشياء، إذ يلتغي دور الخيال. وفي باتوم، سريعا ما اعتدت، ولم أعد ألاحظ عري النساء المستلقيات على رمال الشاطىء.

أنا جالس إلى طاولة في فندق فرنسا بباتوم، وفي الشارع يمرّ فرسان حمر. هدّهم التعب وأضناهم الجوع. غير أن العالم ملكٌ لهم... لقاء جماهيري هذا المساء، وسوف أحضره. على حصى باتوم المستديرة، لا تنقطع طرطقة الأحذية الخشبية... طق - طق - طق - طق...

أنا جالس إلى طاولة بفندق فرنسا... جائع، جائع... ربع ليبرة من الخبز الأسود يومياً، وصحنان من حساء الشعير

المدقوق، ثم كأسان من الشاي بالسّكرين؛ بعض رؤوس سمك تسبح فيه. لا في الشاي، بل في الحساء. منذ زمن ليس قصيراً بعت حذائي المبرنق. اشتراه مني فلاح شاب من أدجارا. كان يتأهبّ للزواج. وكان حذائي المبرنق هدية لعروسه؛ ولقد كلّفه ذلك ملايين الروبلات. وفي المركب التركي الذي نقلني من تريبيزوند إلى باتوم، كنت قد سألت الربّان والبحارة: «هل النقود متداولة في باتوم؟ إذا كانت هناك الشيوعية، فمن رأيي أن النقود ملغاة...» - «النقود متداولة عند المناشفة، قالوا لي، لا عند البلاشفة... أمّا نحن، فلا نعرف البلشفية... لكن باتوم إلى الآن، بين أيدي البلاشفة...» كنت أملك خمسين ليرة تركيـة، وزّعتهـا على طـاقـم المركـب. لم أحتفـظ لنفسي إلاّ بواحدة، كذكرى تاريخية... وعاد المركب الذي أنزلني بباتوم مثقلاً بحمولة من الأسلحة والذخيرة إلى تريبيزوند. وفيما بعد، علمت أن بعض الربابنة وبعض البحارة، ولا شك أنهم أولئك الذين أعلنوا عن جهلهم بالشيوعية، كانوا يهرّبون المجوهرات.

أنا جالس إلى طاولة بفندق فرنسا في باتوم. طاولة بيضاوية الشكل، ذات سيقان مذهّبة. بل إنها مذهّبة بأكملها وليس فقط سيقانها؛ مع نتوءات، وتجاويف، وتحدّبات تزخرفها... إنها طاولة من طراز الروكوكو★. في البيت المحاذي للبحر في

(★) الروكوكو: أسلوب معماري شاع في فرنسا في عهد لويس الخامس عشر، وتميّز بخطوط ملتوية، وزخرفة ثقيلة.

سكوتاري.. هنالك أيضاً طاولة روكوكو وسط الصالون... روكوكو... هذا السفر من ضفاف البحر الأسود إلى أنقرة، إلى بولو. هذا السفر سيراً على الأقدام، والذي استغرق من الأيام خمسة وثلاثين، أو بالأحرى من الأعوام خمسة وثلاثين. والبلدة التي اشتغلت فيها معلّماً طيلة ثمانية شهور. وبكلمة، الأناضول، الذي اكتشفه إبن الباشا الإسطنبولي هذا. أو بعبارة أدق، حفيد الباشا، الذي يجلس الآن إلى طاولة روكوكو، في فندق فرنسا بباتوم، منطرحاً عليها مثل قماشة هندية قذرة، ممزقة، ومبقّعة بالدم... إنني أنظر إلى الطاولة، وأرغب في البكاء... أنظر إليها، فيصعد الدم الغاضب من جديد إلى رأسي. أنظر إليها، ومن جديد، أخجل من البيت الذي على ضفة البحر. وأقول لنفسي: فلتقرّر يا بني، فلتقرّر... وها أنذا عاقد العزم. الموت أفضل من الاستسلام. مهلك يا بني! علامَ التسرّع؟ لنطرح الأسئلة. فوق هذه الطاولة، تُرب الأناضول، ماذا تقدر أن تمنح؟ ماذا تريد أن تمنح؟ كل شيء... حريتك؟ نعم! كم من السنين يمكن أن تقضي في السجن لأجل هذه القضية؟ كل حياتي إذا اقتضى الأمر... نعم. غير أنك تحبّ النساء، والأطعمة الشهية، والخمور العتيقة، والملابس الجميلة. إنك لتذوب رغبة للطواف في أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، وأميركا. لو تركت الأناضول على طاولة الروكوكو في باتوم، لو جزت تيفليس إلى كارس، ومنها إلى أنقرة، سوف تجد نفسك في أقلّ

من خمس سنوات نائباً، أو وزيراً، وعندئذ... لتأتِ النساء، والأطعمة الشهية، والخمور العتيقة، والفن، والعالم... لا! بإمكاني أن أقضي عمري بأكمله في السجن... حسناً! بما أنّي شيوعي، فقد يشنقوني، مثلما فعلوا بمصطفى الصوفي ورفاقه. ألم يخطر ببالك هذا السؤال في باتوم؟ بلى... تساءلت: هل تخاف من القتل؟ وأجبت: لا. على الفور؟ دون تفكير؟ كلا. في البدء، أدركت أنّي خائف. ثم أدركت أنّي لم أعد خائفاً... وتساءلت أيضاً عمّا لو كنت مستعداً ـ من أجل القضية ـ أن أصبح كسيحاً، أعرج، أطرش، مصدوراً، أعمى... أعمى؟ أن أكون أعمى؟... تمهّل قليلاً. لم أفكّر أبداً أن الإعماء ممكن أيضاً... نهضت. أغمضت عيني بقوة. زرعت الغرفة... وسط ظلمات عينيّ. ولمرّتين، سقطت على الأرض. لكني لم أفتحها... ثم توقّفت أمام الطاولة، وفتحت جفنيّ. نعم. إني أقبل. أقبل بالإعماء... إنه لأمر صبيانيّ، بل ومضحك قليلاً... لكنها الحقيقة... ليست الكتب هي التي جاءت بي إلى هنا، ولا هي الدعاية، ولا هو وضعي الاجتماعي... إنه الأناضول... الأناضول الذي بالكاد رأيته، وبغموض... إنه قلبي الذي أفضى بي إلى هنا... هذا كل شيء...

الخط السابع

كان أحمد قد استيقظ منذ وقت طويل حين نهض إسماعيل فجراً، لكنه تظاهر بالنوم، وراح يرمق إسماعيل من بين جفنين نصف مغمّضين، وهو يلبس ثيابه. تناول إسماعيل المسدس، تفحّصه بدقّة، ودسّه في جيبه. وأخذ من خزانة الطعام خبزاً، وسجقاً، أكلهما واقفاً. ثم فتح الباب، وأغلقه خلفه بهدوء. كان أحمد لا يزال يترصّد. وفجأة، أحسّ غياباً في الكوخ، خارجه، في الطريق، على السطح الذي تتوسطه شجرة الدلب، على أرائك حسني، في بهو منزل شكري بك، في الأراضي المهجورة، في مدينة إزمير، في شارع تفرسكوا بموسكو، في داتشا أنوشكا، على البحر، في الكون بأسره... شيء ما، لم يعد موجوداً. منذ متى؟ هل بينما كان مستغرقاً في النوم؟ ومع ذلك، فهو يقظ منذ ثلاث ساعات. لقد أحسّ الغياب الفجائي في هذه اللحظة بالذات. ربّما في اللحظة تلك توقّف فيها صوت المحرّك وانقطع. إنه يصيخ السمع، لا إلى حفيف أو إلى وشوشة، بل هو يتنصّت الصمت. وها يدخل سِي-يَا-وْ الحجرة على أطراف أصابعه. كعادته دوماً. لم يحدث أبداً أن عاد متأخّراً مثلما في ذلك اليوم، عاد فجراً. وراء النوافذ المضاعفة الزجاج، والمجلّلة بالصقيع، يندف الثلج، أعرف من أين أتى سِي-يَا-وْ جلس إلى الطاولة. إن طولها يزيد عن المترين بالتأكيد، وعرضها عن

ثمانين أو تسعين سنتيمتراً. ولِمَ لا يكون متراً؟ يجب قياسها. أتكون أطول من حفرتنا؟ أتراك حفرت قبرك بيديك؟ تبّاً للسماء! «أحفروا قبري على حافة الطـريـق»، تقـول الأغنيـة. كانت مربّيتي تغنيها في البيت الذي على شاطئ البحر. وكنت أبكي. إسماعيل حمل المسدس. ونهض سِي-يَا-وْ. سحب من درج الصوان قطعة عاج، وإزميلاً صغيراً، وبدأ يصقل العاج وينحته. أعطونا هذه الغرفة من شهرين. لقد كان كلّ منا يدير فريقاً فنياً. يدير هو الفريق الصيني، وأنا الفريق التركي. وكان سي-يا-وْ يطلعني، حتى هذه اللحظة، على منحوتاته العـاجيـة: صبايا صينيات، بقامات لا تزيد عن عشرين سنتيمتراً تقريباً؛ نباتات معرّشة طويلة ناحلة تلتفّ حول نفسها بشكل لولبي، تتنافس في بهائها ورهافتها، حزينة ومتشابهة، شيوخ صينيون مرط، صلع، يفترشون الأرض، وقد ثنوا ركبهم، فارتاحت كروشهم المندلقة فوقها. لكني أعرف الوجه الذي يُنحت على العاج... ويرنّ المنبّه بحدّة. فيدسّ سي-يَا-وْ العاج والإزميل في جيبه. متى خلع قبعته؟ هذا يعني أنني غفوت في لحظة ما. المنبّه يرنّ كما لو أنّه لن يتوقّف أبداً. لم أسمع البتّة منبّه إسماعيل. ولا حتىّ مرّة واحدة. إنه دوماً تحت وسادته.

- هل وصلت الآن سي-يَا-وْ؟

- لماذا؟

- لأن فراشك لم يلمس...

لم يجبني. كان مغتاظاً بوضوح. لأني لم أفهم أنه كان يريد إخفاء ساعة عودته. بل وأسوأ؛ لأني أعرف، ورغم ذلك، طرحت عليه السؤال.

- ترى، هل كنت مع أنوشكا أيضاً؟

يحدجني كأنّنا اقترفت جرماً.

- أعرف أنك تحبّها.

لم يجب. وتابع نظرته المتسائلة.

- هذه أشياء لا تخفى عن رفيق... وأنوشكا؟ أتحبّك؟ - إنني خجل مما أفعل. لكن فكرة قضائه الليل مع أنوشكا... لا أتصورهما يتعانقان، أو... كلا. أعرف أنهما يتجوّلان على ضفاف الموسكوفا، دون أن يتلامسا حتى بالأيدي. لقد رأيتهما بعينيّ. كلا. ولكن بقاءه معها حتى الصبح يجعلني مجنوناً. هذا ما فهمته اللحظة. - أنوشكا تحبّك أيضاً. أليس كذلك؟

إنقطع الثلج. بعض الناس يجلسون على مقاعد شارع تفرسكوا، وأنا صاعد إلى ساحة ستراسنوا. زلاجات تمر. وهذا عسبور(★). إنه عسبور أسود لا أصفر. هذا النوع من الكلابّ لا يكون أصفر. إنه يحاذي فتاة صغيرة. الكلاب الكَلِبة لا تواجه من تعضّه، بل تباغته بمكر. إنها تقترب منك خفية؛ ودون ضجة، تعض ربلة ساقك اليسرى. لم يحكم إسماعيل إغلاق الباب

(★) سلالة من الكلاب معروفة بقوتها وبفهمها (المنهل).

لدى خروجه. أرى ضياء الصباح يتسرّب من الانفراجة. إنني أعدّ بحثاً حول التأثيرات التي أحدثتها ثورة تشرين (أكتوبر) الكبرى في الرسم عامة، والروسي منه تحديداً. وها أنا جالس في مكتبة الجامعة، وسط صمت يذكّرني بهدوء الخريف في حديقة سكوتاري. حديقة البيت الذي على ضفة البحر. أمامي كتب ومجلات متعلّقة بموضوعي. لم ألمسها هذا المساء، إذ ليست لديّ رغبة في العمل. حتى درس الاقتصاد السياسي الأثير لديّ، استمعت إليه دون اهتمام هذا الصباح. عداي في المكتبة، طالبان، أحدهما روسي؛ وهو شاب، فقد كلتا ذراعيه في الحرب الأهلية. إنه يقلب صفحات الكتاب بواسطة عصا خشبية يشدها بين أسنانه. والثاني لا أعرفه. يبدو من ملامحه وهيئته أنه منغولي. لاحظت فوق الطاولة الشاغرة التي على يساري مجموعة البرافدا. تناولت أحد المجلّدات. سنة ١٩٢٢. عناوين الصفحة الأولى: رسائل العام الجديد «أيها الرفاق، لا تنسوا أن الفلاحين والعمّال يجب أن يتحلّوا بالكرم هذه السنة، لئلاّ تنفتح قبور جديدة على امتداد الفولغا! أمنياتنا لهذا العام: التغلّب على المجاعة، توطيد الصناعة، حصاد وافر، وانتصار الثورة البروليتارية في العالم قاطبة!» أقرأ الأنباء الأخرى: في مصر، حرب الاستقلال الوطني. الحكومة التشيكية ترسل ثلاثة عشر مليون كورونة لضحايا المجاعة. أقلّب الصفحات. ٣ كانون الثاني (يناير): عمّال سكك الحديد في ألمانيا يعلنون الإضراب

العام. إضراب عمال المطابع في الصين. عمال المناجم يتأهّبون للإضراب في إنجلترا. ١٠ كانون الثاني: نموّ الإنتاج النفطي في باكو. حرب الشوارع في إيرلندا. عناوين ١٤ كانون الثاني: «عندما تستلم مَعَاشك، فكّر بالجياع! وحين تطعم أطفالك، لا تنسَ أطفال حوض الفولغا، الذين مات آباؤهم جوعاً!». أبحث عن أخبار تركيا. ها هي ذي: ٧ شباط: الرفيق فرونز يصرّح بعد عودته من أنقرة: إبرام اتفاق مشترك بين أوكرانيا وتركيا. مجلس النواب التركي يعلّق أهمية كبرى على الصداقة التركية ـ السوفياتية... ١٠ شباط. إنه الرفيق فرونز دوماً: «في العهد القيصري البائد، كان للخوف من روسيا، ومن الخطر الإمبريالي الآتي من الشمال أبعد تأثيراً على الجماهير الشعبية التركية. وقد كان هذا الخوف يمثّل إحدى أخصّ سمات الروح التركية. أمّا اليوم، فيمكننا ملاحظة عكس هذا الوضع تماماً. إن الشعب التركي يكنّ صداقة عميقة لروسيا، لأوكرانيا، والجمهوريات السوفياتية الأخرى.» وفي شهر آذار أكتشف نبأ آخر: إننا نشكر الحكومة السوفياتية لطلبها توجيه الدعوة إلى تركيا لحضور مؤتمر جنيف.

يدخل بتروسيان، سكرتير خلية الحزب بالجامعة. إنه لا يحمل اليوم وسام العلم الأحمر. ومن فوق كتفيّ يلقي نظرة على البرافدا المفتوحة أمامي. ـ مع صحف ١٩٢٢. إنها لا تبدو صادرة منذ عام، بل منذ عشرة، همست له.

وها هو بتروسيان يحرّك رأسه موافقاً، ويهمس:

ـ لا بدّ أنّ فيها مقالاً حول المشاكل التي تعترض سياستنا الفلاحية. فإذا وجدته، سجّل تاريخ نشره. ربما كان ذلك في تشرين الثاني أو كانون الأول...

ـ حسناً...

وينصرف بتروسيان. إنه يعدّ بحثاً حول مشاكل الأرض في الشرق الأوسط. «إذا اشتغلت بجدية، فسوف أنتهي منه في غضون ثلاث سنوات»، يقول. لكنه مصاب بالسرطان. وهو يعلم جيداً أنه لن يعيش أكثر من ثمانية أشهر أو تسعة. ولربّما عاش عاماً آخر، إذا أمهله المرض، ليس إلاّ.

أعطت إيران ٣٠٠ صاع من الأرزّ و٢٣ صاعاً من الزبيب لمعونة أطفال حوض الفولغا الذين يعانون من المجاعة. وبعثت الولايات المتحدة سبع سفن محمّلة بالذرة. مجلس الوزراء البريطاني يرفض تقديم معونة مالية إلى روسيا. وصلْتُ إلى ١٥ آذار. عناوين أخرى: «لا بدّ لكلّ منظمة، ولا بدّ لكل مواطن من التفكير فيما فعله إلى اليوم، لإغاثة ضحايا المجاعة! وليجب على هذا السؤال المطروح على ضميره! إن الذين ما زالوا يصمّون آذانهم عن أنين الجياع، سفلة. وسفالتهم يجب أن تعرف من الجميع، حتى تظهر على وجوههم وصمة الجريمة الدنيئة!» أرسل الشيوعيون السويديون ١٦٥٠ صاعاً من الدقيق والسمك مع عشرين ألف كورونة. لينين يلقي كلمة في المؤتمر الحادي عشر

للحزب الشيوعي الروسي. الديكتاتورية الفاشية في إيطاليا. أخبار أخرى من بلدي: الشيوعيون الأتراك يرسلون برقية تهنئة بمناسبة تحرير الجيش الأحمر لفلاديفوستوك. مجلس النواب ينشر مرسوماً يعلن إسقاط حكومة اسطمبول.

خلف النوافذ تتساقط ندف كبيرة من الثلج، بلا صوت، في مساء موسكو. الشاب المبتور الذراعين يقلّب بسرعة صفحات كتابه، مستعيناً بقطعة الخشب المشدودة بين أسنانه.

عناوين ٧ تشرين الثاني: «سلاماً أيها العامل في الغرب! سلاماً أيها الذي يساند الجمهورية العمالية الروسية. سلاماً أنتم كذلك، يا عمال المعادن الشيوعيين في ألمانيا. أنتم يا من أسقطتم غليوم. فلتسقطوا أيضاً عرش ستينس الدموي!» في نفس العدد، تهاني لينين: «أيها الرفاق الأعزاء، أقدّم لكم أحرّ التهاني بمناسبة حلول العيد الخامس لمولد ثورة تشرين الأول (أكتوبر). أما أمنيتي فهي: في غضون السنوات الخمس الآتية، لنحرزنَ انتصارات للسلام لا تقلّ عمّا أحرزناه منها بقوة السلاح. لينين». وفي نفس العدد دوماً، «أيها الشباب لتسرع، أيها الشباب، لتحلّ محلّ الأجيال الماضية!».

دخل حسن. إنه يتظاهر بعدم رؤيتي، ويجلس إلى طاولة على يساري، بعيداً عني. كان حسن ضابط صف في الجيش العثماني، وقع في الأسر من طرف العساكر القيصرية في القوقاز، فأرسل إلى سيبيريا. وفي ١٩١٨ التحق بالبلاشفة. ثم تعرّف إلى

مصطفى الصوفي سنة ١٩١٩. لا شك أنه لم يترك جبهة واحدة دون أن يقاتل فيها البيض: فقد قاتل ضد كولتشاك، وضدّ المجريين، وضدّ فرانجل، وفي صفوف الفيلق التركي الأحمر الذي كوّنه مصطفى الصوفي، ضد الطاشناق والمناشفة الجيورجيين. وها هو الآن يدرس الفلسفة في الجامعة. لكنه يريد أن يصبح مهندساً. إنه لا يحبّني. ربّما لأنني تمكنت من المجيء إلى جامعة موسكو، بكلّ طمأنينة، ودون أن أطلق رصاصة واحدة على أعداء الطبقة العاملة، والإمبرياليين، والرأسماليين. ثم إنه لا يمكن أن يغفر لي تحدّري من سلالة الباشا. سنة ١٩٣٢ أصبح حسن مهندساً. وأعدم سنة ١٩٣٧. وبعد المؤتمر العشرين أعيد إليه اعتباره. أعود إلى برافدا السابع من تشرين الثاني ١٩٢٢: «إننا في هذه الذكرى الخامسة لانتصار البروليتاريا، نحيّي، مجتازين، جدران الزنازن، والحدود، جميع الرفاق المعذّبين، والمنفيين، والمضطهدين، لما قدّموه من أعمال من أجل قضية الشيوعية، والرفاق الذين ما زالوا يرزحون في القيود ويتعذبون في زنازن الحرس البرجوازي!».

وهنا تدخل أنوشكا، فأنحني على البرافدا، دون أن أغضّ عنها الطرف. لقد رأتني. اتجهت نحوي، ثم أحجمت. أظن أنها ذهبت لتجلس خلفي، إلى طاولة قريبة من الباب.

«يجب أن نطرد اليابانيين من سيبيريا.» «أن نتحرّك بحزم ضد الرأسمال الدولي.» «أن نجد لغة أعمال مشتركة مع أميركا.»

«أن نتلافى اختلال الميزانية!» «أن نتجنّب إشتغال المصانع في الفراغ!» هذا ما تقوله البرافدا. وجدت المقال الذي يريده بتروسيان: «المشاكل التي تعترض سياستنا الفلاحية». ٢١ كانون الأول ١٩٢٢. أنهض. كانت أنوشكا جالسة بالفعل إلى طاولة قرب الباب. ورائي، مثلما حزرت.

ـ ألا تجيئين لحظة؟...

خرجت إلى الرواق. لحقتني.

ـ ماذا تريد؟

ـ هذه الليلة، تجوّلتِ وسي-يَا-وْ على حافة الموسكوفا، أليس كذلك؟

ـ وما دخلك بالأمر؟

ـ إن هذا الولد كلف بك حتى الجنون...

لم تجاوب. اسودّ أزرق عينيها.

ـ وأنتِ أيضاً تحبّينه...

ـ ولِمَ لا أحبّه؟ ماذا تريد مني؟ لِمَ ناديتني؟

ـ ماذا كنتِ تقرئين الآن؟

ابتسمت، فانغمز خدها الأيمن.

ـ ايسينين... هل لك أسئلة أخرى؟

ـ لا...

ـ لا، لا، يا إسماعيل، إنك لم تفهم. لم تكن إمرأة لعوباً. لقد فكّرت بكل شيء، بجميع الاحتمالات، إلاّ هذا. لو كان في

سلوكها أدنى أثر لحساب مسبق لاستشفافه. ولما تكون قد أرادت أن تفتنني بها؟ كل الطلاب في الجامعة كانوا يحومون حولها... لكنها لم تكن حميمة سوى مع سي-يَا-وْ، بينما كانت تمزح مع الآخرين، تضحك، ترقص، تتجوّل، ليس إلاّ. وبالإضافة، لا أحد كان يتصوّر الذهاب أبعد... ربما كانوا يفكّرون بذلك، لكن لم يكونوا يجرؤون... كان ذلك ليعتبر فضيحة لو عرف الآخرون ما يدور برأس أحدهم. كان التفكير في المضي أبعد، مثل النشوة التي تجدها في الأفيون... لم نكن نعلم شيئاً عن تلك النشوة، وربما لم نكن قد سمعنا بها قطّ. لكن، لو حدث أن عرفناها، لو حدث أن انتشينا بالأفيون، لسخر الناس منّا بعد ذلك. إنه نفس الشيء...

ذلك المساء، كان الصينيون يحتفلون بإحدى الذكريات المجيدة في حركتهم الثورية. وقبل فتح الأبواب، أدخل سي-يَا-وْ أحمد إلى قاعة المسرح في نادي الجامعة. كانت هنالك أكاليل من الزهور تزيّن المكان.

- أين وجدتم كل هذه الزهور ونحن في أوج الشتاء؟

الزهور كانت من ورق. وفي كفّ أحمد، وضع سي-يَا-وْ تويجاً ورديّ اللون. وعلى التويج، حشرة حمراء، منقّطة بالأبيض. كانت من ورق.

- لكن من سيلاحظ هذه الحشرة؟

- من يبحث عنها يجدها... ثم، إننا أردنا أن نثبت لأنفسنا

براعتنا...

فوق لافتات من القماش الأحمر تغطي الجدران من أسفلها إلى أعلاها حروف صينية. أنا أعرف رسوم صور صينية للناس.

ودخلَ الطلاب، والمدعوون متدافعين إلى القاعة. إن الذين يلفتون الانتباه أكثر من سواهم، ليسوا الصينيين، ولا اليابانيين، ولا السود، بل هم طلاب القوقاز وآسيا الوسطى، بسبب لباسهم ولا شكّ. فهم، حتى في المدينة، يتجوّلون لابسين ثيابهم المحلية، وحاملين مسدساتهم وخناجرهم. أمّا شبان آسيا الوسطى، فهم أجمل من الفتيات. على المنصة، صور ماركس، إنجلس، لينين، مؤطّرة بالزهور. وتحتها مباشرة صور أهم أعضاء الحزب البلشفي. تصفيق: لقد انتخبنا لرئاسة البريزيديوم عشرين عضواً شرفياً. اخترناهم من بين زعماء الحركة الشيوعية الأممية. وأعطى بتروسيان الكلمة إلى لي، وهو رجل عملاق. الذين لا يفهمون - أي الأغلبية - ينظرون إلى الصينيين ليقاطعوا خطاب لي بالتصفيق. حسبت أنني أرى كرة أرضية موثقة بالسلاسل. عامل - أكبر من الكرة ثلاث مرات على الأقل - يهوي بهراوته على السلاسل. إنني أسمع قرقعة الحلقات الكبيرة الصدئة وهي تتكسّر، تنقطع. وإلى اليسار، أرى أنوشكا أمامي. إنها جالسة بين طالبين، أحدهما هنديّ، والثاني إنجليزي. وهو رجل في سن الكهولة يعمل في الكومنترن. خطاب لي يترجم إلى الروسية. كل ما قاله صحيح في اعتقادي. أكاد أرى رأس المال، رتيلاء

عملاقة، ذات رأس خنزير، مختبئة في نسيج من دخان المصانع. أصابعها القصيرة المكتنزة تزيّنها الخواتم. إنها تدسّها في ركام من الذهب أمامها. تلتفت أنوشكا، تلتقي نظراتنا. تبتسم بشفتيها الريانتين. إن أذني أنوشكا تبدوان أصغر سنّاً منها. إنهما لا يبلغان سوى أربع عشرة سنة. على المنصة، شابة أوكرانية تتحدّث بلغتها. وتزيح أنوشكا شعرها عن رقبتها. عرفت إسم الأوكرانية: لينا. لينا يورتشينكو. لينا ذات الشعر الكستنائي. وحين تتكلّم، ينغمز خداها كلاهما، لا خداً واحداً مثل أنوشكا. شيء غامض فيها يذكّرني ببنات اسطمبول. أبداً، لم أرَ في حياتي أجمل من ساقيها. إنني أفهم ما تقوله الأوكرانية الشابة. على الجدار، يد تكتب: الأممية الثالثة... مرتعباً، يسقط الرأسمال، ويتدحرج أسفل الجدار بقبعته الطويلة وكرشه الضخمة... أنشدنا جميعاً النشيد الأممي، بصوت واحد، كلّ بلغته. وحده لفظ: أممية، لا يترجم وينشد في نفس الوقت. الصينيون فقط يقولونه بالصينية.

وفي الحي الجامعي، تحدّثت مع أنوشكا.

ـ هل ستبقين حتى الحفلة الموسيقية؟

ـ لا، أنا ذاهبة.

ـ أيمكن أن أوصلك؟

كان الليل حالكاً، والثلج لم يكن يضيئه. لم يكن الجو بارداً. كنا نمشي باتجاه الموسكوفا عبر الشوارع.

ـ لقد قتلوا أبي أمامي، قالت أنوشكا.

ـ كولتشاك هو الذي أوعز بقتله، أليس كذلك؟

ـ دقوا الجرس. فتحت أمي الباب. دخلوا غرفة أبي. كنت هنالك. إنهما ضابطان. أحدهما، وهو الأشقر، ذو العينين الزرقاوين الواسعتين، أخرج مسدسه، سدَّد إلى رأس أبي. وأطلق ثلاث طلقات.

« حسناً، ولكن فيما بعد، ماذا فعلوا بكم؟ كيف استطعتم المجيء من سيبيريا إلى هنا؟ وأين ماتت أمك بالحمى الصفراء؟ » لم أسألها عن ذلك.

ـ أنا أرسم، إنني رسام.

ـ أعرف. رأيت ذلك. في غرفتك...

ـ متى جئت إلى غرفتي؟

ـ أعجبتني إحدى اللوحات جداً، جداً، أعجبتني واحدة أخرى أيضاً. كان هنالك أيضاً لوحتان عاديتان... أمّا البقية، فلم تعجبني بتاتاً...

لِمَ أخفى عني سي ـ يَا ـ وْ زيارة أنوشكا؟ متى قدمت يا ترى؟ ماذا تراها فعلا في تلك الغرفة؟ ظننت أن قلبي سينفجر. ثم، خجلت خجلاً شديداً مما كنت على وشك أن أتخيله... غير أن هذا الـ سي ـ يَا ـ وْ قذر على أية حال.

ـ لِمَ لا تتحدّث؟

ـ سي ـ يَا ـ وْ ينحت لك تمثالاً عاجياً، أليس كذلك؟

ـ لا أدري... لقد رجوته أن ينحت لي قطاً... فأنا أحب القطط إلى أبعد حد. لكنه لم يتوصل إلى ذلك. إنه لا يعرف نحت القطط.

ـ أحضري لي قطك، سأرسم له صورة زيتية.

ـ لكن، أنا لا أملك قطاً.

ـ حسناً، إذاً، سوف أرسم لك واحداً ضخماً من نوع الأنجورا...

دخلنا حديقة كنيسة حيرام سباستل، على النهر.

ـ هذه أول مرة أجيئها ليلاً، وفي الشتاء، قالت أنوشكا.

لم تكن المقاعد التي بين الأشجار الكثيفة المغطاة بالثلج، شاغرة. جلسنا منزويين، في مكان عار.

ـ أنوشكا، أنت تعتبرينني رجلاً فظاً، غير مهذّب، أليس كذلك؟

ـ لا، ولكن من الأفضل ألاّ تبالغ في الفظاظة كيما ننسى جدك الباشا.

ـ أهم الطلاب الأتراك الذين حدثوك عن جدي؟ إنني أعرف جيداً من حكى لك...

ـ لا أحد قال لي شيئاً، لكني قرأت بطاقتك الشخصية...

ـ أأنت تقرئين بطاقات جميع الطلاب؟

ـ لا... بل قرأت بطاقتك أنت.

لم أسألها عن السبب كانت ستجيبني إجابة معقولة. أما أنا،

فلقد أجبت نفسي عوضاً عنها الإجابة الأكثر جنوناً...

وعلى حين غرة، دوت صفارات الحرس. صياح، وركض...

ـ وهنا أيضاً زوجان آخران...

لم يتمكن أحمد وأنوشكا من فهم ما يقع لهما.

ـ تقدما! أمرهما حارس ذو شارب غليظة.

أبصر أحمد مجموعة الرجال والنساء التي يخرجونها من الحديقة. لم يقع له ذلك أبداً، غير أن بعض الأصدقاء كانوا قد حدّثوه... لقد فهم. لم يرخ الحارس ذو الشارب الغليظة قبضته عن ذراع أنوشكا.

ـ أطلقها، قال له أحمد. نحن طالبان.

ـ أنا لست طالبة، بل سكرتيرة في الجامعة...

ـ سوف تقدمان لي شروحكما في المخفر...

لم ينقطع عن التصفير. وهرع حارس آخر. غير أنّ هذا لأخير ليس له شارب.

ـ هذان يقومان بمشاكل...

جذبت أنوشكا ذراعها، فأطلقها:

ـ نحن لم نقم بأية مشاكل! ماذا يحدث؟ ماذا تريدون منا؟ ولِمَ نذهب معكم إلى المخفر؟ إننا لا نفهم!

ـ ماذا تفعلان هنا؟

ـ كنا جالسين على المقعد.

ـ جالسان، هه، بكل رصانة؟

ـ نعم، قال أحمد.

ـ مثل أخوين، أليس كذلك؟

أعاد أحمد نفس كلمات الحارس الذي ليس له شارب.

ـ نعم، مثل أخوين.

ـ أنت لا يبدو عليك أنك ترضى بذلك... ألست جيورجياً؟

ـ لا، أنا تركي. لاجئ سياسي. شيوعي...

تفحّص الحارس ـ حليق الشارب ـ الأوراق التي مدّها إليه أحمد على ضوء مصباحه اليدوي:

ـ هل فاجأتهما يفعلان شيئاً ما؟ سأل زميله ذا الشارب..

ـ لا... ولكن، ماذا تراهما يفعلان هنا؟ بأية حال، كانا يتهيآن لذلك...

ـ لا، لم نكن نعلم أنه مكان مشبوه، قالت أنوشكا.

ـ ها أنتما الآن تعلمان...

ـ لن نعودَ إليه...

ـ حسناً، يمكنكما البقاء إذا أردتما، لكني لو كنت مكانكما لانصرفت...

خرج أحمد وأنوشكا من الحديقة. كان كلاهما يبتسم دون أن يعرف السبب. وفي داخلهما، ـ في داخل أحمد خاصة ـ شعور دافئ، غريب، وشيء من الخجل. وفي عتمة مدخل البوابة، حين وصلا إلى باحة مسكن أنوشكا، قبّلها فجأة. لم تمانع

أنوشكا استسلمت لشفتيه. ضوء شعّ في قلبي. أشرق من رأسي إلى قدمي. أنوشكا لا تعرف التقبيل. أخذت رأسها بين يدي:

ـ أنظري إليّ في عينيّ يا صغيرتي... لا أحد قبلّك قبلي، أليس كذلك؟

ـ بلى...

ـ كاذبة...

ـ أتركني...

أردت أن أقبلها مرة أخرى، فامتنعت. سأرسم في هذا المساء قطاً. إنه الثامن أو التاسع في غضون ثلاثة أشهر. أمطار الربيع تتساقط على موسكو.

ـ أنوشكا تحبّك، قال لي سي ـ يَا ـ وْ.

ـ وما أدراك بهذا؟

ـ لقد قالت لي.

صوت المحرّك ـ بت ـ بت ـ بت ـ ...

ـ أطفىء المصباح يا أحمد.

نهض أحمد. وقبل أن ينفخ على المصباح، رسم خطاً سابعاً على الباب.

ـ إسماعيل، قل للرفاق إنني عدت إلى اسطمبول... الأفضل أن يعتقدوا أنني مضيت... لو يحدث شيء...

ـ حسناً، حسناً... نم...

صوت المحرّك ـ بت ـ بت ـ بت ...

الخط الرابع عشر

لم ينتظر أحمد المساء، بل رسم الخط الرابع عشر. وبعد انصراف إسماعيل بساعتين أو ثلاث انسحب إلى ما وراء الباب. إنه يعرف جيداً أنها أربعة عشر خطاً. ومع ذلك، فقد عدّها. أربعة عشر تحذف من واحد وأربعين، يبقى سبعة وعشرون. ألصق عينه بثغرة من ثغرات الباب، وتقهقر على حين غرّة. نظر مرة أخرى. إمرأة شابة، سمراء، حافية القدمين، تلبس سروالاً فضفاضاً، وعلى رأسها خمار. كانت تنشر الغسيل على الشجر. قربها، كان هنالك طفل، عاري الصدر. وحين نظر الطفل باتجاه الكوخ، تقهقر أحمد. كما لو أنه كان يرى من خلال الباب. لا بدّ أنهما من الغجر. كان يسمع صوتيهما. «سوف أدخل إلى الكوخ»، قال الطفل. «لا يمكن، ألا ترى القفل على الباب؟» قالت المرأة. «سوف أفتحه»، أجاب الطفل. وراح يحاول فتح القفل. تراجع أحمد إلى زاوية من الكوخ. وحملق الطفل عبر شقوق الخشب، وقال «المصباح موقد». أخذ أحمد يلعن بصمت، المصباح، والطفل، ويلعن نفسه. والطفل يحاول كسر القفل، والمرأة تصيح، وأحمد يرى طيفيهما يومئان من خلال الشقوق. ثم أخذ الطفل يعول. لا بدّ أنها صفعته. وابتعدا عن الباب. وبقي أحمد ساكناً في زاوية، مدة عشر دقائق، وربما ساعتين. ثم، على أطراف أصابعه... إنني مجنون تماماً. هل

يمكن سماع خطواتي؟ وأقدامي حافية. ـ اقترب من الباب. المرأة قرفصت قرب غسيلها، والطفل مستلق على ظهره. تقهقرت حتى الزاوية، مددت ذراعي، جذبت كرسياً، جلست. شبكت يدي على بطني. المرأة تغني. في صوتها حرارة. الغجريات لا يفتقرن إلى الحرارة على ما يقال. المصباح لم يبق فيه كاز تقريباً. يا للعنة! نهض أحمد متجهاً إلى صفيحة الكاز، وتذكّر فجأة أنها فارغة. سوف يجلب إسماعيل الكاز هذا المساء. رجع إلى كرسيه. الطفل يتحدث مع رجل. يقول له إن المصباح موقد في الكوخ، فيقول الرجل «لا بدّ أنهم نسوا إطفاءه». ثم يقتربان من الكوخ، وينظران. تترنّح الشعلة، وتنطفىء. «لقد أطفأوا المصباح»، قال الطفل. صاحت المرأة «وما دخلكم في مصابيح الناس؟» «في الكوخ أشباح»، قال الطفل.

انقطعت الأصوات. نهض أحمد، ونظر. لا أحد. ولا حتى الغسيل. غطّى الشقوق بالجرائد، واستلقى على الفراش. الظلام. الموت ليس الظلام، ولا هو الصداع، ولا الخوف، ولا التشنجات، ولا اللعّاب السائل، ولا العواء. وليس هو الرصاصات التي سيطلقها عليّ إسماعيل بمسدسي. إنني أحسّ حزن ذلك الشيء الذي ليس هو حتى الظلام. وحتى هذا الحزن، ليس هو الموت. يا للعنة!

وصل إسماعيل: «لقد نصبوا خيامهم على السفح الأيسر من الهضبة»، قال لي. قد يرحلون في الصباح دون شك. كان ضياء

يعشق الغجريات، وكان يقول دائماً: لو لم أكن أقسمت ألاّ أتزوّج أبداً، لكنت تزوجت غجرية».

تناولا عشاءهما في الكوخ دون أن يفتحا الباب.

ـ هنالك بحوث جارية لاكتشاف حبوب ضد الكَلَب، قال إسماعيل. وحين يكتشفونها، وهو ما سيحدث يوماً. لن يعودوا بحاجة إلى الحقن... سترى ذلك...

ـ لكن حتى ذلك الوقت، سوف يتوجبّ عليّ أن أبتلع حبة بالغة المرارة.

ـ لم يضحك، إنّما خجل من مزحته الحمقاء.

ـ لن يصيبك أي شيء، قال إسماعيل، ملتفتاً إلى جهة الباب، لينظر إلى الخطوط بلا ريب.

ـ إنها أربعة عشر، قال أحمد.

عند منتصف الليل، ربما، شعر أحمد وكأنّ الباب يقرع، فانتصب بوثبة واحدة.

فتحت الباب.

مسح أحمد جبينه بيده، نظر جهة باب الكوخ. هل هي الشرطة؟ أصغى السمع: لا شيء غير هدير المحرّك ـ بت ـ بت ـ بت.

فتحت الباب. نحن في سنة ١٩٢١، في إينه بولو، منذ أربعة أيام وثلاث ليال. رجلان، غريبان، يقفان أمام باب غرفتنا في الفندق. إنني أسمع هدير البحر الأسود. وأمام باب

الغرفة رجلان يلبسان سراويل الفرسان، ويعتمران القلنق. كان يضيئهما من الخلف نور مصباح الكاز الموقد في طرف الرواق.

انتصب سليمان وتوفيق على فراشيهما.

ـ البسا ثيابكما أيها السيدان، قال أحد الغريبين.

ـ ماذا جرى؟ سأل توفيق.

ـ وليأخذ كلاكما حقيبته.

ـ أنا أيضاً؟ سأل سليمان.

ـ أنت أيضاً...

في الغرفة، ضوء واهن يشعّ من السراج الليلي.

ـ من أنتما؟ سأل توفيق.

ـ نحن من الشرطة العسكرية.

التفت إليّ أحد الغريبين.

ـ أمّا أنت أيها السيد، فلا حاجة لنا بك.

أوقد الرجل الثاني مصباح الكاز في الغرفة.

ـ إلزما الهدوء.

لم يكن يتوجه إليّ. بل كان يخاطب سليمان وتوفيق.

يدا سليمان ترتعشان وهو يحزم حقيبته.

ثم خرجوا، بقي أحد الرجلين ليقول لي:

ـ لا تخرج غداً قبل مجيئنا.

ـ لكن...

ـ سوف نرجع هذين السيدين إلى اسطمبول. بعد ساعة تقلع

بها السفينة. طابت ليلتك.

تذكرت فجأة أن سليمان وتوفيق لم يلقيا عليّ تحية الوداع، فأخذني شعور غريب!...

منذ أربعة أيام في سكوتاري. ذهب جدّي إلى المسجد ليؤدي صلاة الفجر. فهربنا، أنا، وسليمان، وتوفيق، إلى إينه بولو.

من اسطمبول المحتلة من الحلفاء، كان بإمكاننا العبور إلى الأناضول التي يحكمها الوطنيون، إمّا عن طريق البرّ ـ عبر بنديك ـ وإمّا عن طريق البحر ـ البحر الأسود.

كان أحد أقارب سليمان يدير شبكة التنظيم الموكول إليها إيصال الأسلحة إلى القوى الوطنية. فدبّر لنا ثلاث رخص مرور، مزوّرة. ركبنا السفينة في سيركدجي. سفينة سوداء، ضيّقة، ومسطّحة مثل مكواة. دخلنا القمرية. كانت الصراصير تطوف على حيطانها، وكانت القمرية صغيرة، والحرارة فيها جحيمية. أسند توفيق جبينه إلى الكوّة، وراح ينشد: «أوّاه! اسطمبول. هل سنراك مرة أخرى؟ إننا نمضي، ولكن هل يمكن أن نعود يوماً؟»

عندما بدأ هدير مروحة السفينة، صعدت إلى الجسر. كان قريب سليمان قد أوصانا بألاّ نخرج من القمرية قبل دخولنا البحر الأسود. لكن ضجيج المروحة كان يمدّني بالجرأة. وأنا بالإضافة، لم أقدر أن أفارق اسطمبول، دون أن أملّي ناظري

برؤية الجسر، والقباب الملبّسة بالرصاص، والمآذن الشامخة.

مررنا بمحاذاة بارجة أميركية، ذات مخابىء مصفّحة، في منطقة برج لياندر. وأمام بشيكتاش، وفي كلّ أرجاء البوسفور، كان التقدّم صعباً. البحر مليء بالمدرّعات، والطّرادات، والناسفات، والسفن الملطّخة بالألوان. وكم مرة تأمّلت، منقبض القلب، هذه الكتل الفولاذية الرمادية، العدوانية، المحتقرة. أمّا الآن، فإني أنظر إليها بكل ثقة. وإذا كانت الغواصات المنتشرة في الأعماق، أوفر عدداً من سمك التونة، والإسقمري، والبوري، فإنّي لا أبالي بذلك أبداً، إذ أنني ذاهب إلى الأناضول وإلى مصطفى كمال باشا.

كنت في مقدمة السفينة، بين البالات، والسلال، وحقائب مسافري ما بين الجسرين، ضائع في هذه الجمهرة البائسة من الرجال، والنساء، والأطفال، أتأمّل مدينتي. لست أنظر إلى حيّ، أو الى جهة واحدة منها. إنني أنظر إلى كيانها كله. أعرف: في هذه اللحظة، هناك، أمام الثكنات، ومستودعات الذخيرة، يقف الحراس أزواجاً. حراس من سكوتلاندا، وزيلاندا الجديدة، والهند، يقترب الواحد من الآخر، بحركات دمى آلية، ثم يدبزون على حين غرّة، ويبتعدون، ليقتربوا من جديد. أعرف: هذه الطريقة في الحراسة، تفيدنا. إذ، ما أن يدبر الحارسان ـ ليلاً بالطبع ـ حتى ينقضّ عليهما رفاقنا. يقتلونهما، ويتسللون إلى مخازن السلاح. بالنسبة للهنود، ـ

وخاصة منهم المسلمون ـ لا حاجة لاستعمال الخنجر معهم. فهم يستسلمون على الفور، دون احتجاج، أو مقاومة. بل وهم غالباً ما يساعدوننا. أعرف: نحن نقتلهم. هؤلاء العساكر البحرية، أو البرية. هؤلاء المدفعيين، الفرنسيين، الإنجليز، هؤلاءالأميركيين، هؤلاء الإيطاليين، هـؤلاء اليـونـانيين، المالفيين، الأوستراليين. نقتلهم، حين يهشمون نوافذنا، يصرعون أطفالنا، أو يهاجمون نساءنا.

أخرج من حديقة غولهانة عبر البوابة الكبيرة. المساء يتهالك. الشارع يكاد يقفر، إلاّ من بعض المارة العابسين. أتوقّف. أسمع صرير تراموای ينعرج في منعطف ما. أخطو خطوتين أو ثلاثاً. أرى إمرأة لفّت جسدها بمئزر تعدو في طرف الشارع. إنها أول مرة أشاهد فيها إمرأة ترتدي إزاراً وتركض. واضح أنها هاربة، ومطاردة. إنها لا تصرخ. حجابها مسدل على وجهها. وهي تعرج لأن إحدى قدميها حافية. عيناي اللتان اعتادتا على اختراق الإزار والحجاب، حزرتا أنها ليست في سن الشباب. وها هي تمرّ بمحاذاة موظف.

ـ ما زلت واثقاً إلى هذا اليوم أنه كان موظفاً. وبالضبط، جابي ضرائب كان يتقدّم ساهماً، على الرصيف المقابل. إنها تقترب مني، وتتوقّف.

ـ أغيثوني يا إخوتي، النجدة...

وربما قالت شيئـاً آخـر، لكني سمعـت جيـداً «النجـدة»

و« إخوتي ». وفجأة، ظهر جنديان فرنسيان في طرف الشارع. كانا يركضان، وأذرعهما وأيديهما تتأرجح بقوة. انهدّت المرأة على قدمي؛ ومن الرصيف المقابل، أتى الجابي في اتجاهنا. والتفت رجل في المنعطف، أسفل الشارع. راح ينظر، ساكناً. اقترب الجنديان الأجنبيان منا. تقدمت لأغطي المرأة. ضربني أحد الجنديين بقبضته على أذني. ترنّحت. لم أعد أرى شيئاً. أو أنني بالأحرى، أغمضت عينيّ. كنت أسمع أصواتاً:

ـ إهتمّ بالقذر الذي على اليسار، شيناسي...

ـ هذا ما أفعله...

فتحت عينيّ. كان الجنديان ممدّدين على الرصيف.

ـ أطلق ساقيك للريح أيها الشاب، (كان الكلام موجهاً لي).

ـ أعطني ذراعك يا أخت، (للمرأة).

ـ أهرب أنت أيضاً... (للجابي).

كانوا ثلاثة شبان صغار. ربما لم يكونوا صغاراً بهذا القدر، لكني أحسست ذلك. إنني أرى خناجرهم. أحدهم يمسح سلاحه، ويدسه في حزامه. ثم يتأبطون ذراعي المرأة، ويدخلون الحديقة.

إننا نقتلهم، وهم الآن يخافون من التجوّل فرادى، ليس في أزقة اسطمبول وحسب، بل وفي شوارع « بي أوغلو » الخلفية، لا في الليل وحسب، وإنما في النهار كذلك. أعرف: هذا

الخوف يجعلهم أكثر قسوة. إنهم يتعاونون مع شرطة السلطان. يفتشون منازلنا. يعذبّون أهالينا في مخافرهم. ويرسلون الذين لا يقضون تحت التعذيب إلى صحاري أفريقيا، أو إلى جزر نائية في المحيط. نعم. أعرف، إنهم يصيرون أقسى وأقسى. ونحن نقتلهم. نسرق أسلحتهم. ذخائرهم. لكن أنا؟ أنا لست ممّن يقتلونهم، ويسرقون أسلحتهم. إنني غير قادر على القتل، أو تهريب السلاح. ولهذا السبب، جننت فرحاً، حين اقترح عليّ سليمان ـ الذي يشتغل في نفس الجريدة التي أعطيها رسوماً كاريكاتيرية من فينة إلى أخرى ـ أن نرحل إلى الأناضول.

دامت الرحلة إلى إينه بولو خمساً وسبعين ساعة.

لا رصيف، ولا مرفأ في إينه بولو. السفن ترسو في عرض البحر، وتُنزل ركابها في مراكب صيادين. وحين يكون الطقس رديئاً، تعبر السفن إينه بولو دون أن تتوقّف.

إينه بولو ـ إنها أولى القرى التي أرى من الأناضول. وفي إينه بولو، شاهدت لأول مرة فلاحة الأناضول. في السوق، كانت تقرفص قرب جدار، دون أن تضع على الأرض حزمة الحطب التي تحملها على ظهرها. رأيت قدميها. سلحفاتين كبيرتين بلا قوقعة. رأيت يديها. كانتا تمسكان ربطة الأعواد. وكانتا عنيفتين كأنها تعملان بالفأس. صبورتين، ومليئتين حبّاً، كأنّهما تهدهدان طفلاً.

نحن في إينه بولو ـ أنا وسليمان وتوفيق ـ منذ ثلاثة أيام

وأربع ليال. توفيق شاعر. في السنة الماضية، منحه السلطان وساماً على إحدى قصائده. كان يردّد طيلة السفر «حسبي ألاّ يجلب لي هذا الوسام المضايقات!».

وها أنا أنصت إلى ضجة البحر الأسود . لمياه البوسفور، أمام البيت في سكوتاري. للبحر صوت آخر، أكثر نعومة، ومليء بالأسرار. سمعت صفارة سفينة. أهي السفينة التي ترحل بتوفيق وسليمان. هل حبسوهما في حجرة ضيقة. هل ألقوا بهما في قعر الأنبار؟ يا للعنة! يأس يغمرني. يتنامى بسرعة. يؤول إلى خجل غامض. ويبدو لي أنني أخلفت بوعدي، فلم أساندهما، ولم أسارع إلى نجدتهما. هل أنا جبان؟ أنهض. المصباح ما زال يضيء. أطفئه. ينعكس شحوب الليل المتلألىء بالنجوم في عتمة الغرفة، وأجلس على فراش سليمان. لا يزال ساخناً بعد. حسناً! لكن لماذا يرجعونهما إلى اسطمبول؟ هل كان عليّ أن أطلب إرجاعي أنا أيضاً؟ أأنا سلّمت صديقيّ؟ إلى من؟ ثم، هل كانا حقاً صديقيّ؟ لكن سليمان أعانني. إنني هنا بفضله. لو حدث أن أرجعوني أنا، ترى ماذا كانا يفعلان؟ لم يكونا ليحتجا بالتأكيد. أليس هذا التفكير والبحث عن التبرير أمراً مخجلاً؟ هدير البحر الأسود المتعالي يملأ الغرفة. لا شك أن الريح تحرّكت. انحنيت على النافذة، وتنشقت رائحة الريح. رائحة ملح، غير رطب كريح البوُسفور. إنه ملح مبلّل بالماء. أغلقت النافذة.

ولنفترض أن توفيق رُحِّل بسبب الوسام. حسناً! ولكن ما الأمر بالنسبة لسليمان؟ أنا واثق من أنه لم يتعاون مع قوات الاحتلال... لقد هرب من اسطمبول بسبب ديونه الكثيرة.

طلع الصباح، ولم ترَ عيناي النوم.

وفي الصباح، جاء أحد الشرطيين ليأخذني. خرجنا من الفندق. البحر هادىء. وعلى الشاطىء الرملي، مراكب مقلوبة، وأطفال، يركضون، ويتصايحون، بين الشباك المنشورة. وندخل بيتاً خشبياً ذا طابقين. نتقدّم إلى غرفة في الطابق السفلي، لنقل إني أدخلها وحدي، فيما الرجل ذو بنطلون الفرسان يبقى في الخارج، أمام الباب. ويشير رئيس الشرطة العسكرية في إينه بولو إلى كرسي قرب الطاولة، فأجلس، وأضع ساقاً على ساق.

كان الرئيس يلبس معطفاً، ويعتمر قلبقاً. وحال دخولي الحجرة، تملّكني إحساس عدائي تجاهه. شرعت أتكلّم بغضب ودون مداراة.

ـ لِمَ أبعدتم صديقيَّ؟

ـ لست أنا الذي أبعدهما... الأمر جاء من أنقرة... بسبب ارتياب في أخلاقيتهما...

راح يقرع على الطاولة بأصابع يده اليسرى ـ أصابع طويلة جداً، دقيقة جداً، حتى ليكاد المرء أن يرى فيها مئات الأصابع ـ بعد أن أجاب على سؤالي بصوت محايد، وسكت. ثنى جفنيه، وابتسم. أحسست أنه يرتاب في أمري. ولأنني أجهل السبب،

صرت أكثر عصبية. لم أكن أعرف بعد أن هناك مهنة الشك في كل الناس، بسبب وبلا سبب...

وقف. مال باتجاهي. وبدأ يتكلّم بنفس الصوت المتعب، والمحايد:

ـ يمكنك الرحيل إلى أنقرة متى أردت ذلك. هذه مئة ليرة لمصاريف السفر. هاك.

وضع المال على ركبتي، واستقام. عادت أصابعه تقرع الطاولة من جديد.

وقفت. وقع المال على الأرض. انحنيت لالتقاط. دعكت الأوراق النقدية بين أصابعي، ودسستها في جيب بنطالي. هل لأني انحنيت لالتقاط هذا المال، هل لأني لم آخذ أبداً مال أحد دون أن أعطي بديله، ـ إلاّ من جدّي أيام الأعياد ـ هل لأن هذا الغريب الممّحي صوته وضع النقود على ركبتي، أو بسبب أشياء غامضة لم أتوصّل إلى تبيّنها بعد، يملأ قلبي هذا التقزّز الممزوج بالحزن؟ خرجت دون أن ألقي التحية.

ـ الرجلان اللذان ركبا السفينة أمس سوف يقذف بهما في عرض البحر قرب كيرمي... الأمر آت من أنقرة...

تلك هي الكلمات الأولى التي سمعتها ـ لا أعرف من لفظها ـ في المقهى الذي دخلته لأشرب شاياً. خرجت كالمجنون. انزرعت لاهثاً أمام رئيس الشرطة العسكرية.

ـ يبدو أن سليمان وتوفيق سوف يلقى بهما في البحر...

ـ من قال لك هذا ؟

ـ لقد قيل في المقهى.

ـ لكن من؟

ـ لا أدري.

ـ لا تهتم بالسفاسف أيها الشاب. سوف يصل صديقاك لاسطمبول في أتم الصحة والسلامة...

لفظ هذه الكلمات بصوت هو من الحياد والوهن، بحيث لم تغضبني حتى «أيها الشاب». صدقته.

وكان كلامه صحيحاً. فقد وصل سليمان وتوثيق إلى اسطمبول سالمين. الأول، يُواصل هروبه من دائنيه. أما الثاني، فأهدى قصيدة جديدة إلى السلطان. وبعد إعلان الجمهورية، اشتغلا في صحيفة تموّلها وزارة الداخلية. وهما الآن نائبان في البرلمان.

تناول أحد سجائره وكبريته من تحت الوسادة، وأشعل سيجارة، وإسماعيل يغط غطيطاً خفيفاً.

ساعدني صاحب الفندق في استئجار حَمَّارٍ. وفي الغد، رحلنا مع الفجر. كنت أعرف أن البرد يزداد حدّة كلّما صعدنا أكثر. وبما أن معطفي لم يكن ثقيلاً، فقد نُصحت بلفّ صدري وظهري بالجرائد، ووضعها داخل حذائي أيضاً. وهو ما فعلت. اشتريت كذلك قلبقاً ضخماً رمادي اللون من فراء أستراخان. كان الحِمارُ عاجزاً عن حملي أنا وحقيبتي. علاوة عن أن فكرة

السفر على ظهر حمار لا تستسيغها كرامتي.

غادرنا أينه بولو منذ خمس وأربعين دقيقة. لكني ما زلت أرى من المسلك الذي كنا نتقدّم فيه، البلدة والبحر الأسود يمتدان أسفلنا يساراً. وإلى اليمين، ينبسط السهل، والذرى المغطاة بالثلج أمامي. إنه الصيف في البحر الأسود، والربيع في السهل، وفي الجبل الشتاء. أتوقّف.

ـ هوذا بلدي! بلدي! أناضولي!

كنت أصرخ مادّاً ذراعي إلى الأمام.

نظر إليّ الحمَّار بفزع. تمالكت نفسي. إبتسمت بحرج. لكن الحرج سرعان ما تبدّد. قلت للحَمَّار، بنفس النبرة، لكن دون مدّ ذراعي:

ـ إنك حتى في سويسرا، لا يمكن أن تجد أروع من هذا المنظر الطبيعي...

رغم أني لم أرَ سويسرا إلاّ في صور علب الشوكولاته «توبلر».

لم يجبني الحَمَّار، بل توجه إلى حماره:

ـ حا! دي! يا أسمر!

كنت ألتفت بلا انقطاع، متملّياً المنظر، معيداً في سريرتي: «هل يوجد إنسان أسعد مني على الأرض؟» لكني لم أعد أفكّر بصوت عال، فالحمّار يخجلني. ولا أدري السبب.

قطعنا مسافة لا بأس بها. غابت إينه بولو، ومعها البحر

الأسود. وفي منعطف من الدرب، لاقينا مجموعة من ثمانية أو عشرة رجال، توقفوا ليرتاحوا. كانوا شباباً كلّهم. ومن اسطمبول. وهذا واضح من لباسهم. كانوا جميعاً يحملون أكياساً أو سلالاً، وكانوا يدخّنون. تعارفنا. إنهم ضباط احتياطيون. بعضهم قاتل في الدردنيل. والآخرون في جبهة فلسطين، أو في غاليسيا. وبعد الهزيمة عادوا إلى اسطمبول. بل أحدهم رجع عائداً من الهند التي أسر فيها. وأغلبهم معلّمون في الحياة المدنية. وصلوا إينه بولو في الأسبوع الماضي. وهم ينوون الذهاب إلى أنقرة. ومنها إلى الجبهة الغربية.

- كم عمرك؟ سألوني.

- بلغت الثامنة عشرة...

- سوف نلتقي قريباً إذاً، على الجبهة...

انطلقنا من جديد. كان أحدهم - وهو العائد من الهند - مريضاً. فوضعنا كيسه على ظهر حماري.

وصلنا إلى فندق إيجويت في جبال الغاز، فيما المساء يتهاوى بين أشجار البلّوط والسّندر العملاق. لقد أخبروني في إينه بولو أن زبدة صاحب الفندق وعسله من أمتع ما يكون. وما أن جلسنا على الأسرّة، حتى طلبت أن يحضروا لنا منها، لي وللحمّار. كان الخبز ساخناً. وحالما تضع فيه الزبدة، تذوب وتمتزج بالعسل. لم أذق في حياتي أمتع من هذا الطعام. وفيما كنت أشرب الحليب، لاحظت أن رفاق الطريق قد أخرجوا من

أكياسهم خبزاً وجبنة، وراحوا يأكلون.

ـ لِمَ لا تأكلون من هذه الزبدة، وهذا العسل؟

لم يجيبوا. أعطيتهم زبدة ملفوفة بأوراق عنب، وعسلاً في قدح خشبي. لم يمسّوا شيئاً منها. تردّدت في سؤالهم. وفي النهاية حزمت أمري وقلت:

ـ ألم يعطوكم مصاريف الطريق؟

ـ بلى.

ـ كم؟

ـ عشر ليرات لكل واحد منا.

اندهشت للوهلة الأولى، أصابني الخجل، ثم احتواني الغضب.

ـ أما أنا، فقد أعطوني مئة ليرة، وأنا أذهب لتعلّم الرسم. وأنتم تذهبون إلى الجبهة.

غير أن لي إبن عم هو نائب في أنقرة. ها قد فهمت الآن من أين جاءت المئة ليرة. يا للفضيحة! يا للعنة. أما والحال هذه، فاذا أردتم أن تؤدّوا لي خدمة، فساعدوني على إنفاق هذا المال.

أخذوا يحتجون. لا مستحيل. لا يمكن. وفي النهاية أحضر صاحب الفندق زبدة، وعسلاً، وخبزاً ساخناً للجميع. كان الخجل قد بلغ بي أقصى الحدود. كنت أبدو كمترف يغدق إحسانه على الفقراء. أتراني فكّرت بهذا آنفاً. أم أنني أفكر فيه الآن؟

يجلس أحمد على السرير، مطوّقاً ركبتيه بذراعيه. صوت المحرّك يفيض بالحنين، يناديك بلا انقطاع إلى مكان تائه بعيد. نحو أي ميناء يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟

وصلنا إلى كاستامونو. فسألني المكاري:

ـ هل تذهب إلى الماخور أيها السيد؟ إن بغايا مواخير كاستامونو ذائعات الصيت.

تردّدت قليلاً. لي رغبة في الذهاب إلى الماخور. بي رغبة في مضاجعة إمرأة أناضولية حتى لو كانت بغيّاً. لكنني أفكّر بالزهري، وأتوجّس منه خيفة كما لو أنني أصبت به فعلاً.

ـ لا، لا أريد. وأنت؟ هل ستذهب؟

ـ ليس الآن، ربما في طريق العودة. إن شاء الله.

في كاستامونو، رأيت المحكمة الاستثنائية.

« إنّهم رغم كل شيء لن يشنقوهم، أليس كذلك؟ قال إسماعيل». كلاًّ. لن يشنقوهم رغم كل شيء. لكن، كم سنة سيحكمون عليهم؟ ثم، بعد كل حساب، ربما شنقوهم. هل النائب العام هو ذاك الذي رأيته في كاستامونو؟ لا أدري...

لقد حكمت محكمة الاستثناء في كاستامونو على رجل بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. شاهدت ذلك بعيني. كان الرجل يبدو من هيئته نصف ريفي ـ نصف مديني. اتهم بتقطير الكحول، بينما ذلك ممنوع في الأناضول.

غداة وصولي أنقرة، دعا إبن عمي بعض أصدقائه النواب

إلى عشاء... وحين رأيت زجاجات الراقي على الطاولة، لم أتعمَّد السؤال، لكن الكلمات أفلتت مني بتحدّ:

ـ لكن أليس الكحول ممنوعاً، في كاستامونو؟ حكموا على رجل بالسجن مدة خمس عشرة سنة لأنه قام بتقطير الكحول.

ضحك إبن عمي:

ـ المنع لا يهمنا نحن.

ـ نكن القانون...

ـ لو طبّقت القوانين على كل الناس، لأصبحت الحياة لا تطاق... أتذكّر هذا الحديث بوضوح. إنني لا أضيف عليه ولا أبدّل فيه شيئاً. لقد قال إبن عمي حرفياً:

ـ لو طبّقت القوانين على جميع الناس، لأصبحت الحياة لا تطاق. أمّا أنا فقد شربت، ولم يخطر ببالي ألاّ أشرب، وليس فقط في ذلك المساء.

لدى انتهاء العشاء، خاطبني أحد النواب ـ وهو ممّن لهم تأثير كبير حسب ما علمت فيما بعد ـ وكان رجلاً منتفخ الخدين، قال:

ـ أحمد، لقد علمت أنك رسام ماهر، ـ من قال له ذلك؟ أخمّن أنه إبن عمي ـ أرسم صورة لمصطفى كمال باشا، وسأطلب أن يعطيك خمسين ليرة ذهبية. خمسين قطعة ذهبية جميلة...

لم أرسم صورة مصطفى كمال باشا. لقد استفظعت الخمسين قطعة ذهبية التي كان النائب ذو الخدود المنتفخة سيستخلصها منه

لفائدتي. ورغم ذلك، فلولا هذه الخمسين ليرة ذهبية، لكنت رسمت الصورة بسرور آنئذ...

آنئذ، أعاد أحمد بصوت عال، آنئذ... لكن هذا الـ «آنئذ» لم يدم طويلاً. أدرك ذلك فجأة، واستشعر حزناً غريباً. تذكّر يوم قدّموه إلى مصطفى كمال، في صالونه الخاص، بمجلس النواب.

- قلبي تتلاحق دقاته. رأيت أطيافاً زرقاء - شقراء ثم تنقلب ذهبية. وبعدئذ رأيت يدين بيضاوين. كانت يداه الرقيقتان الجميلتان تشبهان يدي إمرأة. ربما أنا مخطىء. ربما لم تكن يداه رقيقتين بذلك القدر. لكن زرقة عينيه، وشقرة شعره، كانت كذلك...

«الرفاق مثلوا أمام المحكمة الاستثنائية... والجثث الخمس عشرة، ابتلعها البحر الأسود، في عرض سورميني...» انحنى أحمد، وسحق عقب السيجارة الذي كان يحرق أصابعه. في عتمة الكوخ، صوت المحرّك - بت - بت - بت. حاول أن يسمع وسط تلك الضجة أنفاس إسماعيل. أصغى. إنه ينام باطمئنان. أتراه يحلم بي؟ أتراه يحلم أنني أرمي عليه فيطلق عليّ الرصاص؟ أشعل أحمد سيجارة أخرى، وجهد في إبعاد إسماعيل عن تفكيره.

ما بين إينه بولو وأنقرة، اعترضنا نهر. ولم نجد أي جسر. خلعت حذائي، وجواربي، وشمّرت عن ركبتيّ. أردنا تقصير

الطريق، وها يعترضنا هذا النهر. كنت أتقدّم في الماء. وإذا بفلاّح آت من الضفة الأخرى على ظهر إمرأة. لم يكن مسناً. بل إن عمره أقل من أربعين. كسيح. قلت في نفسي. غير أنه حالما وصل الضفة الأخرى، ترجّل، وصار يمشي.

ـ إنها زوجته، قال الحمَّار. زوجته التي تقطع به النهر. هي صلبة، هه؟

ابتسم أحمد، وقصّ ذلك مرّة على أنوشكا.

المساء يتهالك. هل كان ذلك قبل كاستامونو أم بعدها؟ لم أعد أعرف. غريب! لِمَ نسيت. أتراني خرفت؟ سيحدث ذلك بلا ريب، إذا لم أمت من الكَلَب. لكن كفّ الآن عن التفكير بقصة الكَلَب هذه. نعم، أتذكَّر. كان ذلك بعد كاستامونو. المساء يتهالك، وقريباً يخيم الليل. كنا نسير دائماً... وحولنا يترامى الخلاء. لا شجرة. لا دار. لا ظل.

ـ هل ما نزال بعيدين عن القرية؟

ـ إننا فيها يا سيدي...

ـ لكن أين هي؟

ـ تحت أقدامنا...

في العتمة، شاهدت مثل تقبّبات على سطح الأرض. ومن فتحاتها، كان يصعد دخان، وكان يسمع نباح كلاب.

ـ إننا نسير على البيوت يا سيدي.

فعلاً، لقد كانت منازل القرية لا تتجاوز في ارتفاعها سطح

الأرض. قطعنا مسافة أخرى لا بأس بها. ثم انحدرنا مع مسلك ضيق، ودخلنا القرية.

شاهدت الجرحى في تلك القرية. كانوا ممدّدين على الأرض، في بيت المختار. ممدّدين على الأرض، في الضوء الأحمر المنبعث من نار الموقد، جنباً إلى جنب. بعضهم على الظهر، وبعضهم الآخر مستلق على بطنه. بضماداتهم القـذرة، الملطّخـة بـالـدم، وملابسهم الممزقة، ولحاهم التي لم تحلق منذ أيام عديدة... لم يكونوا حتى يئنّون.

- لقد وصلوا ليلاً، منذ أربعة أيام: قال لي المختار. كانوا ينوون الرحيل في الصباح، لكنهم لم يقدروا. إثنان منهم ماتا. أما الآخرون، فهم حالياً في عهدتنا. لقد ذهبت لأخبر المدينة. قالوا سوف تهتم بالأمر. لكن، لا أحد أتى حتى الآن...

- وهل المكان الذي كانوا يزمعون الذهاب إليه بعيد؟

- أوه!... كل واحد يروح من جهة مختلفة...

- أين جرحوا؟

- ومن يدري؟... فـالحرب الآن مـع اليـونـان... هـذه الكلمات: «فالحرب الآن مع اليونان...» قالها المختار، وكأنه يخبرني بنبأ يجهله الجميع، دون أن يكون يهمه هو شخصياً.

اقتربت من الجرحى. حيّيتهم. أردت محادثتهم، غير أنهم لم يجيبوا.

- دعهم في حالهم أيها السيد. إنهم لا يقوون على الكلام، قال

لي الحمَّار .

ثم، بكلتا يديه، أمسك برأس أحد الجرحي، وأداره نحو لهب الموقد :

ـ هذا لن يعيش طويلاً بعد الآن، إنه لن يرى الصبح...

لم يلفظ بهذه الكلمات بهمس، بل قالها بصوت عال، ملتفتاً إلى الجريح الذي كان لا يزال يمسك برأسه.

هزّ الجريح رأسه، الملفوفة بضمادات يسودها الدم والوحل وحاول النهوض دون أن يقوى على ذلك. أعنته. فاستند إلى الحائط. ثم قال:

ـ العلم عند الله وحده.

قالها بصوت خفيض، لكن دون أن يهمس بها.

ـ العلم عند الله وحده بالتأكيد، أجاب الحمَّار. لكني في حرب الدردنيل، عملت في خيمة الإسعاف، وليسامحني الله، لكني أفهم هذه الأمور... ولا أعتقد أنك ستشهد الصباح...

ـ سوف أشهده...

لم يشهده. لقد مات محشرجاً قرب الموقد، وهو لا يزال مستنداً بظهره إلى الجدار، فيما النباح، وصياح الديكة، تختلط بنداءات النسوة. كذلك رأيت الموت لأول مرة.

وفيما كنا نستعد للرحيل، خاطب أحد الجرحى الحمَّار قائلاً :

ـ أنظر إليّ... أتراني أشهد المساء أنا ؟

ركز الحمَّار نظره في عينيه، بانتباه:

ـ لا أرى شبح الموت في عينيك... العلم للّه وحده طبعاً، لكني لا أراه...

وفي الطريق، سألتِ الحمّار:

ـ هل حقاً لم يكن في عينيه شبح الموت، أم تراك قلت ذلك لمواساته؟

ـ وَلِمَ أواسيه؟ العلم لله وحده بالتأكيد، لكن هذا الرجل سيعيش...

وخلال ذلك السفر اكتشفت فنّ الترقيع. كانت ملابس الفلاحين عبارة عن رقع، وقطع قماش مختلفة الألوان، ملصق بعضها ببعض، دونما تجانس. كانت أكثر إثارة للشفقة من أسمال شحادي اسطمبول.

وعلى طول الطريق، اكتشفت أيضاً إلى أي حدّ كانت الحمير والثيران هزيلة.

وكان الأطفال متورّمي البطون.

وعلى امتداد الطريق، لم أرَ فلاّحة واحدة تنتعل حذاء.

في أنقرة، أسكنني إبن عمي في خان بطرس الكبير. إنه أفخم فندق في المدينة. غرفتي: أرضية إسمنتية. نافذة واحدة، ذات قضبان حديدية. عملت حسابي: لقد دفعت ثلاثة أرباع المال المتبقي لديّ إيجاراً لهذه الغرفة. قلت في سري: لا بدّ أن صاحب هذا النزل أصبح مليونيراً في غضون عام أو عامين. إنني أحقد على هذا الرجل حقداً لا حدّ له.

التقيت في مقهى البئر شاعراً كنت أعرفه من اسطُمبول إنه من أرزروم. وهو يشغل منصب كاتب في مجلس النواب.

تقع مدينة أنقرة وسط السهب. عند سفح هضبة انبثقتِ، على حين غـرّة، هكـذا، دونما سبـب أو علّـة. وفي أعلى الهضبـة، تنتصب قلعة. كنت حين أتأمّلها ليلاً، أحسّ وكأنّ زوبعة ما، أو عاصفة آتية من إحدى البحار النائية، قد حملت ذات يوم هذا الغليون الضخم، لتضعه فوق الصخور المتوغلة داخل البراري.

كانت بيوت أنقرة، باستثناء مبنى مجلس النواب، ومحطة القطارات، ومسجد أو مسجدين، وكذلك خان بطرس، مقامة من خشب وتراب مدكوك. وكان أغلبها مَطْلياً بالجير.

ذات يوم، كنت أتحدّث في المقهى مع شاعر أرزروم عن المنظمة الحرفية القديمة: الأخوان. قال لي إن تقاليد هذه الأخوية لا تزال موجودة إلى يومنا، في أشكال متنوعة، وفي عدد من القرى، وقرى الأناضول الوسطى:

ـ إن الأخوان، قال لي، قد أسّسوا شبه جمهورية حرفيّين وفلاّحين، تذكّر بجمهورية البلاشفة.

سكت بغتة، التفت حوله، ثم همس:

ـ البلاشفة يمدّوننا بالأسلحة والذهب، لكننا نخافهم.

كنت تلك الليلـة أتجوّل بمفـردي في أزقّـة أنقـرة الضيقـة المتعرّجة، حين بدا لي كأني أسمع ضجيج مطارق، ومناحت، ومناسج هـؤلاء الأخـوان. هـؤلاء النسـاجين، والنجـاريـن،

والحدادين، والنحاسين، الذين يذكّرون بالبلاشفة. كأني أسمع تراتيلهم التي ينشدونها في اجتماعاتهم. أعرف أن البلاشفة هم أصدقاء الفقراء، وأعداء الأثرياء. كانت صحف اسطمبول ملأى بأقاصيص شتى عن أنواع من التعذيب لا يتخيّلها العقل، يسلّطونها على الجنرالات، والتجار الروس. جميع من أفلتوا من السيف البلشفي لجأوا إلى اسطمبول. ولم يكن بادٍ عليهم أنهم عذّبوا مثلما يقال. كانت النساء - أقلّ شيء - من الدوقات. أمّا الرجال، فكانوا كلّهم أمراء. فتحوا بارات، وبيوت قمار. باعوا نساءهم الشقراوات، والبيضاوات، والسمينات، ونظموا ألعاب يانصيب. أعرف أن الحلفاء هم أعداء البلاشفة. أعرف كذلك إسم لينين، الذي رأيت صورته في الصحف. بل وقد رسمت صورته بقلم الفحم. لا عن حب، لا؛ وإنما لما أدهشني في وجهه، من سعة جبين، وذكاء متقّد في تينك العينين المشدودتين إلى الصدغين، وحتى لحيته الصغيرة.

ذات مساء، رحت مع الشاعر إلى المسرح. إنه مسرح كمال الذي أقاموه في ما كان حظيرة قديمة، أو مستودعاً، أمام الباب، كان مصباح واحد يشتعل، وينشر ضوءاً مزرقّاً وكئيباً. دخلنا. كان المتفرجون جالسين على مقاعد خشبية مصفّفة، صامتين، وأيديهم على ركبهم. إن المسارح الشعبية في اسطمبول - سواء في الشهزاد باشي أو في القشديلي - هي مسارح مرتجلة شبيهة بملهاة الشارع الإيطالية (كوميديا دلآرتي) - قلت إن هذه المسارح هي

أسواق احتفالية حقيقيّة، سرعان ما يتعرّف المتفرّجون فيها إلى بعضهم، فيصيرون يمزحون كأصدقاء، ويرفعون الكلفة فيما بينهم. والباعة يعرضون بضاعتهم من فستق، وعصير ليمون، وكازوز، وبوظة بالفانيلا، وكرز حامض - وسط ضجة الصحون، والكؤوس، والملاعق، صارخين بأعلى أصواتهم. وحتى رفع الستار، تحسّ أن الموسيقى النحاسية - طبل، وصنوج، ومزامير، وأبواق - تبلغك جذل اللافتات الملّونة، والمصابيح الزرقاء، والحمراء، والخضراء، وبريق الأضواء في الخارج أمام الباب. وحين يرتفع الستار، حين تظهر راقصات الجوقة السمينات، في أزيائهن البرّاقة، ويشرعن في الغناء والرقص، وهن يرعشن نهودهن، ويرسلن من بين أجفانهن نظرات ماكرة، حينها، يعمّ الجنون في القاعة، ويهيج المتفرجون: «مرحى! يا بركة الله! يا للصوت الجميل! يا الله! نظراتها قاتلة!». إنه لضجيج جميل. وبعد الغناء، يدخل المتفرجون اللعبة، ليشاركوا الممثلين في الملهاة أو المأساة. فيسخرون من الخائن، ويصيحون لإرشاد البطلة التي وقعت ضحية مكيدة. وفي فترات الاستراحة، يصحب صراخ الباعة، وجلبتهم، إيقاع الجوقة النحاسية، التي تستقرّ آنها في القاعة. نعم، إنّها سوق احتفالية حقاً. لكن المسرح في أنقرة شبيه بدار ميت. عيون المتفرجين مثبّتة على الستار. بعضهم ساهم، والبعض الآخر مندهش أو عابس، يتأمّل الملاك ذا الجلباب الطويل،

المرسوم على الستار الممزّق، طائراً نحو سحب بعيدة. من اليسير تمييز أصيلي أنقرة بين الجمهور، عن أولئك الآتين من اسطمبول مثلاً. ويسير أيضاً تمييز النواب عن الموظفين. لكن هناك شيئاً مشتركاً بينهم جميعاً.

ـ الخوف!... أنقرة هي مدينة الخوف، همس لي الشاعر.

إنني أعرف كمال ـ عطيل من اسطمبول. لقد تعلّم تحت إشراف باباسيان، الممثل الأرمني الكبير. وقد لقّب بعطيل لأنه يؤدي الدور أحسن من معلمه.

يرتفع الستار. على المسرح، إمرأة نحيفة، قصيرة، سمراء. على أنفها قطع ذهبية، تلبس سروالاً واسعاً فضفاضاً، وصدرية مزركشة. إنها أرمنية، أخبرني الشاعر. فهمت من نبرة صوته أنه يعشقها.

المرأة ـ فمها رائع، عيناها لا نهائيتان، حاجباها غير متباعدين كثيراً، كثيفان، ومكحّلان ـ لا تزال ساكنة على المسرح. تصفيق يتعالى من طرف القاعة. التفت لأنظر.

ـ إنهم عمال الترسانة، قال الشاعر.

ترتسم على وجه المرأة ابتسامة موجهّة إلى مكان التصفيق، ثم تشرع في الغناء بصوت لا مثيل لجماله الأخّاذ. «في البرك، ضفادع خضراء...» كدّرتني هذه الأغنية، واقشعرّ جلدي. كنت كأنني أقطع الأناضول. أناضول «الهجرة، بعيداً عن أبي، بعيداً عن أمي...»؛ الأناضول، مع أولئك الضباط

الاحتياطيين، المنطلقين من اسطمبول أو من أزمير للالتحاق بالجبهة، أولئك الجنود الجرحى الذين يحتضرون في قرى مروا بها في الطريق، تلك النسوة القاطعات أنهاراً بأزواجهن على ظهورهن، تلك البغايا المصابات بالزهري في كاستامونو، أولئك الأطفال ذوو الرؤوس المحلوقة، ذوو الأرجل الحافية، بمخاطهم، وقملهم، وتشامليبل، قلعة كيرغلو الأغاني، والعربة الخشبية في الأرض المشققة... يا لها من كآبة!... يا إلهي!...

غنَّت المرأة أغنيتين أخريين. ستار. ومن جديد ارتفع، إنها الآن ترقص، بفمها الرائع، وعينيها الواسعتين، وحاجبيها السوداوين الكثيفين... ترقص، مرفقة رقصها بضرب ملاعق خشبية، ودقّ صناجات بلدنا... ستار. أما الآن، فهو شكسبير... المرأة تقوم بدور ديدمونة. إنها تلبس جلباباً مماثلاً لجلباب ملاك الستار، وفي شعرها أزهار صناعية. إن كمال لرائع في دور عطيل. كل الممثلين يرتجلون، فيما عدا عطي وياغو اللذين يلتزمان النص.

بعد انتهاء العرض، عرّفوني برشيد الذي كان في دور ياغو كان قد غسل الماكياج عن وجهه. كان أصهب ومنمَّشاً بشكل غريب. عيناه مستديرتان، خضراوان، وقلقتان، وصوته عذب، إلى حد اللزوجة. إنه يتحدّث حتى خارج المسرح بصوت ياغو. لقد أكمل تعليمه في المعهد الأميركي باسطمبول، وهو يتكلّم الفرنسية بنفس الطلاقة التي يتكلّم بها الإنجليزية. إنه إبن سفير

سابق.

ـ أكيد أن مسرح شكسبير كان أوسع من مسرحنا. لكن لا شك أنه يشبهه. إنني فوق هذا المسرح الخشبي أظن نفسي في لندن الإليزابيتية. يجب أن نلتقي مرة أخرى يا أحمد بك. أنا كذلك أسكن خان بطرس. لقد شاهدتك فيه. وبالمناسبة، إنني أعرف إسمك، من اسطمبول...

استغربت. ثم قلت في نفسي لعلّ ذلك بفضل الكاريكاتور.

ـ لو تفضّلت بانتظاري يا أحمد بك.. لأمكننا أن نعود معاً إلى الفندق...

ـ هنالك أصدقاء بانتظارنا، قال شاعري.

وفي الطريق: ـ إجتنبه، إنه رجل مشبوه. يجدر بالمرء في أنقرة أن يتجنّب الناس الذين ليس له معرفة كبيرة بهم...

الشوارع حالكة. دوريات تعترضنا.

ـ أنقرة هي سفينة نوح، قال لي الشاعر. سفينة تمخر عباب الطوفان الذي أغرق الإمبراطورية العثمانية. لا بدّ لها أن تصل في النهاية إلى ميناء، بحمولتها من الذئاب والثعابين والحمائم. لكن ما أن تصل، حتى تخنق الثعابين الحمائم، وتفترس الذئاب الخرفان، وستتقاتل الأسود والنمور فيما بينها...

المقاهي مغلقة منذ وقت طويل. وصلنا سمانبازاري:

ـ ههنا شنق مصطفى الصغير، عميل الإنجليز...

وأمام خان بطرس، كرّر لي:

ـ لا تخالط رشيد. فمن يعلم؟... هل تفهم؟...

ـ أفهم...

مصطفى كمال باشا يسكن خارج المدينة، محاطاً بحرسه.

الجبهة قريبة وبعيدة في آن. كان صوت المدافع في معركة إينونو ـ بين ٢٣ و٣١ آذار (مارس) ـ يسمع من المدينة، حسب ما قيل لي. أخبروني أيضاً ـ ولا أعرف مدى صحة هذا الخبر ـ أن الموظفين والأثرياء ـ لدى زحف اليونان على أنقرة ـ فرّوا من المدينة، في القطارات، والسيارات، وحتى في العربات...

أخصب أراضي الأناضول، وأغنى مدائنه يحتلّهما العدو: خمس عشرة مقاطعة، تسع مدن كبيرة، سبع بحيرات، أحد عشر نهراً، ثلاثة بحار، ست شبكات سكك حديد، وملايين من البشر، بين أيدي العدو.

ذهبت لملاقاة إبن عمي:

ـ أريد الذهاب إلى الجبهة...

ـ أنت مجنون...

ألححت.

ـ حسناً، حسناً. سوف أهتم بالأمر...

عندما عدت لأراه بعد ثلاثة أيام، استقبلني بهيئة منتصرة:

ـ تحدّثت عن ذلك... ـ لم يقل مع من، لكنه لمح إلى أنّ حديثه كان مع شخصيات هامة جداً، وربما مع أعلاها منصباً!

ـ إنهم لا يسمحون لك بالذهاب إلى الجبهة. سوف نجد لك شغلاً في إدارة الصحافة.

لم أحاول أن أفهم سبب رفضهم طلبي القتال. ربما كان بإمكاني الإلحاح، وانتزاع تلك الرخصة منهم. لكني لم أفعل.

ـ لا أريد الاشتغال في إدارة الصحافة. قلت له. إبحث لي عن مكان أشتغل فيه معلّماً، ولا يهمّ أين يكون...

نظر إليّ ـ مثلما ينظر الأذكياء إلى البهاليل ـ وبعد ذلك بأسبوع، سلكت الدرب إلى بولو، سيراً على الأقدام مرة أخرى. كانت حقيبتي على ظهر حمار. وكان صاحب الحمار أعرج.

الخط الخامس عشر

قرأ أحمد للمرة الـ ... كتاب الشعر الذي تركه ضياء. وها هو يصبّ ماء على أرض الكوخ، ويحاول قولبة الطوب ليشكّل صدر أنوشكا. لم يتوصّل إلى نتيجة بعد. ثم ها هو يحاول كتابة أبيات شعر. لا يعرف ما سوف يكتب. أبداً لم أكن لأفهم شيئاً في بحر الشعر هذا. على أية حال، هل يمكن الإبقاء على هذه البحور في أيامنا. حاول أن يكتب في بحر آخر ـ راح يعدّ المقاطع... سبعة... عشرة... إثنا عشر... نحو أي ميناء يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟ الفراق يا حبيبتي غصن، أنت

ثمرته المرة... وجد قوافي عديدة ترافق «مرة». لكن واحدة لم تلهمه بيتاً ثانياً. لو كنتُ شاعراً، قلت ذات مرة لأنوشكا، لما كتبت قصائد حب... من أين جاءتني الآن فكرة كتابة الشعر؟ «هذه الحياة الخائنة...» لماذا خائنة؟ الحياة جميلة، جميلة. أي جمال فيها؟ وبالنسبة لكم رجل على مئة؟ أغلبية الناس لا يتساءلون حتى إن كانت الحياة جميلة أم لا. أغلبهم يعيشون في الظلم، والجوع، والقمع، والموت، كما لو أن المجاعة، والظلم، والقمع، والموت غير موجودة على الأرض... كم واحداً من مئة يقاوم المظالم، والقمع، والموت؟ نحن الذين نقاوم. الجماهير تقاوم. الجماهير التي تقوم بالثورات، وترفع الحواجز. وأنا؟ هل أقاوم؟ هل أسمي مقاومة هذا الانتظار حتى أموت مكلوباً، مصروعاً برصاصات مسدس إسماعيل؟ آه! يا إلهي! تبّاً!

الخط السادس عشر

عيّنوا نائباً جديداً لضابط المقاطعة في بولو. وقرّر أساتذة المعهد الثانوي، والذين لم يقبضوا رواتبهم منذ شهور، ـ وقد حرّضهم أحمد ـ الذهاب لمقابلة نائب الضابط الجديد، ليعرضوا عليه شكواهم، ويحتجّوا بشدة إذا اقتضى الأمر. واختاروا من بينهم خمسة مندوبين. وهكذا، اجتمعوا عشية خميس في مقهى، واتجهوا غاضبين نحو دار البلدية. مرّوا بالسوق، وكان في

طليعتهم أحمد وشعبان أفندي، مدرّس التاريخ الإسلامي. كان المطر يتساقط. وحده أحمد كان لا يحمل مظلّة. وكان أصحاب الدكاكين يحيّون باحترام وأمل هذا الموكب الحامل عالياً غضبهم ومظلاتهم، إذ أن جميع من يعملون في التعليم كانوا يدينون لهم بالمال. كانوا في السوق يعلمون جيّداً سبب ذهاب الأساتذة إلى دار البلدية...

إنهم ينعطفون إلى اليمين، والمطر ينهمر. ويلتفت أحمد، فلا يرى خلفه سوى مظلتين وحسب.

- ولكن، أين راح أستاذ الأدب؟

- لا بدّ أنه توقّف لشراء علبة سجائر، قال له أستاذ التاريخ.

- ليجمّلنا الله بالصبر! دمدم شعبان أفندي. لقد اختار الوقت المناسب! واحدة، اثنتان، ثلاث مظلات. وصلوا حيّ الحدائق. شاهدتهم إمرأة بلّلها المطر؛ تتلفّع بالسواد، وكان وجهها مكشوفاً. ولّت عنهم، وقرفصت أسفل حائط حتى مرّوا. تجاوزوا الحدائق، وأوغلوا في أرض موحلة. التفت أحمد، لم يرَ سوى مظلة واحدة خلفه.

- لكن، أين ذهب أستاذ التاريخ؟

- توقّف لقضاء ضرورة، قال له أستاذ الرياضيات.

- إن رجال حزب الوفاق هؤلاء لا ينقطعون عن التبوّل في كل الأوقات المعقولة واللاّمعقولة، دمدم شعبان أفندي: كان أستاذ الرياضيات عضواً سابقاً في حزب الوفاق...

المطر الآن ينهمر بشدة. احتمى أحمد بمظلة شعبان أفندي. وأمام دار البلدية، توقّف، والتفت: لم يرَ مظلة واحدة خلفهما. أغلق شعبان أفندي مظلته، ودمدم وهو يصعد الدرج:

ـ إنه خطأك يا أحمد... ماذا دهانا حتى نختار هؤلاء الأشخاص؟...

* أمام باب نائب الضابط، كان يجلس حاجب. وكان الباب مضاعفاً بستار خشن، كأنه باب مسجد.

ـ أخبر نائب الضابط بوصول الأساتذة، قال أحمد.

دخل الحاجب المكتب، ثم خرج:

ـ تفضلا بالدخول.

أبعد أحمد الستار، ودخل القاعة. كان نائب الضابط جالساً إلى طاولته. كان طويلاً، قوياً، وكانت عيناه سوداوان مثل قلبقه. تكلّم أحمد.

ـ أنا وشعبان أفندي أستاذ التاريخ الإسلامي و...

قاطعه نائب الضابط بحركة من يده:

ـ أنت، أراك جيداً. لكن أين هو شعبان أفندي؟

التفت أحمد. لا أحد.

ـ لا بدّ أنه في الرواق... أخبره بـ...

ـ لا جدوى من ذلك...

ـ أنت الذي كنت أريد أن أرى. إجلس...

ـ رواتبنا...

ـ لقد أصدرت الأوامر الضرورية، يتلقّى كل واحد منكم راتب شهر...

ـ نعم، ولكن...

قاطع نائب الضابط أحمد بحركة من يده، ودق الجرس. دخل الحاجب. فطلب منه إحضار الشاي. خرج. وقف نائب الضابط، وانتصب أمام أحمد.

ـ أحمد بك، إنني أعرف من أنت. أعرف آراءك. وأنا على علم بنشاطك في المدينة، وفي القرى... أعرف أصحابك أيضاً... القاضي يوسف بك... المحاسب عثمان بك... وكل الذين يساندونك...

سكت. وضع يده الضخمة على ركبة أحمد، وعاد يتكلّم ببطء:

ـ الجيوش اليونانية تزحف على أنقرة...

ـ ماذا تقول؟

ـ قد تسقط أنقرة...

ـ أنقرة؟... إذن...

ـ إذن... نحن هنا نعلن البلشفية...

ـ البلشفية؟

ـ وأنا أصبح رئيساً للجمهورية. سيقدّم لنا الروس المساعدة. سنكوّن جيشاً أحمر، وسنذهب لتحرير أنقرة. تَهيّأ وأصحابك؛ لكن لا تتحدثوا عني في هذه الآونة...

نظر أحمد إلى نائب الضابط مندهشاً. بدا له أنه يفهم بعض الأشياء، فيما يتجاوز بعضها الآخر إدراكه... لا تزال يد نائب الضابط فوق ركبته...

- إذهب، وأخبر يوسف بك وعثمان بك باقتراحي... ستكون أنت مسؤولاً عن الداخلية، وسيكون عثمان بك مسؤولاً عن المالية، وسيكون يوسف بك رئيس المجلس...

تبدّدت دهشة أحمد فجأة، وراح يصغي بهدوء إلى نائب الضابط. لقد فهم. أحضر الحاجب الشاي. أدار نائب الضابط الملعقة في كأسه، ببطء. وبدأ يتحدّث عن قائد الدرك، ورئيس الشرطة. الأول، يمكننا الوثوق به. أما الثاني، فمن المستحيل - من المستحيل إطلاقاً أن نثق به.

عندما غادر مكتب نائب الضابط، كان أحمد صافي الذهن تمام الصفاء. وفيما كان ينزل الدرج، كان يستعرض ذهنياً جميع من يعرفهم من بين شباب النادي. معلّم الأدب في المدرسة الإبتدائية، ومدرّب الرياضة، وأستاذ الفيزياء والكيمياء... وفي النادي، المهندس البلدي وأصحابه... وفي القرى... ابتسم... لا يوجد سوى الفقراء في القرى... الحرفيون... فرحات النحّاس وأصحابه...

كان المطر قد انقطع. شرعت في البحث عن عثمان ويوسف. أين تراهما يكونان؟ يا إلهي!... دخلت المقهى. كان الأساتذة هنالك، مضطربين ومرتبكين...

ـ سوف نستلم مالاً، قلت لهم. راتب شهر...

خرجت، ولم أسألهم حتى عن سبب تخليهم عنّي في الطريق. عثمان ويوسف لا يزالان خارج بيتيهما. لكن أين تراهما يكونان؟ تباً!...

بشغل يوسف منصب قاض في محكمة الجنايات في بولو. القضاة الآخرون والنائب العام ليس لهم أية أهمية. إنهم مسنّون. ويوسف هو الذي يدير المحكمة برمّتها. أنا أستاذ رسم في مدرسة بولو الثانوية. عثمان محاسب في المصرف الزراعي، عاش في ألمانيا بين ١٩١٥ و١٩١٩. إنه أول من حدّثني عن ماركس: ذكر ببساطة اسمه، ثم: «يا عمّال العالم اتحدّوا!» ثم: «إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ الصراع الطبقي». وبما أن المدرسة علّمتنا أن التاريخ هو تاريخ الملوك والسلاطين، فلقد فهمت الجملة كما يلي: «إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ الصراع بين الملوك والسلاطين». للسلطان الفلاني حساب يريد أن يصفّيه مع الملك الفلاني، فتسقط الشعوب ضحية الخلاف. لكن، سوف يتغيّر التاريخ. سوف ننهي الحروب مع الملوك والسلاطين...

إننا في الحقيقة ثلاثة في محكمة بولو: يوسف، وأنا، وعثمان. أنا النائب العام. القضايا تحلّ شكلياً في قاعة المحكمة. لكن الحكم يقرّر قبل ذلك في حجرتنا في الفندق، فوق الاصطبل. إن ما نبحث عن معرفته هو، أولاً، إن كان المتهم غنياً أم

فقيراً. إذا كان فقيراً، فإنّنا بكل بساطة، نقضي له بعدم سماع الدعوى، حتى لو كان قد آذى غنياً. وإذا كان من المترفين، فإنّنا ندينه، حتى لو كان بريئاً. في المدينة، وفي القرى، كانت شهرة يوسف واسعة. وكان عثمان يتدبّر أمره، لينقص أو يمحي تماماً ديون الفلاحين الفقراء، في المصرف الزراعي. أمّا أنا، فإني أضع التلاميذ الفقراء في الصفوف الأولى. وأوزّع عليهم العلامات الجيدة. أتقنوا ما يرسمون أم لم يتقنوا. هنالك أيضاً النادي ـ نادي الشباب ـ الذي لنا فيه تأثير كبير...

في حجرتي بالفندق الذي فوق الاصطبل، ووسط رائحة الزبل، وضوضاء السلاسل، والصهيل، وفي ضوء مصباح الكاز أعلمت يوسف وعثمان باقتراح نائب الضابط. وقررنا بالإجماع إعلان البلشفية في بولو، في اللحظة التي يحتلّ فيها اليونان أنقرة. وعدنا لمقابلة نائب الضابط ـ مرتين. لكن اليونان لم يحتلّوا أنقرة. فاجتمع بنا نائب الضابط في مكتبه: «لم يعد لكم ما تفعلوه هنا، قال لنا. إنصرفوا ولا تخلقوا لي المضايقات.» إثر ذلك، استلم يوسف برقية، لم يخبرنا عن مرسلها.

ـ إني أنتظر في تريبيزوند، قال لنا. يجب ألاّ أدع هذه الفرصة تفوت. سوف تلحقون بي هناك، ونرحل نحن الثلاثة إلى روسيا، حيث ندرس البلشفية، فوق أرضها...

لم أجد يوسف في العنوان الذي أعطاني إياه. لكن صاحب البيت أرشدني إلى مقهى: «غالباً ما كان يوسف يرتاده ليلعب

النرد مع لاعب ماهر، يسمى حافظ. إنه دائماً هناك...» ركضت إلى المقهى: «يوسف أفندي لم يعد يأتي منذ زمن، أخبرني صاحب المقهى». عدت إلى الفندق. لم أستطع النوم. خرجت من حجرتي. فالتقيت صاحب الفندق:

ـ إلى أين يا سيدي؟ قال.

ـ إنني أرق.

ـ الوقت متأخر، وكل المقاهي مقفلة.

ـ لست ذاهباً إلى مقهى. أريد أن أتجوّل قليلاً، لتغيير الهواء...

ـ كما تريد، لكن الوقت متأخر حقاً...

استغربت:

ـ ولماذا؟ هل الشوارع هنا خطرة ليلاً؟

ـ لا، ولكن...

ـ ولكن ماذا؟

ـ الأمر هو أنك غريب هنا، ولا أحد يعرفك بعد...

ـ وبعد؟

ـ لا شيء... لكن منذ حدوث تلك القصة، صرنا نرتاب في كل الغرباء...

ـ أية قصة؟

لم يجب. واضح أنه ندم عمّا قال. ألححت:

ـ أية قصة؟

ـ إذا كنت مصرّاً على تغيير الهواء، فاذهب يا سيدي. إنني أهتم بك... وفي النهاية... إفعل ما تشاء....

عدت إلى حجرتي. أزحت ستار النافذة، ونظرت. ظلام شوارع الأناضول بعد صلاة العشاء...

وفي الغد، خرجت من الفندق مبكّراً، وعدت إلى المقهى. كان الولد الذي يشتغل فيه نادلاً، يرش الرصيف أمام الباب. وكان في الداخل زبون أو زبونان. عرفني صاحب المقهى:

ـ البارحة بعد انصرافك، جاء يوسف أفندي؛ أخبرته عنك، وقلت له إن شاباً يعتمر قلبقاً طلبه. لم تعطني اسمك. قلت له إذاً: «الشاب من اسطمبول بالتأكيد. سوالفه هكذا طويلة...»

ـ وماذا قال يوسف؟

ـ في البداية لم يفهم... ثم قال: «آه نعم! عرفت...»

ـ وبعد؟ .

ـ لم يضف شيئاً...

ـ كيف؟ ألم يطلب أن أنتظره؟

ـ لا، ولكن انتظره إن أردت... اليوم سيجيء ملك لاعبي النرد، حافظ أفندي. ومن المؤكد أن يأتي يوسف أفندي كذلك...

لم أفهم شيئاً. سوف أنتظر. وماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟

ـ هل هنالك مراكب ترحل أحياناً من هنا إلى باتوم؟

نظر إليّ صاحب المقهى نظرة غريبة:

ـ من وقت إلى آخر.

ـ مؤكّد أن هنالك عبّارات أيضاً...

ـ طبعاً...

ذهب، وأحضر لي شاياً، وحلوى، وجبناً.

ـ هل أنت ذاهب إلى باتوم؟

ـ إلى كارس. لكن مروراً بباتوم وتفليس...

كانت تلك خطتنا بالفعل: كنا سنرحل من تربيزوند إلى كارس، إمّا عن طريق باتوم ـ تفليس ـ كارس، بحرا، وإمّا عن طريق البر. وكنا مزمعين على الاستقرار في باتوم.

ـ لكن، هل عندك تأشيرة عبور إلى باتوم؟

ـ نعم...

كنت قد طلبت تأشيرة العبور من نائب الضابط في بولو:

«... مسموح له بالذهاب إلى كارس، عبر باتوم ـ تفليس... الغاية: أعمال...»

ـ هذا حسن! الرحلة عن طريق البر طويلة ومضنية بالفعل... هل استلمت التأشيرة هنا؟

ـ لا...

ـ في أنقرة؟

ـ لا، في بولو...

ـ تأشيرة بولو لن تجديك نفعاً هنا... سوف يتوجّب عليك الحصول على تأشيرة جديدة.

ـ وهل تعتقد أنهم يمنحونني إياها هنا؟

ـ الله أعلم!...

طلبت شاياً آخر، أحضره لي صاحب المقهى بنفسه.

ـ قل لي، يبدو أن شيئاً ما حدث هنا.

ـ شيء ما؟

ـ لا أعرف ما هي القضية... صاحب الفندق هو الذي حدّثني...

ـ في أي فندق أنت نازل؟

لا أعرف لِمَ أخفيت عنه إسم الفندق، وذكرت له إسم نزل آخر، مررت أمامه أثناء مجيئي إلى المقهى.

ـ إذن، أنت لا تعلم شيئاً عن هذا الموضوع؟

ـ لا... لا شيء إطلاقاً...

واضح أنه يكذب.

وفي ذلك المساء، انتظرت يوسف، ولم يأت.

عدت في الغد إلى المقهى:

ـ هل جاء؟

ـ نعم، جاء بالضبط حين كنا نغلق.

ـ وبعد؟

ـ إنه يوصيك بانتظاره...

بعد ذلك بقليل، دخل يوسف المقهى. تعانقنا، أو بالأحرى، أنا الذي عانقته.

ـ لنخرج، قال لي.

خرجنا.

ـ يوسف، إن تصرفك...

ـ أسكت، سوف أشرح لك كل شيء.

ـ لكن ماذا وقع؟

ـ أقول لك أسكت...

كنا نسير بسرعة. وكان يوسف يلتفت بين فينة وأخرى. كنا نسير بسرعة، بسرعة كبيرة. دخلنا أزقّة ضيّقة ومتعرّجة في حي يسمى حي دير الدراويش حسب ما علمت فيما بعد. تمهّل يوسف:

ـ تحدث يا يوسف...

ـ لقد اضطررت إلى تغيير مسكني...

ـ لكن لماذا لم تترك عنواناً لدى صاحب الفندق؟

ـ كان ذلك مستحيلاً.

ـ لماذا؟ كيف كان يمكنني أن أجدك في تريبيزوند؟

ـ ها أنت وجدتني... هل حدّثت صاحب المقهى بشيء؟

ـ وبم تريد أن أحدّثه؟

ـ لا أدري... كان بإمكانك أن ترتكب حماقة... أخرى مثلما أعرفك...

ـ لقد سألته فقط إن كان هنالك مراكب تذهب إلى باتوم...

ـ يا للحمق!...

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا يمكنك الذهاب إلى باتوم بتأشيرة السفر التي حصلت عليها في بولو... عمَّ حدثته غير هذا؟

ـ لا شيء إطلاقاً...

ـ هل استدعتك الشرطة العسكرية؟

ـ كلاّ... ولكن كيف يمكننا المرور إلى باتوم ـ وتذكّرت فجأة: ـ ألا قل لي، إن الحاكم هنا هو أحد مساعدي جدّي القدماء. سوف أذهب لمقابلته، وأطلب منه تأشيرة مرور. فكَّر يوسف:

ـ لعلّها ليست فكرة سيئة...

لم أفكّر بسؤال يوسف عمّا فعله في تريبيزوند.

ـ أطلب تأشيرة واحدة، لك أنت، يا أحمد، لأن طلب تأشيرتين قد يثير شكوكهم. في غضون ثلاثة أشهر أو أربعة، سأجد حتماً طريقة للّحاق بك... ثم، يجب ألاّ نتلاقى مرة أخرى هنا...

ـ ولكن ماذا وقع؟

ـ هل تحدّثت هنا عن محكمتنا في بولو؟

ـ ولكني لم أرَ أحداً...

ـ لا يسع المرء أن يعرف، مع أحمق مثلك...

ـ لِمَ تنعتني بالحماقة يا يوسف؟! أأنت خائف من شيء؟...

قيل لي إنّ أمراً ما حدث هنا...

ـ من قال لك ذلك؟

ـ صاحب الفندق... ولقد سألت القهوجي...

ـ يا الله! يا للحماقة!

التفت.

ـ ولكن إلامَ تنظر؟

ـ أريد أن أعرف إن كنّا مراقبين...

ـ ولِمَ يمكن أن يراقبونا؟

ـ ربما كنت لا تزال تتصوّر أن الشرطة العسكرية لا تعلم كل ما فعلناه في بولو. إسمع يا أحمد... ـ أخفض صوته: ـ لقد قتلوا مصطفى الصوفي وأصحابه...

ـ ومن هم؟

ـ البلاشفة الترك...

ـ أين قتلوا؟ كيف؟ لماذا؟

ـ لأنهم كانوا بلاشفة...

وصلنا هضبة يغطيها الصنوبر.

ـ لقد طلب منهم مصطفى كمال العودة إلى تركيا. كان الصوفي قد أسر في روسيا. وهناك، التحق بالبلاشفة. كان ثمة أيضاً أشخاص آخرون قدموا من اسطمبول، وانعقد مؤتمر في باكو على ما أظن... فذهبوا إلى المؤتمر...

ـ وبعد؟

ـ حين طلب إليهم مصطفى كمال العودة، وصلوا الحدود... وكان كاظم كربكير باشا قد ذهب للقائهم.

جلسنا تحت الصنوبر. كان الطقس جميلاً، وكانت ريح ندية تهبّ من البحر.

ـ في أرزروم كانوا قد حرّضوا جميع المشايخ والدراويش وصعاليك المدينة على تأسيس: «اتحاد المحافظة على قيمنا ومؤسساتنا»، أو شيئاً من هذا القبيل. وعند أبواب المدينة، اجتمع كل هؤلاء القذرين وبدأوا يصيحون على الصوفي وأصحابه: «إنهم يتأهبون لتحويل مساجدنا إلى إصطبلات ولهتك أعراضنا! إنهم سيجبروننا على لباس القبّعة!» فنزع كربكير سلاح الصوفي وأصحابه، وأرسلهم إلى تريبيزوند.

البحر الأسود يمتد أمامنا. إلى اليمين، إلى اليسار، إلى اللا نهاية، فارغاً. لا شراع، ولا حتى دخان سفينة...

ـ وحالما وصلوا هنا، إلى دجيرمندري، وضعوهم ليلاً في قارب بخاري. كان ذلك يوم ٢٨ كانون الثاني. يحيى... زعيم اتحاد ربان الزوارق، رجل قذر من الدرجة الأولى... إنه أحد عملاء عثمان الأعرج، قائد حرس مصطفى كمال. وفيما القارب الذي يحمل الصوفي يبتعد، ركب يحيى ورجاله زورقاً بمحرّك، ولحقوا القارب في عرض بحر سورميني. وهناك وقعت الواقعة. كان الصوفي وأصحابه خمسة عشر... وكانت معهم زوجته، وهي روسية. قيل إنهم قاوموا ساعات. وتمكّن الصوفي من

انتزاع بندقية. وفي اللحظة التي كان يتأهب فيها لإطلاق النار، قتله فايق، أحد صعاليك تريبيزوند، برصاصة مسدس في رقبته. أما الآخرون، فقد قتلوا ذبحاً وخنقاً، ثم أثقلوا الجثث بالحجارة، ورموها في الماء، وعادوا بالمرأة إلى تريبيزوند، وهي على ما يقال جميلة. أسرها يحي عنده. والآن، يربض الخوف فوق أنقرة... الخوف من حدوث شيء هنا...

- هل في تريبيزوند شيوعيون؟

- لست أدري. لكن الشرطة العسكرية في حالة طوارىء...

البحر الأسود ما زال فارغاً. إنه يتمدّد أمامنا، متألّقاً.

في باتوم، انتظر أحمد يوسف. لا ثلاثة أشهر، بل ستة. ولم يصل يوسف. سنة ١٩٢٤، عاد إلى اسطمبول، ليعمل في التجارة. وأثرى، ثم أفلس. وآنئذ، شرع يشتغل بالتهريب. وفي سنة ١٩٣٤، وسط بيرا، وفي وضح النهار، صرعه رصاص شرطي.

رأيت صورة مصطفى الصوفي لأول مرة في باتوم. وفي موسكو، رسمت صورته بالقلم الفحمي، مرتين أو ثلاثاً: إنه يلبس نظارة، وله شاربان غليظان. إنه أحد الرجال الذين أكنّ لهم أشدّ الاحترام، بل أكثر من ذلك، إنه من أحبّ الناس إلى قلبي.

وفي باتوم، كنت أتجوّل في الحديقة العامة، وكنت جائعاً. كان بحوزتي مليون أو مليونين من الروبلات. بعت حقيبتي في

الأسبوع الماضي. كنت أعتقدها جلدية، وظهر أنها من القماش المشمّع. بي رغبة بشرب شاي في المقهى الذي بجانب السينما. لا شاياً بالسكّرين، وإنما بالسكر الحقيقي... أسمع ضجيج البحر. كسلي يمنعني من الذهاب إلى الشاطىء لرؤية النساء العاريات على الرمل.

مساء أمس، كنت على الشاطىء، وكانت السماء ملبّدة بالغيوم. في الليل الدافىء، كان البحر هادئاً، ومتألّقاً. إنني لا أنقطع عن التفكير بموت الصوفي وأصحابه. وفي المركب الذي كان ينقلني إلى باتوم، عبر سورميني، نظرت إلى الساحل: هضاب خضراء، شاطىء، بيوت صغيرة تتشمّس، ساحل من بين سواحل البحر الأسود العديدة، وصل إلى عرضه يوماً قارب الصوفي وأصحابه ليلاً، رأوا تلك البقع الضوئية المتلألئة، وربّما لم يروها، ربّما كان الثلج يندف؛ هل كان البحر هادئاً أم مضطرباً؟ كان رجال القارب يعلمون جيداً أنهم سيقتلون أولئك الرجال. أتراهم تحدّثوا معهم وكأن شيئاً لن يقع؟ ربما أعطوهم سجائر، أشعلوها بنار سجائرهم بالذات... عمّ كان يتحدّث الصوفي وأصحابه؟ أتراهم لم يفكّروا بموتهم الوشيك؟ هل حدسوا ذلك؟ متى؟ ربما في أرزروم، حين طلب منهم في دار البلدية تسليم أسلحتهم. أم تراهم خدسوا الموت منذ البدء، حين قذفت سيارتهم بالحجارة وهم يدخلون المدينة؟ وكاظم كربكير باشا؟ هل كان يتهكّم في حديثه مع هؤلاء الرجال الذين أعدّ لهم

موتاً مثلما تهيأ خطة حربية؟ إنني أعلم الآن أن كربكير هزَم الطاشناق الأرمن بمساعدة الفيلق الأحمر الذي كوّنه الصوفي من أسرى الحرب الأتراك. هذا النصر الذي استمدّ منه غطرسته حتى موته، لم يكن ليتحقّق دون مساعدة الصوفي وأصحابه. أولئك الرجال الذين أرسلهم إلى تريبيزوند ليقتلوا. لا أدري... إن كانوا قد فهموا، أم لا. ماذا تراهم قد فكّروا حين أبصروا الزورق يقترب منهم بسرعة في عرض بحر سورميني؟ هل اعتقدوا أنه متجه إلى باتوم لإحضار الذخيرة؟ أم أن الزورق خرج على حين غرّة من الثلج والظلام؟ ومع ذلك، فلا بدّ أنهم سمعوا هدير المحرّك. وربما لم يتمكّنوا من سماعه بسبب ضجة محركّهم وصخب الأمواج. وإذا كانوا قد سمعوه، أتراهم فكّروا أن أمراً معاكساً أتى من أنقرة، وأنهم سوف يقدّمون لهم الاعتذار كله؟ أم تراهم فهموا حينها أن الموت يقترب؟ لقد كانوا من أذكى الرجال الذين أنتجهم بلدي. وليس فقط من أذكاهم، بل ومن أشجعهم وأكثرهم وطنية. من ذا الذي أحبّ مثلما أحبّوا ترابنا، وشعبنا، هذا الشعب الذي يعيش في المجاعة، منهكاً بالحمّى، مصاباً بالرمد. وهؤلاء الرجال الذين تكسوهم الأسمال؛ هؤلاء الأشقياء الذين يحرثون حقولهم الملأى بالحجارة، بثيرانهم الهزيلة؛ هؤلاء الرجال الذين أهرقوا دماءهم على أربع جبهات مدة أربعة أعوام، وما زالوا إلى الآن يقاتلون على جبهات جديدة؛ من ذا الذي آمن مثلما

آمنوا بكل ما هو جميل وطيب؟ بكل ما يمثل لدى الإنسان من أمل؟ إنني أرى وجه الصوفي. وجهه فقط. أما الوجوه الأخرى، فإنها من دخان. إنني أرى صدور، وأعناق، وظهور من سيموتون، لكن وجوههم من دخان. وأستطيع أن أرى أيدي الجلاد وزبانيته، بنادقهم، مسدساتهم، خناجرهم، حبالهم. أرى حتى أفواههم المعوجة تحت شواربهم. أرى مسدس فايق، صعلوك تريبيزوند. وجهه أيضاً: أسمر، وأنفه المعقوف. أرى يده وهي تفرغ المسدس في رقبة الصوفي. أرى البندقية، وهي تفلت من يد الصوفي، ويسقط الصوفي في الماء. وربما لم يسقط في الماء، ربما سقط على الجسر، وأثقلوه بالحجارة، وألقوا به إلى الماء، قبل الآخرين. الآخرون. إنني أعرف اسم أحدهم: نجاة، الذي كان معلماً في اسطمبول. هل كان المحرّك صامتاً؟ هل كان يعمل؟ لا يمكن للمرء أن يتصوّر تلك المعركة التي دامت ساعتين، بكل جزئياتها. تلك الأيدي العارية، التي لا تعرف القتل، في مواجهة أيدٍ مسلّحة بالخناجر، والبنادق، والمسدسات، والحبال. أيدٍ تعرف القتل. إنني لا أرى وجه نجاة. أرى عنقه، الذي أوثقوه بحجر، ثم ألقوا به إلى الماء. ربما كان لا يزال حياً. ربما كان جريحاً. ربما كان يرى تلك الأضواء المتلألئة على الساحل. لقد سمعت، وما أزال أسمع اصطفاق المياه المنفتحة المنغلقة، وهي تأخذهم إلى الأعماق، خمس عشرة مرة.

وها أنا ذا في حديقة عامة بباتوم، وبين الشجر تتوهّج بركة

تحت الشمس. يد تحطّ على كتفي، التفت: رشيد! إندهشت. إرتمى عليّ معانقاً. إنه رشيد الذي كان يمثّل دور ياغو في مسرح كمال ـ عطيل...

ـ ماذا تصنع في باتوم؟

ـ لقد جئت لأعمل مع البلاشفة. العالم بأسره سوف يصبح بلشفياً...

لم يسألني عمَّ كنت أصنعه أنا في باتوم، ولم يبد مندهشاً لرؤيتي. أعطاني عنوان الفندق الذي نزل فيه. لم أقل له إنني مقيم في فندق فرنسا. وها هو بعد ذلك بأسبوع يدخل غرفتي معلناً: «إنني أشتغل في صحيفة!» قدمته إلى أعضاء مكتب الحزب الشيوعي التركي. عاد بعد ذلك بشهر: «إنني أرئس تحرير الصحيفة...» باتوم هي عاصمة جمهورية أجاريا الإشتراكية السوفياتية، ذات الحكم الذاتي. أغلبية سكانها مسلمون، ويتكلمون التركية. إنها تصدر جريدة بلغتنا. ورشيد هو رئيس تحريرها. أما نحن، فنصدر جريدة «النقابة الحمراء» التي نرسلها مع البحّارة اللازيين إلى الأناضول.

في المساء الذي زارنا فيه رشيد آخر مرة، اختفى الختم من المكتب. كنا نضعه في درج الطاولة، وكان الدرج مقفلاً بالمفتاح. غير أن القفل قد كسر. وكنت قد خرجت مع رشيد، ولم أعد إلاّ بعد ثلاث أو أربع ساعات. كانت نافذة البلكون قد خلعت أيضاً. أخبرنا التشيكا (الشرطة). واستدعوني. كان

الرجل ذو الشارب الأسود والنظارة، جالساً إلى طاولة خشبية، وكان يتكلّم التركية بلكنة أذربيجانية:

ـ أنت بالتأكيد لم تسرق الختم، قال لي. ما من داع لذلك. إذ كان بوسعك استعماله كما يحلو لك... لكن، فيمن تشك؟

ـ لا أشك بأحد...

ـ جدّك باشا، وأبوك موظف سام. كان إنجلس إبن صناعي... وكان والد مصطفى الصوفي باشا أيضاً...

ـ إنك تشبه الرفيق الصوفي.

ـ أنا إذاً أشبه رجلاً طيباً، قال مبتسماً.

«لو قال لي: «إنني أشبه ثورياً عظيماً»، أو «الرفيق الذي استشهد»، أو «البلشفي البطل»، لكنت فهمت الأمر، غير أنه قال: «إذن أشبه رجلاً طيباً...» وهذا ما أدهشني...

مطر ربيعي يتساقط على موسكو. إنه القطّ الثامن عشر أو التاسع عشر، الذي أرسم. «هذا المساء، ستزورنا أنوشكا في الغرفة»، قال لي سي ـ يَا ـ وْ. سألته إن كان لديه بعض المال. نعم. ولكنه لا يكفي حتى لشراء قطعتين من الكاتو. أما أنا، فلا أملك فلساً. إستدنت من البوابة بعض النقود، وراح سي ـ يَا ـ وْ ليبتاع لنا ما يمكن أن نتعشّى.

لم يكن حبّي لأنوشكا ليقطع علاقتها بسي ـ يَا ـ وْ. إنها لعلاقة غريبة. لو كنت أنا مكانه، لاجتنبت حتى رؤيتها.

دخل رشيد الحجرة، متأبّطاً تحت ذراعه كتلة ضخمة ملفوفة

في فوطة. كان يعتمر قبعة العمّال الروس، وكان يتمنطق بحزام قوقازي مزركش بالفضّة. «جئت إلى موسكو لأحضر مؤتمر معلّمي التعليم العمومي»، قال. لقد صار مفوضاً للتعليم في جمهورية أجاريا.

جاءت أنوشكا، وتعرّفت إلى رشيد. أعجبها القطّ.

ـ لكن هذا كافٍ... فأنا لم أعد أستطيع التحرّك في غرفتي، بسبب القطط...

شربنا شاياً، وانصرف رشيد. وبعدها خرجت وأنوشكا. كان المطر قد توقّف. تأبّطت أنوشكا ذراعي. «إسمحي لي بقضاء الليلة عندك...» طلبت إليها متوسلاً. رفضت.

ـ لماذا؟ ألم تسمحي لي بذلك ليلة أمس؟ مالك ترفضين هذه الليلة؟

ـ لا أدري... هكذا...

تحت بوابة الباحة، قبّلتها.

ـ لم يعجبني مفوض التعليم العمومي في أجاريا، قالت.

ـ لماذا؟

ـ لست أدري. أنت تعلم، هناك أناس محبّبة إلى القطط، وهناك غيرهم...

ـ أنت لست قطة. لا بدّ للكائن البشري من سبب ـ خاصة وهو شيوعي... لو كنت شاعراً، لما استعملت أبداً كلمة قلب.

ـ أأنت تحبّني بعقلك؟

ـ لو كنت شاعراً لما كتبت أبداً قصائد حب...

لدى عودته إلى الغرفة، وجد نفسه يعيد في سريرته البيتين:

« إسمع ما يقول الناي

« إنه يشكو الفراق... »

بعد ذلك بشهرين، أوقفوا رشيد. كان يعمل لحساب الإنجليز. أوقفوه أمام سفارة تركيا، حيث كان يحاول اللجوء. تذكّر أحمد سرقة الختم. لم يحدّث أنوشكا عن ذلك الإيقاف. أمّا رشيد، فلقد أرسلوه إلى سيبيريا. ومن هنالك فرّ عائداً إلى اسطمبول سنة ١٩٢٩، ونشر في صحيفة مقالات معنونة: « كيف أصبحت مفوضاً بلشفياً للتعليم العمومي ». إنه يشتغل في الأمن.

الخط العشرون

استيقظ أحمد والصداع يثقل رأسه. لقد ترك إسماعيل الباب منفرجاً مرة أخرى. قفز أحمد. أغلق الباب، وأشعل المصباح. لم يتحرّك ذلك الصباح. كان ضوء النهار يتسلّل عبر الانفراجة، وفي دماغه يتهادى هدير المحرّك ـ بت ـ بت ـ بت ـ. هل هي البداية؟ هذا الصداع إنما هو... اليوم العشرون. مدّ يده وتناول الكتاب من على الكرسي. لم يذكروا فيه أيّ يوم يبتدىء الصداع. أشعل سيجارة. قرّبها من عينيه، حتى كاد يحرق

حاجبيه. إنه يستطيع تركيز نظره على الشعلة. طبعاً، لا يزال الوقت مبكّراً. الخوف من النار لا يبدأ في اليوم العشرين. راجع الكتاب: اليوم غير مسجّل. نهض. شرب حبة أسبرين. إنه لا يشعر بجوع... ليس لديه شهية للأكل... أحضر شاياً. شربه بسرور. كان سعيداً لذلك. لكن هذا الصداع... كأن رأسه على وشك الانفجار. حبّة أخرى من الأسبرين. أغلق الباب. أشعل المصباح. قرّبه من أنفه. كل شيء عادي. رتّب فراشه. نظر إلى الخطوط على الباب. متوازية كلّها. فكَّر برسم الخط العشرين، ثمّ غيَّر رأيه... لننتظر المساء... ولِمَ الإسراع؟ رسم قطّاً على ورقة صحيفة. مزّقها. نحو أي ميناء يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟ كان يكرّر لنفسه بلا انقطاع. لنلهو، قال في سريرته، رغم أني قرّرت ألاّ أعود إلى هذه اللعبة... ستكون هي المرة الأخيرة... جلس على الكرسي في وضع مفكّر رودان. لكني لست عارياً. جهد في إمساك كل ما يخطر بباله. إن أفكار الإنسان لتتتابع وتتلاحق، إحداها تدفع الثانية، وتتوالد، متغايرة في طولها وقصرها، متماثلة أحياناً، وأحياناً أخرى مختلفة تمام الاختلاف... وإذا انجرف الإنسان في هذه اللعبة ووقع في فخها انتهى بالجنون... أحد قوانين هذه اللعبة يتمثّل أيضاً في قول الأفكار التي يتمكّن من اقتطافها بصوت عال... إنه لن يتمكّن من إمساك سوى فكرة من مئة، وبالكاد. أما أحلامنا التي تبدو وكأنها تدوم ساعات، فهي لا

تستغرق في الواقع سوى لحظة. أتراني اخترعت هذا، أم قرأته في موضع ما؟ صداعي الآن يتناقص... العواء مثل كلب... لا شك أنني سأفقد الوعي حينها. لكن، لن يحدث لي شيء بتاتاً. يجب أن أفكّر بغير هذا. إنني أفكّر بما أفكّر. أفكّر بكل ما يدور برأسي، ولا شيء غير ذلك. الورق الذي يسدّ الباب، المسدس... ترى، أين يضعه إسماعيل؟ لقد قتلوا مصطفى الصوفي برصاصة في الرقبة... لم أعد أشعر بالصداع. الشامة على نهد أنوشكا الأيسر... فتيلة المصباح... لماذا لم أحاول ملاقاة يوسف مرة أخرى في اسطمبول؟ ولكن ما جدوى ذلك؟... التقيت عثمان في بيرا، وجهاً لوجه. أشاح برأسه عني... هل في رأسي صداع، نعم أم لا؟ ربما مات رشيد في سيبيريا...

نهض أحمد، وشرع في قراءة الرواية التي جاءه بها إسماعيل أمس. نظر إلى الساعة. بقيت عشر دقائق على وقت الفطور. أفطر ربع ساعة بعد الظهر بالضبط.

الخط الحادي والعشرون

ـ أحمد... لقد وصلت أمّي إلى إزمير!

ـ متى كان هذا؟ أين هي؟

ـ في فترة استراحة الظهيرة، رأيتها تنتظرني أمام الباب.

أسكنتها فندقاً، وجئت لإخبارك حتى لا تقلق. سوف أعود بعد ساعتين أو ثلاث. قلت لها إنني أنام في مرقد مع الأصحاب. آه يا أمّي العزيزة! لكم كنت أودّ أن تعرفها. وهذا طبعاً مستحيل الآن... لكن لو رأيتها... إن أمّي لواحدة من تلك الأمّهات اللواتي نقرأ عنهنّ في الروايات، لو تعلم... لكن سوف أحكي لك فيما بعد. لدى خروجي من المصنع، ذهبت لرؤيتها في الفندق، وقلت لها إنني سأعود...

ـ لا تتركها تنتظر....

ـ لم أكن قد حدثتك عنها. إنني لا أحدّث عنها أحداً... ولو أحببت إمرأة، لما استطعت الحديث عنها أيضاً...

ـ هل هي كناية؟

ـ لا يا صاحبي، لكل طبعه...

ـ أمّي شخصية روائية... لقد كدّت من أجلي، وغسلت ملابس الناس القذرة، وخاطت كيما أتمكّن من إكمال دراستي التقنية...»

«من كان أبوك؟ لماذا كان على أمك أن تربيك بمفردها؟ ماذا وقع لأبيك؟»

لم يطرح أحد هذا السؤال على إسماعيل.

سأنصرف، لا تدعها تنتظر.

ـ أنا ذاهب ... لو رأيتها... قصيرة...

ـ «لماذا جاءت إلى إزمير؟ كيف تعيش؟ وأين تسكن؟»

هذا السؤال أيضاً لم يطرحه على إسماعيل.

ـ سوف تبقى بإزمير ثلاثة أيام أو أربعة. نم، ولا تنتظرني...

ـ حسناً، حسناً. أغرب الآن!

ودونما توقع، ارتمى إسماعيل على أحمد ليعانقه، ثم مضى. أطفأ أحمد المصباح، وترك الباب منفرجاً. كان يرى النجمات.

هو، لم يفكّر بأمه منذ شهور، هذا ما قاله لنفسه. وهذا ما يحزنه. أمّي لم تغسل الثياب القذرة لتكبرني، ولم تكدح من أجلي. هل أنا أحبّها مثلما يحبّ إسماعيل أمّه؟ أمّي جميلة، وأنوشكا، وكل النساء جميلات، في أسرة أمّي. كل واحدة منهن أجمل من الأخرى، كلّهن.

ـ إذن، أنت تشبه أباك.

ـ نعم... لكن أمّي الآن قد بلغت الأربعين... كنا جالسين في الشمس، وسط باحة ستراسنوا، قرب تمثال بوشكين. اليوم أحد.

ـ ما اسمها؟

ـ غوزيدي.

ـ غيوزيدي...

ـ لا غيوزيدي... بل غو-زيـ-دي... أنتم لا تستطيعون نطق الأو.

ـ وأنت لا تستطيع نطق الـ «تسه» بالروسية.

ـ أمّي تكتب الشعر بالفرنسية...

ـ هل تكتب قصائد حبّ؟

ـ يا للفكرة! إنها متزوجة... وفي سنّها أيضاً!...

ـ ولِمَ لا؟

ـ كيف، ولِمَ لا؟ هل تريدين أن تكتب قصائد حبّ لأبي؟

ـ وَلِمَ لأبيك؟

ـ لمن إذن؟ إنها تعزف على البيانو... وتحبّ بيتهوفن... أما أبي، فهو لا يحبّ سوى الموسيقى الشرقية... ذات يوم في المدرسة، وقد كنت مريضاً في المستوصف، جاءت أمّي لتراني. رفعت الحجاب عن وجهها، وكان الطبيب وأستاذ التاريخ حاضرين؛ قلت لها أن تحتجب. لقد كنت دوماً أغار أشدّ الغيرة على أمّي، منذ طفولتي...

على حين غرّة، ظهر بتروسيان ـ سكرتير الخلية الحزبية ـ في طرف الممشى. كان يبدو مغرقاً في التفكير، وكان يأكل بعض حبّات دوار الشمس، ويتفل القشور على الأرض. وشاهد أحمد وأنوشكا.

ـ مرحباً يا أولاد... إسمع يا أحمد... أنا بحاجة لبعض المواد... حول وضعية ملكية الأرض في تركيا اليوم... لقد وجدت بعض الأرقام... لكن أنت...

ـ أنا لا أملك شيئاً...

ـ ألم تذهب أبداً إلى قرية، هناك، في وطنك؟

ـ بلى...

ـ ألم تدرس هذه المشاكل هناك؟

ـ لا...

ـ وحزبكم؟ ألم ينشر شيئاً عن الموضوع؟

ـ لا أعتقد...

نظر إليه بتروسيان بكآبة:

ـ إذن، سوف يتوجب عليك أن تحكي لي ما شاهدت هناك...

أعطى أنوشكا بعض البذور، وتوقّف قليلاً. كأنه سيضيف شيئاً آخر، ثم انصرف مدندناً أغنية أرمنية.

ـ بتروسيان. هوذا رجل يمكن أن أحبّه، قالت أنوشكا.

ـ ما عاد ينقصك سوى هذا... ولماذا لم تحبيه هو؟ لماذا يمكن أن تحبيه؟ أتجدينه جيلاً؟ من تجده النساء جميلاً من بين الرجال لا يعجب الرجال، والعكس بالعكس...

ـ ليس لأنه جميل... لا. ولكن لأنه يعيش كما لو أنه لن يموت أبداً... مع أنه يعلم أنّه لم يبق له سوى بضع شهور... لهذا يمكن أن أحبّه...

ـ وحين يموت، لن تعودي لحبّ أحد بعده...

ـ بلا شك... ثم، من يعلم!...

نهضا.

ـ إلى أين يا أنوشكا؟

ـ إلى البيت . لديّ بعض الغسيل .

ـ هل يمكنني الذهاب معك ؟

ـ إذا أردت .

ـ ما قولك لو ذهبنا إلى مسرح ميرخوا

ـ كلاّ ، سأذهب إلى حفلة مع سي ـ يَا ـ وَ .

ـ ألا أذهب معكما ؟

ـ لا . . .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا سنمضي لوحدنا أنا وسي ـ يَا ـ وْ . . .

لم يحتجّ أحمد . وفي منتصف الطريق ، توقّف :

ـ لديّ شغل أنا أيضاً ، ها قد تذكّرت . . . سوف أشترك مع رفاق التجمع الفني في أمسية تقام الأسبوع المقبل في مصنع . . . والأمر يقتضي الشروع في العمل من الآن . . .

عندما عاد إسماعيل ، كان أحمد لا يزال نائماً . وإذ انزلق غطاؤه على الأرض ، أعاد إسماعيل تغطيته . « إسماعيل ، ـ كان يقول له ضياء ـ إن أمّك قوة طبيعية ، لكنها ليست كالبحر أو الريح أو النار ، بل هي ضئيلة مثل ذرة ، غير أن هذه الذرة جوهرية ، إنها أساس كل الأشياء . . . »

وسوف تموت أمّ إسماعيل سنة ١٩٤٠ ، في السجن . كان أحد الحراس ـ وهو بورساني الأصل ـ مؤيّداً للألمان . كان كل ليلة ، بعد أن يقول للمساجين : « نجّاكم الله » ، ويغلق الباب

الحديدي، يلصق فمه بالشباك لينادي إسماعيل: «تعال، تعال يا هذا... هتلر قصف لندن مرة أخرى... سوف يربح الألمان الحرب... لا تكن عنيداً، واعترف أنهم سيربحونها!» - «كلا، سوف يخسرونها»، يقول إسماعيل. «حسناً، حسناً. كما تريد...» يجيب الحارس. وفي الليلة التالية يتبادلان نفس العبارات. وبين قدمي هذا الحارس تموت أمّ إسماعيل. خلف شبكة غرفة المقابلات، ضئيلة، ومجمّدة. «لقد جلبت لك بعض كريات من الرز، بالزيت... انهرستا قليلاً في الطريق... لا تنسَ أن تذيق منها السيد الحارس يا ولدي...» تقول، ثم تسقط عند قدمي الحارس.

أصاخ إسماعيل إلى دوي الموتور... هناك شيء ما، لا يشتغل كعادته، قال في نفسه. لا بدّ أنه أحد المكابس... ثم اضطّجع.

الخط الثاني والعشرون

عندي ضيوف: بعضهم يجلس على الأرض، وبعضهم على الأسرة، والبعض الآخر على الكراسي. أحدهم يستند إلى الحائط قرب خزانة الطعام، وآخر يقف إلى يسار الباب، وأنا أيضاً واقف. إلى يسار الباب، مسنداً ظهري إلى الجدار، قرب خزانة الطعام. وأنا جالس على الأرض، جالس أيضاً على الأسرة، وفي

ذهاب وإياب، ووجوه ضيوفي يضيئها القنديل المشتعل فوق الطاولة الخشبية. يضيئها من أعلى، ومن أسفل، ومن جوانبها. وأنوشكا تدخل، وتخرج، دون أن تفتح، ودون أن تغلق الباب. إنها تدخل وتخرج، من حجارة الجدار. تطلع من الحفرة التي حفرنا، دون أن تدفع الغطاء، دون أن تغلقه. إنها في القنديل. وتخرج من الفتيل، وتخرج من شعلة الفتيل. وبين ضيوفي، أناس أحبّهم كثيراً، وأناس لا أتحمّلهم. ولكن قلبي يخلو من الحقد عليهم. إنني لا أبغض أحداً، سوى أولئك الذين قتلوا مصطفى الصوفي، وسوى طبقات المستغِلّين، لا في بلادنا فحسب، بل في العالم بأسره، وسوى الفاشيين والإمبرياليين، والمرأة التي جرحت لينين. وأبغض كولتشاك ودينيكين، والضابط الأشقر ذا العينين الجاحظتين الذي قتل والد أنوشكا. ولا أبغض أحداً سوى الاشتراكيين ـ الديمقراطيين اليمينيين، وقسطنطين ملك اليونان، وأفروف والجيش اليوناني الذي أحرق إزمير، وأسطول الحلفاء الذي حاذيت كتلهُ الفولاذية التي بلون الفضة والرماد، وأنا أغادر اسطمبول. وهذا كل شيء فيما أعتقد. لعلّني نسيت الآخرين. نعم. نسيت محكمة الاستثناء التي أوقفت رفاقي، والتي تبحث عني. أبغضها كما أبغضهم جميعاً. وهم يبادلونني بغضاً ببغض، أو على الأقل ـ الذين يعلمون بوجودي ـ منهم. الإمبريالية مثلاً لا تعلم بعد. غير أن لي أعداء آخرين بلا سبب. لماذا؟ هكذا، مثلما كانت تقول أنوشكا... أناس يكرهونني. لكني لا أحقد

عليهم... أن نعرف حقد امرىء عليك، كرهه لك، وأن لا تحقد عليه، أو أن تجهد لتفكّر: «أنا أيضاً يمكنني أن أحقد»، لتنساه بعد ذلك، أليس هذا غريباً؟ لعل هذه الكلمة لا تعبّر تماماً عن حقيقة ذلك الإحساس، غير أني لم أجد أوضح منها كلمة.

عندي ضيوف: كل المدن التي زرت، كل المدن التي قرأت عنها في الكتب، وشاهدتها في الصور، كل القرى الضائعة، ومسالك الجبال والغابات والشوارع والليالي والأيام والنهر الجاري في قرية كيرزلي وخليج كالاميش في اسطمبول وشارع تفرسكوا والمقهى ذي الجدران المغطاة بالمرايا في بولو. إنني أرى نفسي في المرآة المقابلة، كما في مرآة العم شكري يوم وصولي إزمير. لكني حليق الشارب، أعتمر قلبقاً كبيراً مدبّباً، وسالفاي تجاوزا شحمة أذني. أقطّب حاجبي. وأنا مستعد لإعطاء عشرة أعوام من عمري لأظهر بعشرة أعوام أكبر. وفي المرآة، رأيت ذلك القذر صاحب العمامة المبطّنة بالحرير، واللحية المستديرة كعقد، وهو يرقبني بعينيه المكحّلتين. التفتّ، فابتسم. قذفت وجهه بكأسي الملأى شاياً. ومنذئذ، سمّوني في بولو «الممسوس». وأعتقد أن احترامهم لي ازداد. لم يكن جواد ذا لحية مستديرة كعقد، ولا كانت له عمامة بيضاء، ولا هو لوطي، غير أن فيه شيء يذكّر بشيخ بولو. رشيد، الأصهب الذي أصبح مفوضاً للتعليم العمومي، كان ممثلاً هاوياً. أما جواد، فلقد كان محترفاً، ومزهواً بذلك. ولا أدري كيف أتى إلى روسيا، حيث يعمل في

التشيكا. ولا أعرف أيضاً كيف تسنّى له الدخول. إنه يكرهني. لماذا؟ لست أدري. كنت مع بعض الرفاق في إحدى حانات أربات، وأمامنا كؤوس بيرة؛ وكنت أصف لبتروسيان قرى بولو، حين دخل جواد، وجلس إلى طاولتنا. كان سكراناً، استمع إليَّ، ثم قال: «أنت عميل مصطفى كمال. ملفك عندنا، وحياتك بين يدي. إنها رهن رصاصة». لم يترك لي بتروسيان الوقت لأجيب: «أغرب عن وجهي أيها السكّير». إنه لم يصرخ بهذه الكلمات، بل همسها تقريباً، وأمسك جواد من ذراعه. أخرجه. ثم رجع. «الثورات، قال، تطلق الأمواج وتوقظ العواصف، هي من القوة، بحيث تسحب كل الحشائش الساكنة في القاع إلى السطح، وتطفو على مياه موانئنا». ثلاثة أيام بعد ذلك، ألتقي جواد أمام سينما القط الأسود؛ يصافحني، ويربت على كتفي قائلاً: «سوف أكتب لك مسرحية، وتكون أنت الممثل، وأنا المخرج». جواد يكرهني. وأنا لا أضمر له كرهاً. قرف، فقط. الكره، فيما أرى، هو إحساس جدّي وهام بالنسبة لي، ولا يجدر أن أضيّعه سدى...

تعرفت على نوري جمال في باتوم. لحيته مدبّبة، لا شكّ أنه في الخمسين. كان قد كتب في تركيا مؤلفات عن التعاونيات وعن النحو التركي. وكان قد نفي إلى فزان في عهد عبد الحميد، بسبب انتمائه إلى حزب تركيا الفتاة. كان يكتب قصائد رديئة للأطفال. وبعد سقوط القيصرية، جاء إلى باتوم ليعمل في

التجارة. وهنــاك تعـرّف على مصطفـى الصـوفي، ودخـل إلى الحزب. يقال إنه أطال لحيته لإخفاء أثر جرح في ذقنه. هل حقاً في ذقنه ندب؟ لا أعرف. إنه ـ ككل الشيوخ ـ يحب النساء الجميلات. ولعلّ كلّ الشيوخ ليس لهم هذه الهواية. وهو يعرف الفرنسية واليونانيـة والروسيـة. ومنـه عـرفـت بعـض التعـاليم الماركسية، مثل نظرية فـائـض القيمـة. وهـو ـ مثلي ـ لا يحب الاغتسال كثيراً. في غرفتنا بفندق فرنسا في باتوم، كان هنالك سرير ـ ويا له من سرير! إنه سرير ملك. الشراشف، غير موجودة. ولا شيء غير الغطاء. لكن عرضه، والحشية والمفرش، هي التي تجعل منه سرير ملك ـ نعم، كان هنالك هذا السرير، ومعه أريكة؛ لم أقدر أبداً رغم إلحاحي الشديد أن أقنعه بالنوم فيه. كان يقول: «إننا سنعود إلى البلد، سوف نعذّب هناك، وبالتأكيد سوف ندخل السجن؛ وإذا اعتدت في مثل سنّي النوم على سرير بمفرش، فلن أقدر أبداً اعتياد أسرّة السجن...» كان ينام إذاً على الأريكة متوسّداً معطفه. وكان يشرب الشاي دون سكّرين. جئنا معاً إلى موسكو. وهو الآن أستاذ في الجامعة. قدمت إليه أنوشكا.

ـ أتعرف؟ قالت لي فيما بعد، لقد خصّني أستاذك بما يسمى البوح بالعشق... وبكلّ بلاغة...

ـ هل كان من الممكـن أن تحبّي رجلاً مسنّاً يا أنوشكا؟

ـ ماذا تعني برجل مسنّ؟

ـ خمس وثلاثون، أربعون سنة.

ـ نعم، وأكثر حتى.

ـ حقاً؟

ـ حقاً.

ـ إنه لشيء غير عادي.

ـ ولماذا؟ قد تحب إمرأة كبيرة السن شاباً، وهو شيء عادي، وقد لا يكون. وفي الواقع، ليس للعادي ولغير العادي من معنى في الحب.

في ١٩٢٨، عاد نوري جمال إلى تركيا، وصار عضواً في لجنة مجمع اللغة التركية، وبعد ذلك نائباً؛ مات في سن الثانية والثمانين.

مساء الحفلة الموسيقية، ذهبت إلى غرفة أنوشكا ساعة قبل الافتتاح. وجدت سي-يَا-وْ هناك.

ـ عجباً! قالت أنوشكا، ألم تقل إنك مشغول هذا المساء؟

ـ لقد أكملت شغلي...

تجاذبنا أطراف الحديث، وأنشد لنا سي-يَا-وْ أشعاراً صينية قديمة. ـ أنشدها في الصينية أولاً، ثم ترجمها بعد ذلك إلى الروسية. وعندما حانت ساعة الحفل، قالت أنوشكا:

ـ نحن سنمضي.

ـ سأبقى هنا...

ـ حسناً، ولكن بشرط أن تستحم. إذهب لتسخين الماء في

المطبخ دون أن تزعج الجيران؛ وحين ينام الجميع، إغتسل في زاوية من المطبخ، ولا تسكب الماء في كل مكان. سوف تجد البرنس في الخزانة. لكن إذهب أولاً، واحضر من غرفتك ثياباً نظيفة. هل تعدني بأن تفعل؟

ـ أعدك...

انصرفا. سي ـ يَا ـ وْ يدهشني. إنه، بالرغم من علمه بعلاقتي مع أنوشكا، لا يزال يعشقها عشقاً جنونياً. وهو لا يخفي ذلك. أتراه عنين؟ عدت إلى غرفتي لآخذ الثياب. وفي الطريق، فكرت بسي ـ يَا ـ وْ. ولدى رجوعي إلى حجرة أنوشكا، تمدّدت على الأريكة، وفكّرت مرة أخرى بسي ـ يَا ـ وْ. ثم، شيئاً فشيئاً، فكّرت بسي ـ يَا ـ وْ وأنوشكا معاً. وخطرت ببالي أشياء فظيعة. وضعت الدلو على الغاز في المطبخ لتسخين الماء. دخلت الحجرة، خلعت ثيابي، تمدّدت من جديد. أنوشكا، حين تستمع إلى الموسيقى، تضع يدها على ركبتي. هل يدها الآن على ركبة سي ـ يَا ـ وْ؟ وبعد؟ نعم، وبعد؟ سوف يعودان من الحفلة سيراً على الأقدام. سوف يتمشيان جنباً إلى جنب في الشوارع الخالية. لماذا رفضت أن أذهب معهما إلى الحفلة؟ ماذا جرى؟ نمت. استيقظت فزعاً. ماء ساخن ينسكب على رأسي. أنوشكا واقفة قرب الأريكة، وفي يدها الدلو...

ـ هل جننت؟

ـ لقد وعدتني أن تستحمّ. إنهض.

الأريكة والغرفة وملابسي، وكل شيء مبلّل. غضبت:

ـ إنه لشائن فعلك هذا...

ـ لا تصرخ، سوف توقظ الجيران...

ـ إذهبي أنت وغازلي سي-يَا-وْ، ثم...

ـ ماذا قلت؟

ـ لقد سمعتني جيداً.

ـ هي ذي ثيابك النظيفة. إلبسها، وانصرف.

خلال أسبوع بأكمله، لم نتبادل حتى كلمة التحية.

على طول جدران حجرتنا، ومن طرف الباب إلى طرفه الثاني، ألصقت شريطاً من الصور، عرضه خمسون سنتيمتراً. وفيما أنوشكا وكريم يتأمّلانها، كنت أقف وسي-يَا-وْ خلفهما. كانت الصور تمثل الأنظمة الاجتماعية: على يمين الباب، المشاعية البدائية، القبيلة، القنانة، الإقطاع، الرأسمالية. وعلى يسار الباب، الشيوعية العالمية، واندماج الأجناس في عالم تختفي فيه الحدود، والحكومات، والطبقات، ولا يبقى فيه سوى إنسان جنس واحد وأمّة واحدة: إنه إنسان الجنس الشيوعي. إنسان الأمّة الشيوعية.

متى يتكلّم إنسان الزمن الشيوعي لغة واحدة، قالت أنوشكا. وإذا لم تكن هذه اللغة هي الروسية ـ وليس لزاماً أن تكونها ـ ربما كانت الصينية...

ـ ربما، قال سي-يَا-وْ.

وضحكت أنوشكا:

ـ يا لك من قومي! نعم. كنت أقول، ربما كانت لغة مختلطة، أو ربما كانت هي الإنجليزية، أو لغة مختلفة تمام الإختلاف. لكن ما لم تكن اللغة الروسية، فكيف سيتسنّى للناس آنئذ أن يتذوّقوا شعر بوشكين؟

أجابها كريم، دون أن يحول عينيه ـ العسليتين تحت حاجبيه السوداوين ـ عن شريط الصور:

ـ أنا لم أقرأ بوشكين. قد يكون هذا الأمر فضيحة، لكنّ ما أعرفه من الروسية لا يمكن أن يفي بالغرض. وبما أنه لم يترجم إلى التركية، فالخطأ ليس خطأي... ولا أعتقد أن هذه اللغة الكونية، يمكن أن تكون التركية. ثم إنه يبدو لي أن بعض اللغات الكبرى سوف تبقى، لكن ليس هذا هو المهم... لن يبقى على الأرض إنسان واحد يقاسي الجوع، ولن يبقى عاطل واحد، ولا أمّي واحد. ولن يكون هناك أرباب عمل، ولا عمّال، ولا فلاحون، ولا شرطة، ولا درك، ولن يخاف أحد غيره، وسوف نعمل كما نشاء، ونأكل ونشرب ونلهو كما نشاء. آه يا إلهي! كل هذا سيقع، بالتأكيد. أما نحن، فلن نشهده. غير أننا سنشهد الثورة العالمية، وهذا كافٍ. كل الناس ينتظرون تحرّك البروليتاريا الألمانية، لكن في رأيي أن الذين سيتحركون هم الفرنسيون. في ترسانة أنقرة، كان هنالك رئيس عمال يدعى سيفي، اشتغل في السابق عامل رصيف لمدة عشر سنوات في ميناء مرسيليا، وكان يقول: «سوف ترون ما يمكن أن يفعله

العمال الفرنسيون». ثم لا تنسوا كومونة باريس...

لقد جاء كريم إلى موسكو مبعوثاً من تنظيمه. إنه أعز أصدقائي في موسكو. وهو يكره شيئين: التبغ والكذب. مستحيل أن أدخن وهو قربي. كان يردّد بلا ملل: «لا يمكن للمرء أن يكذب إلا على عدوه، هذا كل شيء. وليس من الرجولة أن يكذب الإنسان على النساء، كما يستملحنه». وقد تعرّف إلى صديقة لأنوشكا، وكانا متفاهمين كل التفاهم. غير أنها لم تستطع أن تجعله يقول، ولو مرّة واحدة: «إني أحبّك كثيراً يا ماروسيا».

- إذن، أنت لا تحبّني يا كريم.

- لكني أحبك...

- كثيراً؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أدري. أحبك، لكن ليس كثيراً. لو كنت أحبّك كثيراً، لقلت لك ذلك. غير أني لا أحبك بذلك القدر...

كانت درجة الحرارة ٣٧ تحت الصفر في المساء، ذهبت مع كريم إلى حمّام يقع في أحد الشوارع التي تقع خلف شارع تفرسكوا. هناك، يستحمّ الناس عرايا. لكن، ولأننا غير معتادين على ذلك، حاولنا الاستحمام دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر. وكنا نضع الطشت أمامنا. خرجنا من الحمّام. الوقت

متأخر. فوانيس الشوارع مضاءة. نوافذ الترامواي والواجهات يكسوها الصقيع. زلاجات تمرّ مسرعة. ولو بصق الإنسان، لتجمّدت بصقته في الهواء. يقول المثل عندنا: «الثعالب ذاهبة تخـ... النحاس». البرد رهيب. المارة لا يسيرون، بل يركضون ركضاً. أغلبهم يحتذي جزماً لبدية. إمرأة زلّت قدمها، وسقطت أمامنا. ساعدناها على القيام. ونحن في معطفينا العسكريين، وبقبعتينا المدبّبتين والمقفلتين على عنقينا، متجمّدي الأطراف، وضجيج المدينة الغامض يصلنا أكثر وضوحاً في هذا البرد. وأشير إلى فتاة تقترب منا: «أنظر، ألا ترى أنها جميلة بخديها المحمرين؟...»

- إنهما محمرّان من البرد، أجابني. أنفها يشبه الشمندر...

المدينة تعيش إحدى لياليها الشتائية، دون أن تتوقع المأساة التي ستنفجر. والتي لن تشمل موسكو فحسب، بل وباريس كذلك، واسطمبول، ونيويورك، وسنغافورة، وبكين. كل مدن العالم تجهل ما هو آتٍ والحياة تتصل فيها جميعاً؛ وبعضها طلع الصباح عليها، وبعضها انتشر النهار فيها، وبعضها الآخر، تلفحها حرارة الهاجرة، وكلها تعيش بهمومها، وأفراحها، وآلامها، وآمالها، وسياراتها، وعرباتها، ومصانعها، ومغازاتها، وبيوتها الحجرية، والخشبية، وجميع أولئك الناس الذاهبين إلى أشغالهم، أو العائدين منها، المتجولين، أو الجالسين في المقاهي، المتعانقين في الحدائق، أو المتفرجين في دور السينما، وأولئك

الذين يولدون، وأولئك الذين يموتون، وسوى بعض الأشخاص، لا أحد يعلم بعد بالخبر الذي سيزعزع العالم.

وصلنا سينما القط الأسود. وعلى حين غرّة، انفتحت أبواب ساحة. أبواب خشبية، عالية وضخمة. أكان ذلك بقربنا، أم أمامنا، أم هنالك قبالتنا؟ لست أدري. غير أن شاحنات انبعثت بغتة عبر هذه الأبواب. وسمعت صرخة. لقد كانت بالتأكيد صرخة عدد من الناس. لكنها كانت صرخة واحدة. كائن واحد يصرخ بقوة. أعظم من الشارع الضخم، المتوهّج، الضاج، وأكبر من الليل والبرد: لينين مات! ماذا وقع فيما بعد؟ لقد رأيت الأحداث. لا، بل لم أرها كما وقعت في تسلسلها الزمني، كانت تبلغني مجزّأة إلى قطع، وتبلغني دفعة واحدة. وكنت أسمعها كذلك. كنا ننتزع الصحف من أيدي الذين خرجوا بغتة من الأبواب الخشبية. ترامواي توقّف أمامي، وفي لحظة فرغ؛ كل الترامورايات توقّفت، كلها فارغة. لا أسمع شيئاً. رجل عجوز يبكي. يخلع قلبقه، ويضغطه على قلبه. إنه أصلع يبكي. الزلاجات توقفت. الزلاجات فارغة. دور السينما فرغت. كأن الناس يهربون من حريق. والمطاعم، والبيوت. إنهم يملأون الشوارع. شارع تفرسكوا تغطيه الأقدام. الناس يتجمّعون، يتدافعون، يتزاحمون على أكشاك الجرائد. يبكي السائق جالساً على مرقاة ترامواي، تبكي الفتاة ذات الخدين الأحمرين التي التقيناها قبل قليل. يبكي كريم، والصحيفة في يده. غير أني لا

أسمع شيئاً. كل ما أرى كأنما يحدث في حوض أسماك ضخم. رجل وقع على الأرض. رجل آخر وقع على الأرض. أحدهم يجذبني من ذراعي. التفتّ، عجوز مجمّدة الوجه، ضئيلة، مرتدية فروة، على رأسها شال، تجذبني من ذراعي، تتمتم لي شيئاً بفمها الأدرد. لا أسمع. أنحني عليها، تسألني بصوت طفلة لا تتجاوز الست سنين: «هل مات لينين؟» أومىء نعم برأسي. «لقد مات...» ظننت أنها سترسم إشارة الصليب. لا، بل تركت ذراعي، وراحت تردّد: «يا لمصيبتنا... يا للمصيبة...» يا للمصيبة! يا للمصيبة! يقوى الصوت، يتضخّم، يتضخّم، يكبر كجني الخرافات المنطلق من القمقم السحري، ويضيع فجأة. وآنئذ، يسكن العالم أذني. وتذكّرت يوم جنازة جدّي. كنت أسمع بكاء عشرة أشخاص، وربما عشرين في آن معاً. يمكن أن نتصوّر مئة إنسان يجهشون في ذات الوقت، لكن إجهاشة مدينة بأسرها في وقت واحد، ذلك الصوت لا يمكن سماعه سوى لبضع دقائق؛ وربما سمع، لكن الغريزة تدفعك إلى صمّ أذنيك عنه لإنقاذ أعصابك وعقلك، ولئلاّ تجنّ. وآنئذ، لا تسمع ذلك الصوت الوحيد، وإنما بعض شهقات هنا وهناك.

لدى عودتنا، أخبرونا أن الشيوعيين سيقومون بالحراسة. لم نستطع أنا وسي-يَا-وْ المكوث في غرفتنا. نحن الإثنين بمفردنا لا يسعنا أن نملأ فراغ الوحدة. زحنا إلى المرقد. كان جميع الطلاب جالسين على أسرّتهم، ولا أحد يتكلّم. أحدهم شرع في

خلع ملابسه. نظرنا إليه، بلا بغض ولا تقزّز، وإنما باستغراب. نظرنا إليه كما لو أنه يقوم بحركات بهلوانية عسيرة. إندسّ في فراشه. دفن رأسه تحت غطائه، ونحن ما نزال ننظر اليه. وفي الصباح، قمت بحراسة باب الشارع، لكن من الداخل. البندقية في يدي، وأنا لا أعرف حتى كيف أستعملها.

نقلوا جثمان لينين إلى قاعة الأعمدة.

من كل جهات البلد، القطارات تنقل البشر إلى موسكو. كل من يريد رؤية لينين لآخر مرة. كان صف الرجال والنساء الداخلين من أحد أبواب قاعة الأعمدة والمارين أمام لينين ليخرجوا من باب آخر، يمتد حتى أطراف المدينة. وفي الشوارع، وفي الساحات العامة، تشتعل نيران عظيمة ليلاً ونهاراً. وليلاً ونهاراً، تتقدّم صفوف البشر نحو قاعة الأعمدة. وسيارات الإسعاف تنقل المرضى والذين تجمّدوا من البرد إلى المستشفيات. وليلة اليوم الثاني، جاءني بتروسيان: «إلبس ثيابك بسرعة، أحمد». تسلّقنا شاحنة مفتوحة، لا تكاد تجد فيها موطئاً لقدم. مررنا بين مجموعات الناس الذين يملأون الشوارع، متدفئين قرب النيران، وتوقّفنا أمام باب يقع خلف الأعمدة. ونحن ندخل، قال لي بتروسيان: «سوف نقوم بحراسة جثمان لينين لمدة خمس دقائق. كممثل للجامعة». في عهد القياصرة، كانت قاعة الأعمدة هي نادي الضباط. وهي الآن على ما أعتقد، نادي النقابات. صعدت الدرج. تناهت إلى مسمعي الألحان الجنائزية.

دخلت قاعة. مرمر، ومذهبّات، ومخمل أحمر، وأناس في كل مكان. عمال، وضباط من الجيش الأحمر، وفلاحون، بعضهم ملتح، وبعضهم غير ملتح، رجال ونساء من كل سن، ومن كل وسط، والألحان الجنائزية تعزف. لا شك أن جوقات عديدة تعزفها معاً. وفي القاعة المجاورة، لا أحد يتكلّم. كم من الوقت بقيت منتظراً؟ أحدهم إقترب منّي، وهمس: «تعال». فتح باباً، فانقذفت في وجهي الموسيقى الجنائزية كبحر غامر. أضواء لا تحصى ولا تتخيل. ثريات كبيرة من البلور، لم أرَ مثيلها سوى في الكرملين. وتحت تلك الأضواء يتدفّق سيل من البشر على مهل. كنا نتقدّم، وكان الآخر يمسك ذراعي، وكانت كروبسكايا أول من رأيت. كانت تقف أمام أكوام الزهور، فستانها مكويّ بعناية، وشعرها الرمادي الأملس مفصول بمفرق، وذراعاها إلى جانبيها. وكانت عيناها الغائمتان متسعتين ومثبتتين في نقطة، لا تميد. حيث كانت تنظر، رأيت لينين؛ وجبينه الشاحب، جبينه العريض مستدير كما الكون. لينين ممدّد على ظهره. مشبك اليدين على صدره. وعلى صدره وسام العلم الأحمر. عند طرفي التابوت، يقف الحرس. كان الشاب الذي أخذت مكانه في الحراسة من آسيا الوسطى، قال لي شيئاً، لم أجاوب. بيدي البندقية، وأنا واقف قرب لينين. أرى كروبسكايا، أرى جبين لينين. إلى اليسار، وإلى اليمين، يتدفّق سيل البشر بلا انقطاع. أغلبهم كفّ عن البكاء. الذين يصلون

أمام الجثمان، يتـوقفـون فجـأة، كما لـو أنهم يسيرون مغمضي العينين ويصطذمون بحاجز ما، ثم يتقدمون مدفوعين بضغط خفي من الآخرين، ويظلون منشدّين إلى الوراء - رغم أنهم لا يرون شيئاً - حتى اللحظـة التي يخرجـون فيهـا مـن القـاعـــة. أرى كروبسكايا، أرى جبين لينين. رأسه. بحارة يدلفون من الجهة اليسرى. هـم بحارة كـرونشتـات، قلـت في نفسي. ولـربما لم يكونوا من كرونشتات. لكني هكذا خمّنت: إنهم لا يلبسون معاطف. صدورهم عارية، ولا شك أن الثلج يندف، إذ ان أكتافهم ودراعاتهم، وشعر صدورهم يبيضها الثلج. كانوا رجالاً في سنّ الشباب. طوال القامة وأقـويـاء الأجسـام. يتقـدمـون مشدودي الصفوف. ولدى وصول آمـر فصيـل أمـام الجثمان، توقّف، وصاح: «آه، يا أمّي!» ثم وقع على الأرض. لم يحدث ذلك أي اضطراب. أنهض البحارة آمـرهـم، وواصلـوا السير بانتظام وعيونهم مغروروقة بالدمع. أما أنا، فلقد شعرت أنهم إنما يفارقون البحر، للأبد. حينها فقـط، لاحظـت أنهم ينهضـون الذين يغمى عليهم، ويخرجونهم. إنني ألمح رأس لينين، جبينه الواسع، وأسمع اللحـن الجنـائـزي. ولا يـزال السيـل البشري يتدفّق، ولكنه لم يعد يثير اهتمامي. إنني أنظر إلى لينين، وأحس الدموع تصعد إلى عيني. أنوشكا، هـل يحق لنـا البكـاء وقـت الحراسة؟ إني لا أبالي. أشعر بالرغبة في البكاء، لكن لا أقدر على ذلك. أما أنوشكا، فأنا لم أسألها عما فعلته في تلك الليلة.

عندي ضيوف. لقد جاؤوا من أطراف حياتي البعيدة. ابتسم أحمد: «لكن، كم عشت أنا حتى أقول: من أطراف حياتي البعيدة، قال في نفسه. إني لم أعش بعد سوى هامشاً قليلاً من الزمن». اليوم، لم يفكر بعد أنه ربما مات برصاصة إسماعيل. إنها رصاصاتي، وإنه مسدسي. لكن هو الذي سوف يطلق النار... أنوشكا، أيتها العزيزة، ماذا تراك تفعلين الآن؟ ماذا تراك تفعلين في اللحظة التي أقول فيها: «ماذا تفعلين يا حبيبتي؟» وفجأة، يعود صوت الموتور - بت- بت- بت- بعد أن نسيته. حين يسمع الإنسان دوماً نفس الأصوات، لا ينتهي بعدم سماعها، بل بنسيانها. وأنا سعيد لكوني أعود لألقاه من جديد، كما لو أني ألاقي إنساناً لم أره منذ زمن بعيد، وأستمع إليه مدة؛ ثم، أنساه، مرة أخرى.

عينا كريم العسليتان تحت حاجبيه الكثيفين الأسودين، ثم كريم كله.

نحن على جسر جالاتا في اسطمبول. السماء رمادية. الجو ممطر. لقد عدنا من موسكو، وبدأنا نبيع العدد الأول من «المطرقة والمنجل». كنا نزمع بيع الجريدة، كل بمفرده. أنا على الجسر، وكريم في شارع قاسم باشا، أمام أحواض الرادوب. لكن، لدى وصولنا الجسر، حيث كان كريم سيستقل المركب باتجاه شارع قاسم باشا، طلبت إليه أن يبقى معي:

- لماذا؟ هل أنت خائف؟

ـ خائف؟ وممّ أخاف؟ كلاّ، وإنما يبدو لي أنني عاجز عن أن أنادي: «المطرقة والمنجل! المطرقة والمنجل صدرت!».

ـ أتخجل؟

ـ نعم، قليلاً... أنا أبداً لم أبع شيئاً... في الشارع...

ـ وأنا إذاً؟ أتظن أننا باعة متجولون أبّاً عن جدّ في الأسرة؟

ـ تمهّل. لا تغضب... إني لا أعرف كيف يجب أن أنادي... لا أعرف إن كان صوتي مسموعاً أم أنه...

ـ إنك الأرستقراطي يا صاحبي، إبن باشا...

سحب كريم صحيفة من الحزمة التي يتأبطها. نفضها، وصاح:

ـ «المطرقة والمنجل»! آخر الأخبار!

لم يكن المارة يلتفتون إلينا. رذاذ خفيف بدأ يتساقط.

ـ «المطرقة والمنجل!» صدرت.

سحبت أنا أيضاً جريدة. كان كريم يقدّم الجريدة تحت أنوف المارة الذين يسرعون في مشيتهم هاربين من المطر.

ـ «المطرقة والمنجل!» «المطرقة والمنجل!».

لا أحد يهتم، سوى أولئك الذين ينظرون إلى ملابس كريم الذي لم يكن يبدو عليه أنه بائع جرائد. وربما كانوا لا يشتمونه لهذا السبب. «شكراً، كلاّ...» يقولون، ويمضون في سبيلهم.

ـ يا إلهي! ألا يمرّ سوى الأقذار على هذا الجسر؟ المطرقة

والمنجل! ألن نستطيع بيع عدد واحد على الأقل؟ لكن سترى، في قاسم باشا، سوف نبيعها مثلما يباع الخبز...

فجأة، ألمح شعار الجريدة: «يا عمال العالم اتحدوا!» وآخذ في الصياح بحدّة، كما لو أني أتألّم، حتى دهشت أنا نفسي من صياحي:

ـ يـا عمال العـالم اتّحـدوا! يـا عمال العـالم... المطـرقـة والمنجل... ـ أصيح كـأني أستغيـث ـ اتّحـدوا... المطـرقـة والمنجل...

ـ أعطني واحدة... سنرى كيف يتحد العمال.

أوشكت لفرحي ـ أن أقفز لأعانق الرجل الأشيب الذي طلب منّي جريدة. أعطيته إياها. «خذ يا ولدي». وآنئذ فقط، لاحظت أنه يمدّ إليّ النقود. أمّا هو، فضحك:

ـ عندما كنت شاباً في باريس، قال لي، كان الاشتراكيون يبيعون جريدتهم بهذه الطريقة أيضاً...

بعت ذاك اليوم على جسر جالاتا خمسة وأربعين عدداً من «المطرقة والمنجل». أما كريم، فقد باع في قاسم باشا مئتينْ وخمسة وعشرين...

كنا نتقدم نحو الساحة الحمراء ببطء. أمامنا، وخلفنا الملأ، الأعلام، الشعـارات، الصـور، الأنـاشيـد، ومجموعتنـا تغني بالتركية، «نشيـد أول أيـار». «أول أيـار، أول أيـار، أول رغبة!» والتحقت بنا أنوشكـا. علّمنـاهـا النشيـد، وأنشـدتـه

بالتركية معنا، وأنا أمسك بيدها. «ربما كنت تخاف أن تهرب؟» سألني كريم. «لا أدري. إني دوماً أخاف. أخاف أن أفقدها فجأة، أن أراها تطير، تذهب دخاناً...» - «هل تتكلّم بجدية أم تمزح؟» - «إنها الحقيقة». - «كنت أظنّ أن الناس لا يفكرون بهذه الطريقة سوى في الروايات...» أبطأنا السير، وتوقفنا تماماً. خلفنا كان القوقازيون. وعلى الفور، كوّنوا حلقة، وتقدّم أحدهم، وشرع يرقص، رقصة الشيخ شامل. إنه شاب من داغستان، وهو أوسم شباب الجامعة، يرقص. تركت أنوشكا يدي، وراحت تتفرّج عليه. تبعتها. كان الشاب يحاكي بحركاته الصلاة عند المسلمين. وذلك أن شامل كان قبل مقاتلته الجيش القيصري يؤدي الصلاة. إن هذه الحركات تحاكي ببطء شديد. ثم فجأة، يتغيَّر النغم، ويقفز شامل، وقد سحب خنجره. وعلى رؤوس أصابعه، يدور حول نفسه كخذروف، ويقاتل. كان الشاب سريعاً كالبرق. غير أن هذه الرقصة أمست لي بعد حين مضجرة. إنني أحترم شامل احتراماً كبيراً. بل وأحبّه. لكن القوقازيين، سواء كانوا من أذربيجان أو من أرمينيا، من جيورجيا، أو من الداغستان، لا يفوتون فرصة واحدة ليؤدوا تلك الرقصة، مع الصلاة والسجود، أو بدونها. وربما كانت هنالك فروقات صغيرة، لكني لا أنتبه إليها.

إلتحق بالراقص، شابان أو ثلاثة مع فتاة أو ربما فتاتين. كان الآخرون يصفّقون مصاحبينهم بالإيقاع. «هل تعجبك هذه

الرقصة؟ » ـ « نعم، قالت أنوشكا. يمكنني أن أتأمّلها لساعات، ولا أملّ أبداً... » ـ « تتأملين ماذا؟ الرقصة أم القوقازي؟ » ـ « إنك لست سوى قذر! وحتى إذا ما كان هو، ما هي أهمية ذلك؟ ».

استأنفنا السير. في الشوارع التي اعترضتنا، كانت هنالك مجموعات تنتظر أن تلتحق بالتظاهرة. « إنهم خبازونا! » صاح كريم. وفي شارع على اليسار، ها هم أبناء البحر الأسود، بسراويلهم السوداء الملتصقة بأبدانهم، وبرؤوسهم المحلوقة على نحو خاص، وبأعلامهم الحمراء، بعضها تحمل النجمة والهلال، وبعضها الآخر بدونها. كانوا قد كتبوا شعارات أول أيار بالتركية. وكانت « الأرتل » ـ وتعني بالروسية نقابات الخبازين اللازيين ـ لا حصر لها في موسكو. وكانت تعاونياتهم حديثة التأسيس. أما الصينيون، فلقد كانوا يشتغلون بغسل الثياب وكيّها. لكن الصّينيين ـ مثل الأتراك ـ كانوا يحافظون على جنسياتهم. وكان يمكنهم المشاركة في انتخابات السوفياتات. وقد ينتخبون. ولربما دخلوا النقابات. ولربما أصبحوا أعضاء في الحزب البلشفي. أنا مثلاً، أحمل الجنسية التركية، لكن لو ترشحت، لأمكن انتخابي حتى على رأس مجلس السوفيات الأعلى. لكم هذا جميل، يا إلهي! في مكان ما من العالم، يوجد بلد واسع، لا يسألونك فيه: « ما هو دينك؟ ما هو بلدك؟ ما هي جنسيتك؟ » كلاّ، بل يسألونك: « هل عشت من استغلال

الآخرين؟ هل كنت كاهناً أو شيخاً؟ هل عملت في شرطة البرجوازية أو في دركها؟» وإذا قلت: «لا»، فهم لا يبالون بجنسيتك مهما كانت، بل تصبح مواطناً من مواطني هذا البلد الواسع، كما لو أنك ولدت فيه وكبرت فيه. أليس هذا جميلاً يا أنوشكا؟ أليس هذا رائعاً؟ إنك تصل بلاداً تجهل لغتها، عاداتها، تقاليدها، ولا تشعر نفسك غريباً فيها... وإنه لمحزن أن يشعر الإنسان بغربته في مكان ما... أنا لم يحدث لي ذلك. لكن، في بيتنا الإسطمبولي الذي على ضفاف البحر، كان هنالك بستاني ألباني يعيش في اسطمبول... وحده الله يعلم عدد السنين. «إنه لبلد جميل جداً، كان يقول دوماً، ليحفظه الله لكم، لكنه بالقياس إلى بلد الهجرة. وإني لأتوجس الموت بعيداً عن وطني...».

ضجيج مفاجىء. فوضى في الصفوف التي أمامنا، حيث الطلاب اليابانيون. ضجيج جميل باليابانية. لكن، وقبل أن يتسنّى لنا فهم أي شيء، عاد اليابانيون للانتظام في صفوفهم. كان اليابانيون قد تعرّفوا على رجل من البوليس السياسي الياباني، وهو يصوّرهم خفية. ولما كان أغلبهم قد جاء سرّاً إلى موسكو، فقد ارتموا على القذر، وشرعوا يحطّمون آلته شرّ تحطيم. ثم فعلوا به ما فعلوا بها على بدا لي، وربما تركوه، بعد أن غيّروا ملامحه. سألنا بتروسيان، فقال لنا إنهم ضربوه فقط. لكن بسمة غريبة كانت تشعّ في عينيه. واستأنفنا التقدّم نحو

الساحة الحمراء ببطء، وإلى جانبنا، يتقدّم عمال موسكو - عاملاتها، وموظفوها، وعلى أكتافهم الأطفال، حاملين رايات أحيائهم، وشعارات مصانعهم ومؤسساتهم. وهم الذين حوّلوا سنة ١٩١٧، موسكو البيضاء - موسكو القياصرة والتجار - إلى موسكو اليوم، الحمراء. عند أسوار الكرملين، وفي الساحة الحمراء، كنت أمسك بيد أنوشكا.

ابتسم أحمد بحزن. إنه يتذكَّر: في كل مناسبة أنّه كان يمسك بيد أنوشكا؛ وكان يفكّر فيها بلا انقطاع.

إنتبه فجأة إلى مرور وقت الغداء. الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. سوف يأكل اليوم شيئاً ساخناً. وهو ما لم يفعله منذ مدة. سوف يأكل فاصولياء جافة، مع بهار كثير.

ذلك اليوم، رجع إسماعيل متأخراً. وضع الجرائد فوق ملابس أحمد الملقية كالعادة على الكرسي، وراح ينصت إلى هدير المحرّك.

- لقد أصلحوا المكبس...

وفيما هو يخلع ثيابه، تمتم أحمد كلمات. وكان يحلم.

ثلاث سنوات، بعد ذلك، أي في ١٩٢٨، أوقفوا إسماعيل لأول مرة، وحوكم في إزمير. ومنها أرسل إلى سجن ديار بكر، حيث قضى عامين. وفي ١٩٣١، أوقف من جديد، وحوكم، وأرسل إلى سجن بورصة. وهناك تعرّف إلى ناريمان سنة ١٩٣٢، من وراء شبك قاعة المقابلات. كانت ناريمان قادمة من

اسطمبول لزيارة أخيها عثمان ـ موظف البنك المسجون بتهمة اختلاس أموال ـ كان إسماعيل يتحدّث مع أمّه الواقفة قرب الفتاة، وكان عليه أن يصيح كيما يسمع، إذ كانت القاعة ملأى بالناس، وكان الجميع يصرخون.

وأشار عثمان بك إلى ناريمان قائلاً لإسماعيل:

ـ إنها أختي.

إبتسمت ناريمان. كانت عيناها سوداوان. وكان فيهما شيء طفولي. حياها إسماعيل بيده.

ـ لقد جئنا من اسطمبول في نفس المركب، صاحت أم إسماعيل بأعلى صوتها. وقد أعانتني الآنسة في الحافلة. الله يحفظها!

إبتسمت ناريمان.

ـ شكراً جزيلاً يا آنسة ناريمان، صاح أحمد.

ـ نحن في نفس الفندق وفي نفس الحجرة... أنا والآنسة...

إبتسم أحمد لناريمان.

ـ سوف أطلب من المدير أن يسمح لنا بالتقابل في حجرة رئيس الحراس، صاح عثمان بك.

وحتى آخر الزيارة، كان إسماعيل وناريمان يتبادلان النظرات الجانبية عبر الشبك.

كان عثمان وإسماعيل ينامان في نفس الغرفة. تقاسما الطعام الذي أتت به ناريمان وأمّ إسماعيل. راحة حلقوم بالفستق ـ من

عند الحاج بكر ـ مقانق وباذنجان محشو بالزيت، أحضرتها أمّ إسماعيل. وفي ذلك المساء، وفيما كان عثمان بك يلتهم الباذنجان المحشو، شرع فجأة يتحدّث عن أحمد:

ـ أحمد يحبّ الأطعمة الجيدة... ـ واختلق عثمان حكايته، إذ لم يكن يعلم أن إسماعيل يعرف أحمد ـ لم يكن في بولو تلك الأيام حتى مطعم واحد، ولا أي مكان يمكن أن نأكل فيه. وكان أحمد يردّد بلا انقطاع: «ورغم ذلك، فالطباخون الآتون من بولو، يعتبرون في اسطمبول من أجود الطهاة في العالم». وكان يحتجّ. وذات مساء، في حجرتنا بالفندق الذي فوق الإسطبل، كانت محكمتنا قد قضت بسجن آغا من آغات الريف لمدة عشرة أعوام. وفاجأتهم بأن قدمت لهم أوراق عنب محشوة بالزيت، كنت قد أعددتها بنفسي في النهار. وكاد يوسف وأحمد يغمى عليهما من السرور...

كان إسماعيل يشعر بالحزن وهو يستمع إلى ذكريات بولو من عثمان. هذه الذكريات التي حدّثه عنها أحمد قبل ذلك، ـ يشعر بحزن لا يمكنه تفسيره.

وبعد ستة أيام، أمكنهم أن يتقابلوا في حجرة رئيس الحرس. كان عثمان بك قد غيّر بعض الأرقام في حسابات السجن ـ لصالح المدير ـ وأعطى رئيس الحرس نصف راحة الحلقوم.

الحجرة مؤثّثة بسرير حديدي يكسوه غطاء مماثل لأغطية

السجناء. وهناك طاولـة فـوقهـا مشمّـع ممزّق وملطّـخ بـالحبر البنفسجي، وثلاثة كراسٍ.

جلست ناريمان وأمّ إسماعيل على كرسيّين، واقتعد إسماعيل وعثمان بك السرير. سمحوا لهم بالالتقاء ساعة. وراح عثمان بك يتحدّث عن ذكرياته: «عندما كنت في ألمانيـا، وبـالـذات في برلين، ذات مساء، كان الإسبارتاكيون...» وطلب من أخته أن تخبره بما استجدّ في شغلها ـ كانت تعمل معلّمة في مدرسة ابتدائيـة في اسطمبـول ـ وأخـذ يثني على إسماعيـل: «هـؤلاء الشيوعيون... أعرفهم منذ فترة طويلة، قال لأمّ إسماعيل. أنا أيضاً كنت في يوم ما شيوعياً قليلاً. إنهم طيبون، ولكن صبراً. سـوف تـريـن يـا خـالـة... إن النصر سيكـون حليفهـم في النهاية...».

ناريمان لا تتكلّم كثيراً. صوتها خفيض، لا يناسق عينيها اللتين لم تفقدا بعد نظرتها الطفولية. أما عثمان بك، فقد نال إعجاب أمّ إسماعيل. ولم يتبادل إسماعيل وناريمان كلمة واحدة.

عادت ناريمان بعد شهرين لتمكث يوماً واحداً. فاستدعى عثمان بك إسماعيل ليراها في قاعة المقابلات. كانا يصيحان وهما يتحادثان. سألته ناريمان عن أمّه وأخبارها، وحدّثها إسماعيل عن إمتحانات المدرسة، وأعلن عثمان بك أن عفواً عاماً سوف يشمل عدداً من المساجين بمناسبة الذكرى العاشرة لإعلان الجمهورية.

ـ إذن، لا بدّ أن تأتي لزيارتنا في اسطمبول يا إسماعيل.

ناريمان، ها أنت تلقين أخاً آخر...

ـ ألن تذهب للإقامة عند أمّك في مانيسا؟ سألت ناريمان إسماعيل.

ـ سأذهب لرؤيتها بالتأكيد. لكني سأقيم في اسطمبول...

تلك الليلة، حلم إسماعيل بناريمان. إن السجين يحلم على الدوام بالنساء. وأحياناً يحلم بأبشعهنّ. وأحياناً، لا يكون لهنّ شعر ولا وجه. والحلم لا يكتمل. قد يرغب الإنسان في ذلك، لكن الرغبة لا تتحقّق... وحلم إسماعيل بناريمان لم يكتمل أيضاً. كانت ببساطة قد تأبطت ذراعه. وبخطى عملاقة، بخطى رياضية، راحا يذرعان قاعة المقابلات، كما لو أنهما يطيران، دون أن يضعا أقدامهما على الأرض...

وحين خرج إسماعيل من السجن بعد العفو، سنة ١٩٣٣، ذهب ليزور أمّه في مانيسا. ولدى رجوعه إلى اسطمبول، ومع كل ما كان يقتضيه منه نشاطه النضالي، من حضور اجتماعات الخلية الحزبية، ولصق المناشير على الجدران في الليل. والبحث عن عمل، وغير ذلك، لم يكن يجد دقيقة فراغ، ولم يتمكّن من الذهاب عند عثمان بك ـ الذي كان يسكن كاديكي ـ سوى مرة واحدة. كان منزله في الطابق الأرضي من عمارة حجرية، تقع في إحدى الأزقّة القريبة من سينما الثريا. البيت صامت. الشوارع خالية. إنها ساعة القيلولة. نسيم دافىء يتلاعب بالستائر الشفافة المنسوجة من قماش التول. كانت ناريمان تلبس فستاناً ذا

أكمام قصيرة. جلسا صامتين. وتذكّر إسماعيل حلمه. نظر إلى ذراعيْ الفتاة. مستديرتين وسمراوين. يكسوهما زغب بلون الذهب رغب في لمسهما...

ـ ألا تقول شيئاً يا إسماعيل بك؟

ـ في الحقيقة، ليس لديّ ما أقوله... تحدّثي أنت بالأحرى.

ـ كيف حال أمّك؟

ـ إنها بخير، شكراً. وعثمان بك؟ هل أعماله على ما يرام؟

ـ أفترض ذلك... أنا لا أفهم الشيء الكثير فيها. ثم إنني ـ على العموم ـ لا أسأله. ليس للنساء أن يتدخّلن في أعمال الرجال...

ـ يا للفكرة الغريبة! ألست تعملين مثل الرجل، أنت بالذات؟ ألا تكدحين من أجل العيش؟

ـ نعم، ولكن مع ذلك... المرأة إمرأة، حتى لو كانت هي التي تعيل البيت.

طفق إسماعيل يتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة. المسألة هي في تحرّر المرأة، المرأة الكادحة، ليس فقط من عبودية رأس المال، بل وأيضاً من عبودية المطبخ، والغسيل... وكانت ناريمان تصغي إليه وقد امتزج في عينيها ـ تينك اللتين لم تفقدا بعد نظرتها الطفولية ـ الإعجاب بالمفاجأة. غير أنه لم يتوصّل إلى إقناعها.

بعدها بشهر، اعتقل إسماعيل مرة أخرى، وقضى ثمانية أشهر في مقصورات «سجن سلطان أحمد». و«المقصورات» عبارة عن زنازن إسمنتية الأرض، لها نوافذ ضيقة، تنتهي إلى رواق محصور. وهي معزولة تماماً عن سائر زنازن المبنى. و«المقصورات» تقع في طابقين، أولها مخصص للشيوعيين. إنه يوم الزيارة. كان إسماعيل وكريم يتحدثان عن أحمد. وذكر كريم اليوم الذي باع فيه «المطرقة والمنجل» على جسر جالاتا مع أحمد. كان ذلك في سنة ١٩٢٥.

ـ حدثني بالأحرى عن الفتاة التي كنت وإياها متفقين تماماً، في موسكو، إلاّ أنها لم تستطع أن تجعلك تقول لها: أحبّك. حكّ كريم أنفه:

ـ ذلك أنني كنت أكره الكذب... ـ وسحب نفساً من سيجارته ـ والسجائر أيضاً... أما الآن، فلقد اعتدت التدخين والكذب.

ـ إذن، أعطني سيجارة...

فتّش كريم في جيوبه، وأخرج ثلاث سجائر، قدّم واحدة منها لإسماعيل، الذي كسرها، ووضع نصفها في مبسمه الخشبي الطويل:

ـ إستجداء السجائر أسوأ ما يمكن أن يستجدى، هذا ما كان يقوله ضياء.

ـ لقد كان على حق.

ثم راح إسماعيل يصفّر، والمبسم بين أسنانه، لحن نشيد الذكرى العاشرة للجمهورية. ثم نزع المبسم من فمه:

ـ أتعرف يا صاحبي أن مطلع هذا النشيد كان في الأصل هكذا: «في عشر سنوات خمسة عشر مليون شجاع ولدوا...» لكن الناس غيروها فأصبحت: «في عشر سنوات خمسة عشر مليونيراً ولدوا...» مما استوجب حذف الملايين. فصارت تنشد: «جيل من الشجعان ولدوا في عشر سنوات...».

وردّد كريم: «في عشر سنوات ولد خمسة عشر مليونيراً...»

ـ منذ وقت طويل فقد القادة ثوريتهم، في هذه البلاد، كان أحمد يردّد بلا انقطاع. بل وكان يعطي رقماً لذلك، وهو ٨٠ بالمئة...

ـ لا أعرف إن كان ٨٠ أو ٩٠ بالمئة؛ المهم أنهم قتلوا الصوفي ورفاقه، ولم يحلّوا مشكلة الإقطاع. إنهم يرتعبون من رؤية العمال يتنظمون... ماذا بقي؟ أن يتحالفوا مع الإمبريالية؟

ـ وهذا ما سوف يفعلونه يا صاحبي، سترى ذلك...

ـ ماذا بقي من الثورة؟ الأبجدية اللاتينية، منع الطربوش، والقانون المدني، وفصل الدين عن الدولة...

ـ لقد عادوا في الجيش إلى فرض قراءة القرآن...

ـ أما الشيوخ الذين كانوا يمتدحون السلطان سابقاً، وكان

ذلك يعتبر جريمة، فقد أصبحوا الآن يكيلون المديح لحزب الشعب على المنابر. وهذا ما يخدم مصالح الآخرين طبعاً...

وارتفعت صيحة المنادي، ففرّت الحمائم من فناء السجن.

ـ إسماعيل! إلى قاعة المقابلات! لديك زيارة!

تساءل إسماعيل عمّن يمكن أن يكون الزائر. وفكّر بكل معارفه ما عدا ناريمان.

ـ ناريمان! إنها لمفاجأة!

ـ أخي يبلغك تحياته. لقد ذهب إلى أنقرة في بعض أعماله.

ـ شكراً لك على هذه الزيارة. إنني حقاً لا أجد ما أقول... وأنا الذي لم أزركم سوى مرة واحدة... إني مسرور حقاً يا صاحبي... أوه! كم أنا مجنون! معذرة يا ناريمان. يا لهذه العادة التي تجعلني أخاطب الجميع بـ : يا صاحبي!...

لم يكن في قاعة المقابلات العديد من الناس. وهكذا تسنى لهما أن يتحدثا بدون صراخ وبدون زحام.

ـ أتعرفين أن الشرطة تسجل أسماء جميع من يأتون لزيارتنا؟ قال إسماعيل فجأة.

ـ ليس لذلك أهمية... إذ إنني بعيدة عن السياسة...

ذاك المساء، حين أعطى إسماعيل راحة الحلقوم التي جلبتها ناريمان ـ من عند الحاج بكر ـ للكومونة ـ كان الشيوعيون قد كوّنوا في السجن ما سمّوه «كُومُونة»، بحيث يقاسمون معاً، الأكل، والسجائر، والمال، وحتى الحساء اليومي ـ كان إسماعيل

يشعر باعتزاز كما لو أن ما قدّمه سيغبط رفاقه، الغبطة كلها.

وغداة خروجه من السجن، توجه إسماعيل إلى حيث تقطن ناريمان، ولم يجدها هناك. فراح مع عثمان بك إلى دكان الحلويات الذي يقع على مفترق الطرق:

ـ عثمان بك، هل أنت... ربما كنت متضايقاً من صداقتنا.

ـ ولم أتضايق؟ ـ فكّر عثمان بك لحظة: ـ إسمع، لقد كان ذلك في عام ١٩٢٤ أو ٢٥.. لست أدري. إلتقيت أحمد ذات يوم، فتجاهلته... لكن في ذلك الوقت كنت موظفاً... في البنك الزراعي... أما الآن، فإني مستقلّ...

على خليج كالاميش، قبّل إسماعيل ناريمان لأول مرة. كان القمر ساطعاً بروعة، وصفحة البحر هادئة. وكان إسماعيل قد استأجر قارباً من رصيف موضة. وفي كازينو كالاميش، كان الناس يرقصون على أنغام الموسيقى. والبحر زاخر بالقوارب، وإسماعيل يجذف بقوة، وهما يتباعدان باتجاه فينير باختش. ضوء المنارة يختلج بلا انقطاع: سفينة تعبر بعيداً، متلألئة الأنوار، متجهة نحو الجزر. نحو أي ميناء يتجه هذا المركب ذو المئة صارية؟ ترك إسماعيل المجذافين، واقترب من ناريمان في طرف القارب:

ـ هل يمكن أن أقبّلك... يا صاحبي؟

لم تجاوب ناريمان.

ـ سوف تقولين إن الاستئذان في هذه الأشياء نافل...

قبّلها. تمايل القارب بهدوء. كان ذلك بسبب الأمواج التي أثارها مرور السفينة الذاهبة إلى الجزر.

ـ الحياة جميلة، أليس كذلك يا صاحبي؟...

ردّدت ناريمان وهي تخفّض صوتها بجدية:

ـ الحياة جميلة. نعم، يا صاحبي...

اعتقل إسماعيل مرة أخرى فيما بعد، وأمضى عشرة أشهر في مديرية الشرطة. كانت ناريمان تأتيه بالطعام كل يوم، ولم يكونوا يسمحون لها بمقابلته.

ـ أهو قريب لك؟

ـ هو خطيبي...

ودامت قضية إسماعيل عاماً ونصفاً. وكانت ناريمان تذهب لرؤيته كل يوم في سجنه. وحين مثل أمام المحكمة، كانت هنالك أيضاً ـ أول يوم، وآخر يوم، لدى قراءة نص الحكم. أما الأيام الأخرى، فقد كانت الاستجوابات معزولة عن الجمهور، كالعادة.

خرج إسماعيل من السجن. كان يلتقي ناريمان كل يوم أحد. يقبّلها. لكن لا شيء سوى ذلك. كان يحاول استثارة اهتمامها بالسياسة، والشيوعية، دون جدوى. فهي لم تكن تصغي إليه بانتباه، إلاّ حين يحدّثها عن حياة كبار الثوريّين. ما تعلّمه هو نفسه من الرفاق العائدين من موسكو، وما قرأه بجهد في الكتب المؤلفة بالروسية. ـ فقد كان في السجن يدرس الماركسية ويتعلّم

اللغة الروسية ـ وخاصة حياة النساء الثوريات. وكروبسكايا...

ـ يا لها من إمرأة مخلصة! لقد كرّست حياتها بأكملها لرفيقها...

ـ الأمر لا يتعلّق بالإخلاص، يا صاحبي. إنما هي كرّست حياتها للثورة...

ـ طبعاً يا إسماعيل، لكنها أخلصت له مع ذلك. لقد كانت بمثابة الرفيقة، والأمّ، والزوجة، لكنه الحبّ أيضاً...

لم يعثر إسماعيل على عمل دائم. البوليس يضايقه باستمرار. وهو يعيش من العمل في ورش صغيرة. وحين حصل على شغل في مصنع، لم يقض فيه سوى أسبوعاً، طرد على أثره بسبب تدخل البوليس.

ـ ألا تريدين أن تجدي نفسك في نفس هذه اللحظة على ظهر تلك السفينة يا ناريمان؟

كانا يجلسان تحت صنوبرة على هضبة أمريغيان. البوسفور يمتدّ تحت أقدامها، راسماً تعرّجات تضيق وتتسع. باخرة سوداء، ذات مدخنة واحدة، تعبر المضيق باتجاه قلعة الأناضول، والماء يزبد تحت مروحتها.

ـ تلك السفينة؟ لا... إلى أين تتجه؟

ـ ومن يدري؟... ربما إلى أوديسا. ألا تريدين الذهاب إلى أوديسا؟

ـ بلى، إذا كان السفر معك. لكن أحبّ مكان في العالم،

عندي، هو ... هنا... تحت هذه الصنوبرة...

ـ لو ظهرت لك جنية فجأة، وطلبت منك التعبير عن أمنية...

ـ أمنية؟ إنتظر... لن أكون مفرطة جداً في طلبي... هنالك شيء أو شيئان أتمناهما... سوف أقول في البداية: «أريد ألاّ يعود إسماعيل إلى السجن أبداً... أبداً... ثم، أريد أن يكون لي بيت، وسط حديقة صغيرة، على هذه الهضبة. بيت صغير لطيف... لن أطلب الثراء... أما عن الصحة، فأنت تتمتع بصحة جيدة، وأنا...

ـ أنت تفيضين بالصحة...

ـ نعم، إذاً، هذا كل شيء...

ـ نعم، إنها ببساطة أمنيات برجوازية صغيرة.

ـ إنك تؤاخذني منذ شهور عديدة على جانبي البرجوازي الصغير يا إسماعيل... لكنني هكذا!...

ـ لا تغضبي...

ـ لست غاضبة...

ـ حسناً، ولكن، إذا ما كان الناس فيما وراء جدران حديقتك الصغيرة يموتون جوعاً، ويكدحون ويتألمون، ألا يهمك ذلك؟

ـ ولِمَ لا يهمني؟ لو استطعت لطلبت من الجنية أن يكون لكلّ واحد من الآخرين بيت صغير بستائر خضراء... وألاّ

يجوع أحد... وألاّ يضطر أحد للقيام بأعمال مضنية...

ـ لا يوجد جنّ يا ناريمان. نحن هم الجن، نحن. الطبقة العاملة عبر العالم بأسره. سوف نبعث إلى الوجود عالماً حرّاً، بلا طبقات، بلا حدود. عالم يكون فيه كل الناس إخوة.

ـ أنت من يتحدث عن الجن، ثم تغتاظ...

ـ إني لا أغتاظ... إنه ما يسمّى بالصّراع الطبقي يا صاحبي... وهو ما سيرجعنا بالضرورة إلى السجن...

ـ أأنت مضطّر لدخول السجن في كل حين حتّى تتحقق الأمنية!

لم يجاوب إسماعيل. وراح يدندن نشيده الأثير:

الرفاق في الزنازن

بين أربعة جدران حجرية

لم يعودوا في صفوفنا

لكن ها هو اليوم الأحمر يأتي

فهيّء سلاحك

وانهض إلى هدفك أيها العامل وقاتل

إنهض إلى هدفك

وإلى نضال الكادحين...

أشعل إسماعيل سيجارة، وأحمد يغمغم في حلمه. ماذا تراه يقول؟ أصاخ إسماعيل السمع. غمغمة لا تفهم. تناول الصحيفة. كانت صادرة في اسطمبول، سنة ١٩٢٥. أعاد قراءة الخبر في

الصفحة الثانية، وأرجع الصحيفة إلى موضعها. نفخ على المصباح، أطفأه، ونام.

في شتاء ١٩٣٨، اعتقل إسماعيل من جديد، وأرسل إلى السجن العسكري بأنقرة، حيث طبّق عليه نظام السرّ في الزنزانة. السرّ، هو زنزانة مبنية بنافذة واحدة عليها قضبان، وليس لها زجاج. حين يندف الثلج يتساقط فيها. أرضها إسمنتية، وهي لا تحوي مضجعاً. لم يعطوه حتى الغطاء، أولئك الأوغاد. كان إسماعيل يتمشّى جيئة وذهاباً على طول الزنزانة وعرضها. إنه ليتذكّر تلك الليلة منذ ثلاث عشرة سنة في كوخ إزمير. تلك الليلة حيث كان الغطاء الخشن يحز ذقنه، وحيث لم يتمكن أحد من إطفاء القنديل.

حوكم إسماعيل في أنقرة، وأرسل إلى اسطمبول، حيث أمكنه أن يرى ناريمان.

ـ إنهم بالتأكيد لن يبقوني هنا. سوف يرسلون بي إلى مكان ما... ومن يعلم أين...

تمالكت ناريمان دموعها. وحاولت جاهدة الابتسام:

ـ تحدّثت إلى محام. يبدو أنه بإمكاننا الزواج حتّى وإن كنت في السجن. فلنتزوج يا صاحبي. فإذا كنت زوجتك، تيسّرت الزيارة، وسأذهب لأراك أينما كنت. ربما منعوني عن التدريس لكن سوف أشتغل بالخياطة. وسيكفينا ذلك للعيش.

بعد ذلك بشهر، جاء ثلاثة بحّارة في الفجر، يصحبهم ضابطا

صف وضابط بحري، ليأخذوا إسماعيل. ودون أن يقدّموا له أدنى شرح، أركبوه ـ مقيّد اليدين ـ زورقاً عسكرياً، ونقلوه إلى «الأركين» في عرض الجزر. وفي الطريق كان إسماعيل يتساءل عن سر هذا النقل المفاجىء. وفجأة، تذكّر فرحات، وهو ضابط صف في البحرية. طيب، ولكنه لا يعرفه جيداً. انهما يتبادلان التحية حين يتلاقيان، ليس إلاّ. وربما اجتمعا مرة أو مرتين على نفس الطاولة في أحد البارات مع بعض الأصحاب، لا أكثر.

وفي «الأركين»، حبسوا إسماعيل أول الأمر في المراحيض. كانت النوافذ مغلقة، والأرض مغرقة بخمسة وعشرين سنتيمتراً من البول تطفح فوقه القذارات. عفونة وحرارة لا تطاق... بقي إسماعيل واقفاً، لوقت طويل. إنه يصفّر لحناً. وقع نظره على النافذة التي في الباب. لمح رأس ضابط. غاب الرأس. رأس آخر. «يراقبونني ليروا ما سأفعل. الأوغاد...» جلس وسط القذارات، أشعل سيجارة، وراح يغني. لكنه يتساءل دوماً: «لماذا اقتادوني إلى هذا المكان؟» وفي المساء، أخرجوه من المراحيض، ورافقه جنديان مسلحان ومعهما ضابط صف، ليهبطوا سلالم حديدية ضيقة، منتقلين من سلّم إلى آخر. فتح باب حديدي، ودفع إسماعيل في الظلام. أغلق الباب. تقدّم متلمّساً طريقه، ويداه تصطدمان بحبال، ومرافع، وبراميل. عرف أنه محبوس في أحد الأقبية. الحرارة لا تحتمل... خلع

قميصه، فبنطاله. لم يبق سوى سرواله الداخلي. لكن العرق لا ينقطع. جسمه ينز باستمرار. جلس على كوْمة حبال. اعتادت عيناه الظلمة. نام.

- إنهض والبس ثيابك.

مبهوراً بالفانوس الكهربائي الموجه إلى عينيه، أدار رأسه:

- إنهض، وارتد ثيابك.

انتقل ضوء الفانوس اليدوي من الحبال، إلى المرافع، إلى البراميل، إلى الخردة الحديدية الملقية في القبو. لمح إسماعيل الضابط ذا الزي الأبيض الذي يمسك بالفانوس، واقفاً قرب الباب خلفه، جنديان، يقفان في الرواق الضيّق ذي الجدران التي تغطيها أنابيب حديدية لا تعدّ. كان الرواق غاطساً في الضوء الأصفر المنبعث من المصابيح الكهربائية. هل هو الليل أم النهار؟ هذه المصابيح كانت موقدة حين اقتادوه إلى هنا. لبس ثيابه.

- تقدّم.

صعدوا السلّم الحديديّ الضيّق. كان إسماعيل يسبقهم، ووراء الضابط يتبعها الجنديان. هدير المحرّكات يرجرج السفينة بهدوء. «ها نحن نستأنف الطريق»، قال إسماعيل لنفسه.

- إلى اليسار.

ثم دخلوا إلى مصطبة ضيّقة ومشعّة، حيث تمرّ من كل مكان - من أعلى ومن أسفل، من اليمين ومن اليسار - أنابيب وخيوط

كهربائية. ودلف إسماعيل إلى اليسار، وراح يصعد درجاً. «سوف يستجوبونني. لكن لماذا؟ عمَّ سيسألونني؟ ماذا يريد هؤلاء الأقذار؟»

إرتقوا الجسر. الليل رطب.

ـ تقدّم إلى الأمام، ولا تلتفت...

لا أحد أمام إسماعيل. ما من شيء سوى الليل والنجوم. الجسر مقفر. هدير المحرّكات يرخّم ضجة البحر. بحر لا حدّ له يمنح بياض زبده لليّل. «الأركين» يتقدّم ببطء. «لا أحد يعلم أنني هنا، قال إسماعيل في سريرته. ولكن لا. المفروض أنهم وقّعوا الدفتر حين أخذوني من السجن... حسناً، ولكن إلى أين ترانا نتجه الآن؟ أأنا خائف؟ لا، ليس بعد...»

ـ تقدّم، ولا تلتفت.

ما من مكان بقي للتقدّم. خطوتان ويصل إلى درابزين السفينة.

ـ قف.

توقف. سمع خلفه تلقيم البارودة. تذكّر فجأة مصطفى الصوفي ورفاقه. «سوف يطاقون عليّ من الخلف ويقذفون بي إلى الماء. طيّب، ولكن لماذا؟ إن كانوا يريدون قتلي فهناك طرق أبسط... ثم، ما السبب الذي يدفعهم إلى التخلّص مني بهذه السرعة؟ ـ كان يفكّر بكلّ هذا دفعة واحدة، ودون نظام يربط بين أفكاره. يجب أن أرتمي على هؤلاء القذرين ـ». التفت،

رأى حربتين وفوهتي بندقيتين موجهتين إليه. رأى بياض زي الضابط. وصل ضابط آخر، وهمس بشيء ما في أذن الأول.

ـ تقدّم، قال الضابط لإسماعيل.

نزلوا نفس الدرج. دخل إسماعيل القبو الحالك. خلع ثيابه، واضطّجع على الحبـال. «لماذا اصطنعـوا هـذه المهـزلـة؟ لماذا اقتادوني إلى هنا؟»

حلم إسماعيل تلك الليلة. كان وناريمان على متن مركب باسطاً أشرعته التي لا تعدّ للريح. كان وإياها في الطرف الخلفي منه. وكانت الأشرعة منتفخة بالريح حتى أن المركب يكاد يطير. وكان الممسك بالدّفة ـ التي لم تكن دفة بل شيئاً كالخزانة الضخمة ـ خير الدين بربروس، ذا اللحية الحمراء.

ـ لماذا لحيتك هكذا حمراء؟ سألته ناريمان.

ـ يجدر بك أن تنظري إلى لحية زوجك، أجابها بربروس.

كانت لحية إسماعيل خضراء متدلّية حتى السّرة. كان وناريمان مستلقيين على الظهر، وسط أعشاب طويلة خضراء لم تجزّ منذ زمن. كانا على ضفاف البوسفور. لكن لا يعلم إسماعيل في أيّ مكان بالضبط. كانا ينظران إلى سحب بيضاء كبيرة تعبر السماء. مدّ إسماعيل يده، فلمس كأنما صدفة، صدر ناريمان.

ـ ماذا تفعل؟ قالت ناريمان.

ـ لكن، ألست زوجك؟

ـ نحن لم نتزوج بعد.

ـ لماذا ؟

ـ لأن فستان الزواج لم يحضر بعد .

ـ ومتى يحضر ؟

ـ غداً .

ـ إننا نتجه إلى أوديسا ـ قال بربروس ـ إذا لم تهدأ الريح .

ـ أنا لن أذهب إلى أوديسا ، قالت ناريمان .

ـ سوف أقدّمك إلى كروبسكايا ، قال إسماعيل .

ـ لكن كروبسكايا ماتت . . .

ـ ولِمَ تكون قد ماتت ؟ قال إسماعيل . لكنه أدرك حينها أنه لا يعرف إن كانت قد ماتت أم لا .

كان عثمان بك ، مع أحمد ويوسف ـ ولم يكن إسماعيل يرى وجه يوسف ـ في غرفتهم فوق الإسطبل ، بين البغال التي لا تني تحرك جلاجلها ونواقيسها ، محكمة .

ـ هذا المساء أنت تعوضني في النيابة العامة . قال أحمد لإسماعيل .

طالب إسماعيل بحبس الضابط ذي الزي الأبيض خمس سنوات .

ـ إنك بلا رحمة ! قالت ناريمان .

ـ ماذا تعنين بالرحمة ؟ صاح إسماعيل .

أجهشت ناريمان . أخذها إسماعيل بين ذراعيه . قبّلها . صاح الضابط الذي يمسك المصباح اليدوي :

ـ كفاية! أطلقوا النار!

اجتازت الرصاصات ظهر إسماعيل. خرجت من صدره. انتثرت مطرطقة على الجسر. انتفض إسماعيل، واستيقظ.

أخرجوه ليلتين متتاليتين للسير على جسر «الأركين». ثم مثل أمام قاضي التحقيق في قاعة الضباط. كانوا قد وجدوا ـ إثر تفتيش قاموا به في خزانات ضباط الصف والبحارة ـ كتب شاعر شيوعي، ـ هي بأية حال تباع في المكتبات. ومن بين الذين اكتشفوا عندهم الكتاب، فرحات، الذي احتج قائلاً: «إنه ليس كتابي، أحدهم وضعه في خزانتي دون أن ألاحظه...» وحين استجوبوه، انتهى بالاعتراف. قال إنه يعرف شيوعياً يدعى إسماعيل. علم إسماعيل بكل هذا عندما قرأوا عليه محضر الاتهام. لم يكن لديه ما يقول للمحقق. وهذا الأخير لم يكن ليهتم بأية حال. كان رجلاً قصير القامة، شغوفاً بالراديو. ولما كان يعلم ـ من تقارير الشرطة ـ أن إسماعيل اشتغل قبل إيقافه في ورشة تصليح أجهزة الإذاعة، حدّثه عن جهازه. وكان من شأن هذا الاهتمام المشترك أن يقارب بينهما. وهكذا أمر المحقّق بإخراج إسماعيل من القبو وحبسه في قمرية ضابط صف.

ـ لماذا قادوني على الجسر ليلاً؟ سأله إسماعيل ذات يوم، كما لو أنهم سيطلقون عليّ النار من الخلف ليقذفوا بي إلى الماء بعد ذلك.

ـ لأن رئيس الأركان البحرية قرأ عن هذه الطريقة... في

كتب ألمانية. إنها ما يسمى بـأسلـوب الضغـط النفسي. ولقـد نصحتهم لدى مجيئي بالتخلّي عن هذه الأساليب. شرحت لهم أننا لسنا بحاجة إليها في بلادنا...

إلتأمت جلسة المحكمة في صالون السفينة الكبير. وفي اليوم الذي أعلنوا فيه الحكم، كانوا قد وضعوا ثلاثة صفوف من الكراسي بين القضاة والمتهمين، خـوفـاً مـن أن يـرتمي هـؤلاء عليهم، بلا شك. قبل ذلك، كان المحقّق قد التقى إسماعيل مرة أخيرة:

ـ إسماعيل، قال له، وهو يستاك أسنانه الشـديـدة البيـاض بقلمه. إسماعيل، لا بدّ أنك لاحظت كوني لم أسألك إن كنت قد كوّنت بالفعل خلية مع فرحات، أم لم تفعل. وعلى العموم، أنا واثق من براءتك. لكن المشكلة ليست هنا. نحن مقدمون على حرب إلى جانب الألمان. سوف ننتزع الموصل من الإنجليز، وباتوم من الروس، وحلب من الفرنسيين، أتفهم؟ وهذا كله يستوجب تطهيراً كبيراً. إذاً، نبدأ بكم أنتم، وننتهي بدعاة التحالف مع الإنجليز. وأنت قد تجد نفسك ذات يوم في السجن مع عصمت باشا...

أبداً، لم يجد إسماعيل نفسه في السجن جنباً إلى جنب مع عصمت باشا، ولا دخلت تركيا الحرب إلى جانب الألمان. لكن رئيس أركان البحرية أحيل على المعاش، تحت ضغط الإنجليز، لأن صداقته مع الألمان كانت جلية واضحة. ولم يحدث شيء

لقاضي التحقيق.

أما إسماعيل، فقد أدانوه مرة أخرى، وحكم عليه بالسجن مع خمسة ضباط صف وثلاثة بحارين. واتضحت فيما بعد قضية كتاب الشاعر الشيوعي الذي اكتشف بين أغراض فرحات. كان واضعه الآمر السابق الذي كان يكنّ له عداوة شخصية بسبب إمرأة. غير أن تبرئة ساحة فرحات كانت تعني تبرئة إسماعيل في نفس الوقت. وهذا ما كان ليؤدي إلى نفض اليدين من قضية «المؤامرة الشيوعية في البحرية...»

أرسل إسماعيل ـ بمفرده ـ إلى سجن في قلب الأناضول. كانت أسوار السجن عالية جدا، أو «جينوفية». فَهُمْ في الأناضول الأوسط يقولون إن الجينوفيين هم من شيّدوا فيما مضى تلك المباني العتيقة والصروح... كانت الجدران مكوّنة من كتل ضخمة مبنية إحداها فوق الأخرى، دون ملاط. وكان رجال الدرك يحرسونها ببنادقهم وحرابهم. كانت الحوانيت الصغيرة التي في الطابق السفلي تستخدم لبعض الحرف التي يشتغل بها السجناء. وكان يوجد خياط، ومبيّض، ونجاران، وأربعة اسكافيين، وصانع مرايا. أما القاعات، فكانت في الدور الأول، وخلفها بلكون كبير بلا سياج، يمتدّ على طول واجهة المبنى. وفي الطابق السفلي، كانت هناك المكاتب، وغرفة رئيس الحراس، وزنزانتان وحبس منفرد. ووسط الفناء نافورة، وشجرة ضئيلة؛ لا أحد يعلم نوعها...

شهراً بعد ذلك وصلت ناريمان. كانت تؤمل أن تعمل معلّمة في البلدة. وقررا الزواج بعد تعيينها: «إنها ضرورات تكتيكية يا صاحبي. طبعاً، فهم ليسوا أغبياء، هؤلاء الأقذار. لكن الأفضل أن نجرّب بهذه الطريقة. فهم لو علموا أنك زوجتي، لم يعيّنوك هنا أبداً...» ورجعت ناريمان إلى اسطمبول. ولم يخطر ببال إسماعيل أنه سيكون عائقاً بالنسبة لها، وأنها ستضطر إلى انتظاره - من يدري الى كم من السنين، وأنه من واجبه أن يتخلّى عنها كيما تستطيع ابتداء حياة جديدة. كلاّ، على العكس. بل استعلم لدى مدير السجن عن الاجراءات الضرورية للزواج. وحالما عادت ناريمان، أعلن عن الزواج. وعقد القران في قاعة المختارة المخصصة للزفاف. كان الدرج الذي يؤدّي إليها معتماً وخشبياً، يترجرج تحت كل خطوة. كانت ناريمان قد لبست فستاناً رمادياً، ونزعوا القيود من يدي إسماعيل، وتمنى لهما الموظف «سنوات طويلة من الهناء» بصوت واهن، ولكن بتعاطف. ثم هنأهما. وكان الشاهدان هما رئيس الحراس وبواب المختارية.

كان الغد يوم زيارات. سمح لهما المدير بالتلاقي في مكتبه. لكنه لم يدعهما لحظة وحيدين. كان يرقبهما ويتظاهر بمراجعة الأوراق التي على طاولته. وكان إسماعيل وناريمان يقتعدان الأريكة المخملية العتيقة، التي تبرز منها دواليبها، صامتين.

- لا تتحرّجا بسببي، ردّد المدير مرتين أو ثلاثاً. تحادثا...

ليس لكما أن تتحرّجا مني... تصرّفا كأني لست حاضراً... وأنا بالإضافة مشغول، لا أسمع شيئاً... تحدّثا، تحدّثا، فأنتما عروسان جديدان!

ـ شكراً لك سيدي المدير، يجيبه إسماعيل كل مرة. شكراً، نحن نتحدّث...

غير أنهما لا يقولان شيئاً. وحين أراد إسماعيل أن يمسك بيد ناريمان، تراجعت إلى الخلف ونظرت إليه نظرة عتاب.

صراخ أحمد أيقظ إسماعيل. كان يصيح كأنه يذبح. نهض إسماعيل، ورجّه.

ـ آه، صرخ أحمد مستيقظاً.

أشعل إسماعيل المصباح.

ـ لقد صرخت مرة أخرى في الحلم...

ـ أعطني كأساً من الماء، أرجوك.

ابتلع الماء بنهم كأنه لم يذقه منذ أيام.

ـ شكراً...

ـ أتريد سيجارة؟

ـ كلا... أظن أنني محموم...

تحسّس إسماعيل جبينه:

ـ كلا...

ـ أهذه صحف اليوم؟

ـ سوف تقرأها غداً.

مدّ أحمد يده وتناول الصحف:

ـ الأفضل أن أقرأها الآنَ. لو عدت اللّحظة إلى النوم لربما عادت إليّ الكوابيس...

تصفّح جريدة إزمير، وانتقل إلى قراءة جريدة اسطمبول، وفي الصفحة الثانية:

ـ لقد أوقفوا كريم...

ـ نعم...

ـ آه! يا للسفلة!... ليس في الجريدة تفاصيل... آه السفلة!... آه! تباً للسماء!...

الخط الثالث والعشرون

عندما استيقظ أحمد في صباح الغد، كان كريم أول من خطر بباله. أعاد قراءة الخبر، ثم نهض. كان إسماعيل قد ترك القنديل مشتعلاً. ضجة الموتور هذه أصبحت لا تطاق. اتجه حافياً، وبسرواله الداخلي إلى خزانة الطعام. لا بدّ أنني محموم. وضع يده تحت إبطه. نعم، إنني حقّاً محموم... اقتعد الكرسي. كلّ مفاصلي تؤلمني. فكّر بإعداد شاي. ثم تخلّى عن الفكرة. قلبي يؤلمني... استند إلى الحائط. وهكذا، إنها البداية... ذهب إلى الفراش واستلقى عليه. هل يذكرون درجة الحرارة في الكتاب؟ يذكرون وجع المفاصل، نعم. وكذلك الغثيان على ما يبدو

لي... يتحدثون عن الصداع، وعن آلام المفاصل حتى ليخال المريض أن مفاصله هصرتها كمّاشة... هم لا يتكلمون عن الكمّاشة طبعاً... في رأسي صداع. غريب ألاّ ألحظه قبل الآن! إنه صداع قوي، وحمّى. لكن بالنسبة للحمّى، فالكتاب... كان الكتاب على الطاولة. كان يرى منه طرفه الذي لا تخفيه الجرائد. لن أعيد قراءته. وسواء ذكروا فيه الحمّى أم لم يذكروا، أي أهمية لذلك؟ أوجاع المفاصل، الصداع، الغثيان، كل شيء... كلا، لن أعيد قراءة الكتاب. لنحاول على الأقل أن نبرهن على قوة إرادتنا ونحن نموت... غطس في الحزن مثلما يغطس العائد من رحلة طويلة ومضنية في حمّام فاتر الماء... قفز واقفاً. لبس ثيابه بسرعة، كأنه في معركة. أحضر شاياً، أجهد نفسه ليشربه. ثم إن الشاي محبّب له. عرق. لا يوجد مقياس حرارة. ربما كان هنالك مقياس لضياء، في موضع ما. بحث. لم يجد شيئاً... لم يعد قلبه يؤلمه تقريباً. أما الكتاب، فقد نسيه. استلقى من جديد. بدأت رأسه تتضخّم، تتضخّم، تتضخّم. ملأت الكوخ، خفيفة كأنها زَبَد...

- بتروسيان، يبدو أن أنوشكا تعشقك...

- سوف تكون رائعة لو فعلت!

- وأنت؟

- أنا كذلك... لكن لقد فات الوقت الآن... يوجد بيننا التركي!

ـ أنا يمكن أن أرحل إذا أردتم ذلك حقاً...

ـ فات الأوان... مساكين نحن الأرمن.. نتألّم دائماً بسبب الأتراك! ألا يكفيكم أن ترونا مطحونين كالعصيدة؟

ـ أنا لست ممّن ذبحوكم!

ـ وأنت لست وحدك... وفي الواقع، حتى الفلاحين الأتراك الذين سلّحوهم ليقاتلوا ضدنا ليسوا مذنبين. لقد منحوهم السلاح، وجعلوا منهم رجال درك، ودفعوهم لتقتيلنا.

ـ ومع ذلك، فهذا عار لا يشرّف وطني...

ـ وأي شعب لم يعرف هذا العار؟ قال سي ـ يَا ـ و. هل هو الشعب الإنجليزي الذي يُعمل فينا حرابه في شانغاي، أو الذي يجوّع الهنود؟

ـ لقد حان الوقت رغم ذلك لإيقاظ الشعوب من غفوتها. قالت أنوشكا. لقد كان قاتل أبي روسياً مثله. لكنه كان ضابطاً في جيش كولتشاك. واحد من البمشتشيك. كان يَعْرف جيّداً لماذا يقتله. والقوزاق، القوزاق الذين ذبحوا الفلاحين، وهم مثلهم فلاحون. هل يجب أن نغفر لهم متذرعين بأنهم من الشعب؟

ـ أحتجّ:

ـ لا أحد قال هذا أبداً...

ـ أنوشكا، إقرئي «الكبرياء الوطني» للينين، قال سي ـ يَا ـ وْ.

ـ لقد قرأته، أرجوك، قالت أنوشكا، قرأته قبلك. ولينين هو الذي يقول: «إنني لأخجل من رؤية الفلاحين الروس يمتثلون للسلطة ويلبسون الزي العسكري ليندفعوا لقمع شعوب أخرى».

ـ لماذا تتناقشون بهذه الطريقة؟ قال بتروسيان بصوت واهن. إنكم تردّدون جميعاً نفس الشيء.

ـ ليس نفس الشيء تماماً. قالت أنوشكا.

ـ هل يا ترى فكّرت مرة بالموت يا أنوشكا؟ سأل فجأة بتروسيان.

ـ الموت؟ أنا رأيته، وأكثر من مرة.

ـ ومن لم يره؟ أنا أيضاً رأيت الموت، لكنه موت الآخرين. الموت بعامة... أنا أسألك إن كنت فكّرت بموتك الخاص. هل فكّر واحد فيكم بموته، ورأسه بين يديه؟

أدهشنا سؤال بتروسيان جميعاً. وكون بتروسيان بالذات يسألنا هذا السؤال... هو الشيء الغريب...

ـ لم أفكّر به، قال سي-يَا-وْ. طبعاً، أعرف أنني سأموت. «لا أحد يفلت من الموت، فما جدوى التفكير به؟» ليس هذا ما قصدته، كلا. لكني بالفعل لم أفكّر به.

ـ أنا فكّرت به، قالت أنوشكا. فكّرت به لما كانت أمّي تموت من التيفوس، وكنا لوحدنا في البيت. أنا، وأمّي، والموت. كان بإمكان الموت أن يأخذني أنا أيضاً. قلت في

نفسي: « إنه سيأخذني، ولن أعود أبداً. أين تراه يأخذني؟ إلى اللاّ مكان». أنا ملحدة منذ سن الخامسة عشرة... ولقد حاولت بالضبط أن أتمثّل هذا اللاّ مكان»...

ـ وهل توصلّت إلى شيء؟ سأل بتروسيان باهتمام لم يحاول أن يخفيه.

ـ كلاّ... وأنت؟ معذرة، لكن... أقصد...

ـ لماذا تعتذرين؟ أنا أفكّر بالموت، وهو شيء طبيعي في وضعي، أليس كذلك؟ يجب أن يكون المرء غبيّاً حتى لا يفكر بشيء قريب جداً. ربما غيّر كلّ شيء بالنسبة له...

صمت، ثم: ـ أنوشكا، يجب أن ترقصي معي في حفل الغد خمس عشرة مرة على الأقل...

تناقشنا ساعة بعد ذلك، عن ميرخولد. قلت إنّ مسرح البولشوي يجب أن يحوّلوه إلى مخزن قمح، ممّا أثار حنق أنوشكا. وأضفت أن مسرح « مالي » ليس سوى متحف أثريات. ظننت أن أنوشكا ستمزق وجهي بأظافرها. وانضم بتروسيان إلى النقاش. كان يضحك ملء شدقيه. كان كل مرة يساند أحدنا. مرة أنوشكا، ومرة أنا. ثم نهض. رافقناه إلى الدرج. تسلّق الدرابزين كعادته ـ وكأنه يركب حصاناً ـ وراح يتزحلق وهو يحيي بيده. صاحت أنوشكا، نزلنا الدرج قافزين قفزاً. وفي أسفله، في البهو، كان بتروسيان ميّتاً. مهشّم الرأس.

بعد أيام، كنا عائدين، أنا وسي-يَا-وْ وأنوشكا من مسرح

ميرخولد، حيث شاهدنا «الغابة». أينما ذهبنا، سواء إلى السينما أو إلى المسرح، كان سي-يَا-وْ يصحبنا.

- بتروسيان انتحر، قلت لها فجأة.

راحت أنوشكا تصرخ وكأنّني شتمتها:

- كلاّ! ليس صحيحاً! - وتردّد بحقد: - ليس صحيحاً! إنك تكذب!

لم أجبها. تأبّطت ذراع سي-يَا-وْ، وسارا أمامي. كنا نتقدّم في الشارع باتجاه تمثال تميريازف، وهو التمثال الذي آثرته في موسكو تلك الفترة، تركت أنوشكا ذراع سي-يَا-وْ، ولحقت بي:

- لِمَ قلت ذلك؟ سألتني، بصوت مجهش. إنك سادي معي أحياناً... يعجبك أن تفسد كل ما هو طيّب فيّ...

لم أفهم قصدها. جذبتها إليّ، وقبّلتها. كان سي-يَا-وْ ينتظرنا بعيداً قليلاً، مطأطىء الرأس، كأنّه يبحث عن شيء في الأرض، وسط الظلام.

هل انتحر حقّاً بتروسيان؟ لست واثقاً من ذلك...

إنني أتذكّر كل هذه التفاصيل، مشوّشة، برأسي المضخّمة بالضباب. لِمَ هذه الذكريات بالذات؟ دون غيرها؟ لست أدري.

نهض أحمد. شرب ثلاث حبّات أسبرين معاً. رسم خطاً على الباب. الخط الثالث والعشرون. ارتمى على السرير.

وجده إسماعيل لدى عودته غـاطسـاً بثيـابـه في العـرق وفي الخدر. أمسك بمعصمه. إنه محموم. النبض متسارع. لمح إسماعيل الكتاب المختفي إلى النصف تحت الجرائد. أخذه. قرأ. أغلقه.

ـ هذا أنت يا إسماعيل؟ سأل أحمد.

ـ سأعينك على خلع ملابسك.

ـ لست مكلوباً يا إسماعيل.

ـ كلاّ، طبعاً...

ـ أنظر في الكتاب، هل يذكرون فيه شيئاً عن الحمّى؟

ـ ولماذا يا صاحبي؟

ـ أريد أن تنظر...

لم يستطع إسماعيل الاعتراف بأنه قد سبقه إلى ذلك. كان خجلاً. فتح الكتاب، وتظاهر بتصفحه.

ـ ماذا يقولون؟

ـ لا يذكرون الحمّى.

ـ أأنت تقول الحقيقة؟

ـ ولماذا تريد أن أكذب يا صاحبي؟

ـ أنت لست كريم. يمكنك أن تكذب، أنت.

نام أحمد من جديد.

نظرت ناريمان نظرة عتاب إلى إسماعيل الذي أراد أن يمسك بيدها. كانا جالسين على ديوان مخمليّ قديم ومقعّر في مكتب المدير، غداة زواجها. سحب إسماعيل يده.

ـ تلقيت رسالة من أخي، قالت ناريمان. إنه يشكو دائماً من عرق النّسا...

ـ أنا أيضاً مصاب به، قال المدير. أية أدوية يستعمل أخوك؟ المصل عندي، والصفصافات لا تجدي نفعاً... بل إنني غطست في الزبل الساخن حتى عنقي، بلا جدوى...

ـ أخي يشرب حبوباً...

ـ الحبوب أيضاً لا تجدي... كم عمر أخيك؟

ـ جاوز الأربعين...

ـ عرق النّسا ليس له علاقة بالسن طبعاً، لكن علاجه أعسر بالنسبة لمن بلغوا سنّاً معينة.

«من بلغوا سنّاً معينة...» ردّد إسماعيل في سريرته.

تذكّر بغتة أنه بلغ الأربعين هو أيضاً. وناريمان؟ كم عمرها؟ ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، لا أكثر: تبدو في الثانية والعشرين. وأنا في الأربعين. حياة... نظر إليها من طرف عينه. كلمة تصلح أن تكون عنوان رواية: «حياة...» هل مرّت حياتي كما ينبغي؟ ولِمَ لا؟ لكنها مرّت بأية حال...

نظر المدير إلى الساعة، فقالت ناريمان:

ـ أنا منصرفة.

تصافحا، وصافحت ناريمان المدير، ثم قالت لإسماعيل:

ـ ماذا تريد أن أجلب لك؟

لم يجب. كان ينظر إلى قدمي ناريمان. إنها أول مرة يلاحظ

فيها قدميها الصغيرتين والجميلتين. وأنا في الأربعين...

جاءت ناريمان ذات يوم إلى غرفة المقابلات بصحبة فتاة صغيرة، في الخامسة أو السادسة من عمرها. كانت ملابسها مثل ملابس سائر الأطفال في اسطمبول. لكن رأسها كانت حليقة. وكانت تمسك بقوة يد ناريمان، وتنظر حولها برعب، فكّر إسماعيل برأسها الحليقة طويلاً:

ـ لِمَ حلقوا لها هكذا يا صاحبي؟

ـ كان في رأسها قمل، لم يجدِ معه الغسل ولا الدواء. لذلك رأيت أن أحلق شعرها. سوف ينمو أجمل.

ـ أنت التي قرّرت حلق شعرها؟

ـ نعم، سوف أتبنّاها. هذه ابنتنا، أترى؟ واسمها أمينة.

أخذ إسماعيل يضحك:

ـ لنا إبنة إذاً اسمها أمينة. آمل أن أرى شعرها ينمو بسرعة. لكنها نحيلة...

ـ سوف تسمن خلال شهرين، وسوف ينمو شعرها. ألا ترى أن الشرائط الزرقاء تواتيها.

ـ أنت تريدين طفلاً، أليس كذلك يا ناريمان؟

ـ نعم... ولكن ها أنت ترى أن لنا طفلة الآن...

ـ تريدين أن تحملي طفلاً...

ـ ولِمَ لا أريده؟... أن أكون أمّاً... أحياناً لو تعلم... لكن، لي الآن طفلة... وكذلك أنت...

ـ سوف نتطلَّق يا ناريمان...

ـ ولكن... نحن لم نتزوج سوى منذ ثلاثة أشهر...

ـ وفي غضون ستة أشهر سوف نتطلَّق. أنت شابة، لم تبلغي الثلاثين، وأنا في الأربعين. كم سنة سوف أقضي في السجن؟ لا أعلم. لقد أفسدت حياتك. سوف تتزوجين من جديد، ويكون لك حقاً أطفال...

بدأت ناريمان تبكي بصمت، ثم أجهشت في البكاء، وراحت أمينة تبكي معها. لا أحد في القاعة ينظر إليهم أو يهتم ـ يتساوى في ذلك المساجين والزوار. فالدموع شيء مألوف في قاعة المقابلات.

ـ كفّي أرجوك، قال إسماعيل. لا تبكِ يا حبيبتي. لقد قلت ذلك على سبيل الدعابة... أنظري إلى الصغيرة، مخاطها يسيل. إمسحي لها أنفها بمنديلك.

حبست ناريمان دموعها، ومسحت أنف أمينة.

في ذلك المساء، جلس إسماعيل في فتحة النافذة، وأمسك القضبان بكلتا يديه. كان ينظر إلى الجبال قبالته. جبال عارية، حمراء، في زرقة السماء التي بدأت تسودّ. وفوق جبل، تمرّ غمامة صغيرة، بحجم منديل ناريمان، الذي مخطّت به أمينة. ناريمان في الثامنة والعشرين، أو التاسعة والعشرين. لكنها تبدو في الثانية والعشرين، أو على الأكثر في الرابعة والعشرين. وهي في صحة جيدة. لم أرها يوماً مريضة. لكن الصحة لا تعني شيئاً... المرأة

ترغب دوماً في الأولاد، وناريمان تريد أولاداً. النساء... الرجال أيضاً... لكن غذراء... كلاّ، هذه خرافات الرجال... خرافات يخترعونها... لماذا لم أضاجعها؟ لماذا لم نتزوّج حين كنت خارج السجن؟ هل كنت مضطّراً للزواج حتى أضاجعها؟ هل كانت لتقبل؟ أتذكّر أننا في كاديكي أوشكنا يوماً... لماذا أفلتنا فرصة ذلك النهار؟.. لأنني لست سوى أحمق... لكن أحمد أيضاً لم يجرؤ مع أنوشكا في البداية. وما هي سوى ستة أشهر حتى كانا ينامان معاً... ولكن لماذا لم نتزوج؟ لست أنا الذي ألحّ على الزواج، تبّاً لها من لعنة! كما كان يقول أحمد... بل أنا... هي أو أنا، أية أهمية لذلك الآن؟... ومن الذي ألقى عليك اللوم أيها الغبي؟...

صباح الغد، وفيما كان يحلق ذقنه ـ لم يكن إسماعيل يذهب إلى الحلاّق سوى أيام الزيارات، لكنه خالف عادته يومها ـ سأل علي، المدان بتهمة جريمة قتل:

ـ قل يا علي، كم يبدو لك عمري؟

ـ أربعون، أو خمسة وأربعون...

عمل إسماعيل في ذلك اليوم، وحتى المساء، في حانوت رمزي الخياط. كان قد استأجر منه نصف الحانوت، وصار يصلّح فيها أجهزة راديو، وآلات خياطة.

كانت أمّ إسماعيل كثيراً ما تأتي لقضاء بعض الأيام عند كنّتها، وكان إسماعيل يرجوها:

ـ لماذا لا تأتين للاستقرار هنا؟

ـ كلاّ... إني أحبّ ناريمان كما لو كانت إبنتي، لكن لو عشنا معاً، لن تمر سوى ستة أشهر حتى نتشاجر وتمسك إحدانا الأخرى من شعرها... وأنا لا يمكنني استئجار بيت بمفردي...

أغلب المساجين فلاّحون، والإدارة لا تعطيهم أكثر من ٧٠٠ غرام من الخبز الأسود، يومياً، والماء، والكهرباء التي تنير كامل الليل. لا فراش، ولا غطاء، ولا ثياب. هذا كله تجلبه لهم عائلاتهم، والذي ليس له عائلة يتدبَّر أمره...

كان هناك حارس من بورصا. كان يميل للألمان. وفي كل مساء، بعد أن يدعو للمساجين بالخلاص، ويقفل الباب الحديدي، كان يلصق فمه بالشباك وينادي إسماعيل:

ـ تعال، تعال يا هذا... لقد قصف هتلر لندن مرة أخرى... سيربح الألمان الحرب... لا تكن عنيداً... واعترف بأنهم سيربحونها...

ـ كلاّ، سيخسرونها، يقول إسماعيل.

ـ طيّب، طيّب، يجيب الحارس.

وفي المساء التالي، يتبادلان نفس العبارات. أمّ إسماعيل ماتت عند ساقي ذلك الحارس، في قاعة المقابلات، خلف الشبك الحديدي.

ـ جئتك ببعض الكريات المحشوة بالأرز والمطبوخة في الزيت، يا إسماعيل. لكنها انهرست قليلاً في الطريق... لا تنسَ

أن تذيق منها السيد الحارس يا ولدي؛ قالت ذلك، وسقطت عند قدميه.

كانت ناريمان مريضة. لأول مرة في حياتها تصاب بنزلة. جاءت أمّ إسماعيل بمفردها إلى الزيارة. نقلوها إلى المستشفى. «سكتة قلبية» قال الأطباء. إنها مدفونة منذ ستة أشهر هناك، في المقبرة المقابلة التي تُرى من خلف الجدران الجينوفية. جالساً في فتحة النافذة، كان إسماعيل يتأمَّل المقبرة التي تبدو في ضوء القمر كأنّها أرض بور. لقد احتاج إلى جهد طويل كي يعتاد على فكرة موت أمّه، وخاصة تصديقها. كيف يمكن؟ رغم أنه رآها تسقط في القاعة، ومن نافذته هذه بالذات. وفي ضوء الشمس العنيف تتبَّع بعينيه الجنازة. لكن الرؤية والتصديق شيئان مختلفان...

بعد شهر، قالت له ناريمان:

ـ أنا الآن أمّك.

كان إسماعيل منكبّاً على إصلاح جهاز راديو النائب العام، حين وصله خبر دخول الألمان الإتحاد السوفياتي. لا بدّ أن تكون سحنته تغيَّرت آنها حتى يسأله رمزي ـ الخياط:

ـ مالك؟ ماذا حدث؟

ـ إنهم يسعون إلى حتفهم، هؤلاء الكلاب...

ـ من هم؟

وانتشر الخبر بسرعة في كامل أنحاء السجن. كان المساجين

يصيحون:

ـ سوف يقع عفو. سوف يطلقون سراحنا!

كان إسماعيل يبذل جهداً في فهم البلاغات السوفياتية من الأجهزة التي كان يصلّحها، وقد أصبح الآن يطيل مدة إصلاحها. كلّ الصحافة ـ باستثناء صحيفة أو صحيفتين مثل «التاين» وراديو أنقرة ـ تؤيد الألمان. ولم يعد بإمكان الحارس أن يقول لإسماعيل في المساء إن الألمان سيربحون الحرب، فأشبعه إسماعيل شتائم هو وأمّه وأجداده. وكم كان يودّ أن يدخله الزنزانة المعزولة كيما يشبعه ضرباً. لكنه لم يجرؤ ـ فالرجل يصلح راديو سيدي الوالي ـ إذن... فهو الآن يكرهه. وإذا ما صادفت مناوبته يوم الزيارة، فهو ينزرع أمام ناريمان، ويُعمِل أصابعه في الطعام الذي تأتي به حتى يحوّله إلى شيء لا يمكن أن يؤكل.

إن ما يدهش إسماعيل هو تقهقر الجيش الأحمر. فهو لم يكن ليتصوَّر أبداً وجود جيش أقوى منه. لقد حدّثه الرفاق العائدون من موسكو عن رجال مظلات يتساقطون من السماء أكثر عدداً من قطرات المطر، في استعراضات الساحة الحمراء. فلماذا لا يسقطون على مؤخرة الجيش الألماني؟ كان يتساءل باستمرار، ويواسي نفسه بفكرة أنها مناورة. لا شك في ذلك... لم يكن يصدّق خرافة مئات الآلاف الذين وقعوا في أسر الألمان.. ورغم ذلك، فلو كان نصف الأرقام التي أعطتها البلاغات

الألمانية صحيحاً... كان لشدة ما تؤلمه هذه الفكرة يجهد في منع نفسه عن التفكير..

الألمان يزحفون على موسكو؛ «سقوط موسكو صار مسألة أيام معدودة...» كتب عابدين دافير في جريدة «الجمهورية».

كان إسماعيل يروح ويجيء على السطح الخالي من الدرابزين، وكانت الجبال والبيوت تُرى من خلف الجدران الجينوفية مغطاة بالثلج، وفناء السجن مكسوّ بالثلج أيضاً. ملأ إسماعيل قبضته بالثلج، وراح يأكله، محاولاً أن يتخيَّل موسكو. موسكو التي حدّثه عنها أحمد، وحدّثه عنها آخرون، والتي رأى بعض صورها - إنه ليستطيع رسم ضريح لينين عن ظهر قلب - موسكو المغمورة بالثلج والمحاصرة بالفاشيين... هم يقاتلون هناك، يبذلون دماءهم، وأنا هنا، أقبض على الفراغ. إنها لقسوة... يا صاحبي...

جاءت ناريمان لزيارته، بمفردها. لم تكن أمينة معها.

- طردوني من المدرسة...

- لماذا؟

- قرار وزاري...

- ولكن لماذا؟

- لا تتكدّر... سوف أشتغل بالخياطة. عندي آلة. يجب أن تصلحها لي، فهي معطوبة...

- ولكن لماذا طردوك؟

ـ الأمر أن... أستاذ الجغرافيا... وهو رجل وقح جداً... منذ شهر أو شهر ونصف... لم أكن أريد أن أخبرك، ولكنه لم يكن يدعني وشأني...

ـ كيف؟ ماذا تعنين؟ ماذا فعل؟

ـ لا شيء... فقط بعض المغازلات والتلميحات... وهو بالإضافة متزوج... لقد زجرته أكثر من مرة... علاوة على أنه أصلع...

أحسّ إسماعيل وكأنه طعن في الظهر. أصلع... ويجرؤ... والبلدة ملأى برجال غير صلع... إمرأة شابة وجميلة. إمرأة من اسطمبول... وزوجها سجين، بالإضافة... خلاصة القول: ثمرة للقطف...

ـ كنا في قاعة الأساتذة، المدير...

ـ وهذا أيضاً يحوم حولك؟

ـ كلاّ... أتعتقد أن جميع الناس يحومون حولي؟

ـ ولِمَ لا؟ أنت جميلة...

ـ أأنت مجنون؟ تراك من تظنني؟

ـ طيّب، طيّب... وبعد؟ ما له المدير؟

ـ قال: «لقد أحسن الألمان صنعاً بتقتيلهم الروس، فالشيوعيون ليس لهم أية أخلاق. العائلة غير موجودة عندهم، والنساء هناك ملك للجميع...» فاستدار أستاذ الجغرافيا إليّ قائلا: «زوجك شيوعي، أليس كذلك يا سيدة ناريمان؟ هل له

نفس الأفكـار عـن الأخلاق الزوجيـة؟ » صفعتـه. لم أتمالـك نفسي...

ـ لقد أحسنت جداً، أحسنت جداً. مرحى يا صاحبي. لماذا لم تحكِ لي كل هذا؟

ـ حتى لا أنكدك...

ـ إذن، أطردوك لأنك صفعته؟

ـ كلاّ، بل من أجل الدعاية الشيوعية. فقد أرسل المدير وأستاذ الجغرافيا تقريراً إلى الوزارة، يقولان فيه إنّ زوجي شيوعي، ضليع، مما أثار غيظ الأساتذة الآخرين، فهم يريدون الاحتجاج، وكتابة عريضة. أمّا بالنسبة لي، فالأمر بسيط، لن أعود إلى المدرسة أبداً. أفضّل أن أشتغل بالخياطة. ثمّ إنّ عائداتها أوفر...

هناك اثنان وثلاثون سجيناً يشغلون نفس الحجرة التي ينام فيها إسماعيل. الأرضية إسمنتية، وعلى طول الجدران أريكة خشبية كبيرة يفترشونها للنوم. في الزاوية اليمنى ترى فرشات سليمان آغا التي تبلغ السقف إذا ما وضعت إحداها على الأخرى مع الوسائد والأغطية. مستنداً إلى تلك الهضبة الطرية، يقضي سليمان آغا نهاراته في التسبيح وشرب عدد لا يحصى من كؤوس الشاي والقهوة. فهو الذي يموّن السجن بالقهوة. إنه آغا قرية كبيرة تقع على بعد ساعتين من البلدة. كان قد دبّر قتل آغا قرية مجاورة على يد الراعي الذي يشتغل عنده. شنق الراعي، وحُكم

على سليمان آغا بالحبس لمدة خمس عشرة سنة.

كان رمزي الخياط، وشفيق - عامل التبييض - ينامان في نفس الحجرة. فراش الفقراء رقيق متواضع، وفي النهار يستعملون الفراش للجلوس. وكان السجين الذي يقوم بتنظيف المرقد ينام قرب الباب، على جلد خروف مسودّ بالقذارات. أمّا سليمان آغا فله خادم خاص، يدعونه إحسان الجميل. إنه شاب فقير، ذو وجه أبيض كالورق. يُقال إن سليمان آغا يضاجعه.

الأحذية والصنادل والشحّاطات تخلع وتوضع وسط الحجرة. والمواقد، والمناقل تشعل في الرواق. وفي الشتاء يدخلونها إلى الحجرة للتدفئة. وإذّاك تفوح رائحة الفحم حادّة ومدوّخة.

وسليمان آغا هو الذي يزوّد السجن بالحشيش ويدير ألعاب القمار أيضاً.

سنة ١٩٤٢، جيء بمساجين من سينوب. إنهم ثلاثة مهربي هيروين من اسطمبول، ومجرمان من إزمير، محكوم عليهما بالنفي. كانوا مجموعة قبضايات حقيقيين، معروفين في أكثر من سجن. ومن اسطمبول، يُرسل أيضاً رجال يسمون «بابا آدم» - يلقّبون كذلك لأنهم فقراء، وشبه عراة - هؤلاء يدخلونهم إلى حجرة الفلاحين الفقراء حيث ينامون على الجرائد. وقد وصل أيضاً ملازم مدفعية، أُدين بتهمة التجسس لحساب الألمان. وضعوه في غرفة سليمان آغا. ثم شرع المهربون في بيع الهيروين واشتبكوا مع سليمان آغا: كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه احتكار

تجارة الحشيش، والقمار. كان مدير السجن يساندهم، أما قائد الحرس فيساند سليمان آغا. المدفعي كان في البداية مع سليمان آغا، ثم انضمّ بعد ذلك إلى الفريق الثاني. وانتهى المهربون بضمّ إحسان الجميل إلى صفّهم. وفيما كان سليمان آغا يصلّي، طعنوه بخنجر. كان إسماعيل ورمزي في دكّانهما، والمبيّض يسخّن عشاءه أمام باب الحجرة، وسمع صوتاً:

ـ إنهم يقتلون الآغا، النجدة!

لكنه طُعن أيضاً. وركض رجال الدرك ليصطفّوا على الأسوار، وصفّر العريف وصاح:

ـ لا يتحرّك أحد، وإلاّ أطلقنا النار.

أمضى القتلة شهراً في الزنزانة، ثم جاؤوا بهم ليستقرّوا في حجرة سليمان آغا.

ـ هذا الملازم لا يعجبني أبداً، قال الخياط ذات يوم لإسماعيل. إنه لا يكفّ عن اغتيابك. كن حذراً...

ـ وماذا تريد أن يصيبني من هذا القذر؟ أنا لا أقامر، ولا أشرب الحشيش، ولا أضايقه في شيء.

ـ كن حذراً منه مع ذلك.

شهران بعد ذلك، كان إسماعيل عائداً من قاعة المقابلات، وكان المهربون الثلاثة ينتظرون في الباحة كي يذهبوا بهم إلى المحكمة. كانوا مقيّدين. وفجأة، انقضّ عليهم المجرمان والملازم وإحسان الجميل شاهرين الخناجر. صاح إسماعيل:

ـ توقّفوا.

صفّر قائد الحرس منذراً، واستطاع أحد المهربين ـ رغم قيوده ـ أن يمسك سكين إحسان، ويطعنه به في صدره، بينما ارتمى الملازم على إسماعيل. تأخّر إسماعيل، وضربه بطاسة الطعام الذي جلبته ناريمان. سقط.

بعدها بساعة، كان إحسان يحتضر في قاعة الإسعاف بين ذراعي إسماعيل:

ـ أعطني ماء، قال له.

وضع إسماعيل رأس المحتضر على الأريكة المغطّاة بمشمّع ممزّق، وأعطاه الماء.

قال إحسان:

ـ أترى؟... ها أنت تقدّم لي كأس الماء الأخيرة، بينما أردت أنا أن أقتلك... أغفر لي...

ـ ألم أقل لك يا إسماعيل؟ همس رمزي الخياط وهو يلمس شاربيه، ـ كل هؤلاء اشتبكوا مع بعضهم البعض، لكن المهربين انتهوا بتصفية الآخرين.

لم يكن إسماعيل يتساءل حتّى عمَّ قد يحدث. كان واثقاً من أن المجرمين سيعودون بعد شهر إلى تجارتهم.

ـ لكن، لماذا كان على إحسان أن يقتلني؟

ـ الملازم دبَّر المكيدة. أقسم لهم أن المحكمة ستكون أقلّ صرامة معهم إذا ما قتل شيوعي...

لم تتحقق توقعات إسماعيل: حوكم الملازم وأصحابه بسرعة وأرسلوا إلى سجن تشانكيري. قيل إن النائب العام الجديد يريد إدخال إصلاحات في الإدارة.

ـ ناريمان، إنني أستحي أن آكل ما تجلبينه لي أمام الآخرين.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنهم يموتون جوعاً.

ـ ليس في السجن وحسب... لكن ليس بمستطاعنا فعل أي شيء... أنظر، لقد أحضرت لك أمينة شوربة...

كانت أمينة تزيّن شعرها الأسود بشريط أزرق جميل.

ـ لقد وضعت فيه كثيراً من الفلفل الأحمر يا بابا، ولحماً مفروماً أيضاً.

سيطر الجوع على السجن. في كل أسبوع كان يموت «بابا ـ آدم» أو «بابا ـ آدمين». يبدأ الموت بالانتفاخ، تتورّم البطون، وتنشدّ مثل جلدة طبل، ثم يأتي الموت. وعلب الطعام التي يجلبها الزائرون إلى المساجين يتضاءل حجمها يوماً إثر يوم.

خرج إسماعيل من الدكان. الشمس ساطعة. تنشّق الهواء بعمق.

قبالته، تحت الأسوار الجينوفية، كان الـ «بابا ـ آوادم» الذين تكسوهم الأسمال، يرعون أعشاب الباحة على أيديهم وركبهم، مثل الحيوانات، يقضمون الأعشاب بأسنانهم. كان معهم فلاّحان أو ثلاثة. يرعون الأعشاب، ولا يتنازعون،

كئيبين مثل قطيع من سوائم.

الخط الرابع والعشرون

فتح أحمد عينيه. رأى إسماعيل مقرفصاً أمام خزانة الأطعمة. القنديل يشتعل.

- إسماعيل، هل لا يزال الوقت ليلا ؟ هل عدت الآن ؟

- لست ذاهباً إلى الشغل هذا اليوم. نم. لا يزال الوقت باكراً...

- ماذا تفعل ؟

- شوربة. أطبخ شوربة بالعدس. ستعجبك هذا الصباح...

- شكراً...

« لست جائعاً... » لكنه أحجم عن قول ذلك.

- كيف الحال ؟

- أفضل من قبل...

لا يجرؤ أن يقول: « سيء... »

- سأرى إن كنت محموماً.

- لا أظن... قليلاً جداً ربّما...

تحسّس إسماعيل جبينه.

لم يجرؤ أن يقول له: « إنك ملتهب... »

- يخيّل لي أن الحمّى قد انخفضت. ليس تماماً ربّما، لكنّها

أقلّ بالتأكيد. سوف أذهب لشراء بعض الأدوية.

«وما الجدوى؟» لكنه لم يقلها.

أفطرا الشوربة. شعر أحمد بالغثيان، لكنه حاول ألاّ يبدو عليه ذلك.

ـ أحبّ هذه الشوربة مع كثير من الفلفل. أظن أنني مع ذلك وضعت منه أكثر مما ينبغي...

ـ نعم... أكثر قليلاً...

ـ أتريد قرص أسبرين؟

ـ أعطني قرصين...

ـ إثنان... هذا كثير... لا يجب أن تبالغ في شرب الأسبرين...

«وهل يهم؟ بالنسبة لي، قرص زائد أو قرص ناقص... ما الفرق؟...» لم يقل شيئاً من ذلك. ابتلع الحبّتين. آه! أشعر أنني أرتعش... يجب ألاّ أترك أسناني تصطكّ...

جلس أحمد على الفراش، متزمّلاً بالغطاء.

ـ إسماعيل، سوف أقصّ عليكَ شيئاً... لم أستطع أبداً أن أحكيه لأحد.

ـ أليس من الأفضل أن تتمدّد في الفراش، وترتاح؟

ـ كلاّ... أنت لا تتحدّث أبداً... لا عن أمّك، ولا عن النساء اللّواتي أحببت... أمّا أنا فثرثار... أنت تعرف...

ـ إنها مسألة طباع... لكن لا تتعب نفسك...

ـ إسمع إذن... الصينيّون... في الجامعة... بموسكو...

ـ نعم...

ـ كانوا مجموعة يتأهّبون للعودة إلى بلدهم... كان معهم سي ـ يَـا ـ وْ... غير أن المجموعة التي سبقتهم اعتقلت على الحدود، وقطعت رؤوسهم بالساطور... جميعاً... أتفهم؟

ـ بلى يا صاحبي، أفهم، أفهم جيداً...

ـ أعني: هل هو واضح ما أقول؟

ـ تماماً..

ـ كنا نعلم بأن رؤوسهم قطعت بالساطور... وقد نظّمنا تجمّعاً احتجاجياً..؛ وكان سي ـ يا ـ وْ على علم أيضاً، أتفهم؟

ـ طبعاً...

ـ كان سي ـ يا ـ وْ على علم، نظّمنا سهرة توديع في النادي، ألقيت فيها خطب، وفي الغد كانوا على سفر؛ وحين انتهت السهرة قالت لي أنوشكا: «ـ سوف أذهب في نزهة مع سي ـ يا ـ وْ».

مضيا. عاد سي ـ يا ـ وْ متأخّراً جداً. تظاهرت بالنوم. لم يأوِ إلى فراشه قطّ. أعدّ حقيبته. نهضت. تعانقنا. وانصرف...

ـ وهل قطعوا رأسه أيضاً، المسكين؟

ـ لا أعرف، فقد عدت على الفور إلى تركيا مع كريم... أعطني سيجارة.

«مع أني لا أحس حاجة إلى التدخين. هذه المرارة

بفمي...»

ـ إسترح، فلقد أتعبت نفسك...

ـ كلاّ، يجب أن أشرح لك...

« لماذا أصرّ على إخباره بالقصة؟ لا أعرف. ربّما لأني حلمت بأنوشكا هذه الليلة...»

ـ إذن... في المساء، ذهبت لأرى أنوشكا. لم أجدها في مكتبها ذلك اليوم. كانت نائمة في غرفتها.

ـ «أأنت مريضة؟»

ـ «أحسّني متعبة قليلاً».

جلست على حافة الديوان.

ـ «أتريدين شاياً؟»

ـ «كلاّ».

ـ «أنت حزينة... أنا أيضاً... ربما لن يعتقلوهم... كل الرفاق العائدين إلى الصين...»

ـ «لا تتحدّث...»

ـ «لماذا أنت متشنّجة إلى هذا الحدّ؟»

ـ «لست متشنّجة...»

ـ «طيّب...»

آنئذ، سألتها أن... تعرف... هذا يحدث لي أحياناً كثيرة... هناك أشياء لا أعرف إن كان يجب قولها أم لا، ولكن قبل حتى أن أقرّر... كنت كأنّني مدفوع بهاجس من

الشيطان، وسألتها...

- «ذهبت لتتمشّي في الشوارع مع سي-يا-وْ مساء البارحة؟»

حدجتني بنظرة حادّة من عينيها الزرقاوين اللّتين اسودّتا:

- «كلاّ، ذهبنا عند ماروسيا».

- «لكن ماروسيا في روستوف...»

- «تركت لي مفتاحها».

- «أريني المفتاح».

قطّبت حاجبيها الأشقرين:

- «لست مضطّرة لتقديم تقرير لك عن كل تصرّفاتي».

- «كلاّ، ولا شيء يضطّرك إلى ذلك. لكن ماذا فعلتما هناك؟»

- «تضاجعنا».

- «ماذا تعنين؟»

- «أعني ببساطة أنه ضاجعني، كما تضاجعني أنت».

- «كاذبة».

- «لست كاذبة».

- «لماذا فعلت ذلك؟»

ضحكت ضحكة غريبة، أحسستها استهزاء.

- «أيمكن أن يطرح سؤال أغبى من هذا؟»

أخذت قبعتي، وانصرفت. سرت في الشوارع الصغيرة

والكبيرة. دخلت أربع أو خمس قاعات سينما. كنت أخرج في منتصف الفيلم...

ـ هي حقاً حالة لا تحسد عليها...

ـ نعم... كان ذلك رهيباً.

ـ وبعد؟

ـ ذات مساء، جاءت إلى حجرتي. كان كريم ينام. هنالك منذ رحيل سي-يا-وْ. قالت: «عمتم مساء، يا أولاد.» كأنّ شيئاً لم يكن... لم أكلّمها. لم يكن كريم على علم بالقصة، غير أنه لاحظ تشنّجي...

قال لها:

ـ «ماذا جرى لصديقك يا أنوشكا؟»

ـ «لا أعرف، ألم تسأله؟»

ـ «بلى، ولكنه لا يجيب».

ـ «ربّما لأنه لا يريد أن يبوح لك بالحقيقة. ليس الأمر هيّناً عند كافة الناس ـ داعبت شعري ـ ... سنذهب لقضاء العطلة في داتشا عمّتي. عطلتي تبدأ بعد خمسة عشر يوماً. أنتم أيضاً، أليس كذلك يا أحد؟»

ـ «لماذا أخفيت عنّي ذلك، قال لي كريم. سوف آتي لزيارتكما أيام الأحد».

ـ «طبعاً كريموشكا. سوف تأتي مع ماروسيا، إذ هي عائدة ولا شك من روستوف... أحد، جئت لآخذك معي إلى المسرح

ـ الصغير. عندي تذكرتان».

في شارع تفرسكوا، توقّفت فجأة.

ـ «لن أذهب إلى المسرح... ثم، لماذا اختلقت قصة الداتشا هذه؟»

ـ «لكنّي تحدّثت فعلاً مع عمّتي بشأن العطلة، فهي تعطينا غرفة...»

ـ «عمّتك لطيفة جداً. غير أني سأقضي عطلتي في إحدى داتشات الجامعة».

ـ «طيّب، هيّا بنا».

أثناء مرورنا أمام دكان «يلسييف»، شبكت ذراعها بذراعي. كنت صامتاً.

ـ «ألا تزال غاضباً من أجل تلك القصة؟»

ـ «أنا شرقيّ كما ترين...»

ـ «هل كانت حقاً جريمة أن أضاجع سي-يا-وْ ليلة واحدة؟ هل هي جريمة أن أقضي ليلة مع رجل في طريقه إلى الموت ربّما، وقد كان يحبّني بذلك القدر الذي تعرف، وبلا أمل؟ هل هي جريمة أن أسعده ليلة واحدة؟»

ـ «لن نتفاهم أبداً حول هذه المسألة يا أنوشكا. أتركي ذراعي...»

ـ «هل أنت متأكّد أنني ضاجعت سي-يا-وْ؟»

ذهلت. توقّفت.

- «افترض أنه تقليد شرقي أيضاً هذا التوقّف كل أربع خطوات. تقدّم بحقّ السماء».

- «هل ضاجعته، نعم أم لا؟»

- «أن أكون ضاجعته أو لا... ليس لهذا علاقة بحبّي لك...»

- «كيف هذا؟»

- «لم أضاجعه».

- «كاذبة».

- «طيّب إذن، ضاجعته».

- «أتريدين أن أجنّ؟»

- «طيّب، لم أضاجعه».

- ولكن هل ضاجعته أم لا يا صاحبي؟

- لا أعرف يا إسماعيل، لا أعرف إلى الآن...

- ولم تذهب لتسأل ماروسيا هذه؟

- ماروسيا كانت تسكن وعائلتها بيتاً خشبياً عتيقاً ذا غرفتين. كانوا كلهم في روستوف آنئذ...

- ربّما هي لم تضاجع سي-يا-و، لكنها أرادت استثارتك بهذه القصة... تبدو من أحاديثك عنها فتاة عنيدة... لعلّها لم تضاجعه...

- ربّما لم تفعل... ولكن جائزاً أيضاً أنها فعلت... - تنشّق أحمد عميقاً - إنها مثل قصة الكلب هذه... ربّما كان الكلب

مكلوباً، وربما لم يكن... وربّما كان عليّ أن أرحل إلى اسطمبول... إذ ربّما سأصاب بالكلَب... وربّما لن أصاب...

- لا تعد إلى الحديث عن الكَلَب... لا يبدو عليك البتّة أنّك مكلوب.

- إنه اليوم الرابع والعشرون، إسماعيل، إذهب وارسم الخط الرابع والعشرين على الباب.

- دعني يا صاحبي.

- أقول لك: ارسمه...

رسم إسماعيل الخطّ الرابع والعشرين على الباب.

- حاول النوم. سوف أذهب لشراء بعض الأدوية. لا بدّ وأن يكون هنالك شيء آخر سوى الأسبرين لخفض درجة الحرارة.

إنصرف إسماعيل.

خرج إسماعيل من السجن سنة ١٩٤٣. قبل خروجه بيوم، قالت له ناريمان:

- لن أنتظرك أمام الباب. سوف تأتي وحدك إلى البيت كما لو كنت عائداً من الشغل. وسوف تجدني وأمينة في انتظارك. كما لو كنت عائداً من الشغل... ولا تنسَ العنوان. سجّله عندك.

طالت إجراءات الخروج حتى المساء. وفي المساء استطاع إسماعيل أخيراً أن ينطلق بعد توديعه الآخرين.

إنه يسير. هذه البلدة الصغيرة شبيهة بكل القرى التي عرفها في الأناضول الأوسط. لدى وصوله ليلاً، لم يتسنَّ له أن يرى منها شيئاً. هذه ساحة فرع الولاية. يجب الانعطاف يساراً. يدخل الحديقة العامة. وسط الحديقة، يرتفع على قاعدة إسمنتية تمثال أتاتورك. وفي موضع من القاعدة الإسمنتية ساعة كبيرة، لا تشتغل طبعاً. يدخل أزقة. يشمّ روائح الروث الجاف مختلطة برائحة البرغل المغلّي. أمام الأبواب عواميد هاون لدقّ الذرة. «غداً أذهب إلى المقبرة» قال في نفسه. دخل جادة ضيقّة. البساتين مسوّرة بسياجات عالية. هوذا البيت. بيت خشبي من طابقين. طابقه الأدنى مطلي بالكلس. أعمدة خشبية تسند السقف. وقبل أن يطرق، ينفتح الباب. وترتمي أمينة بين أحضانه.

- مهلك يا بنيّتي... إنتبهي إلى الحقائب.

- هي تنتظرك عند النافذة منذ الصباح.

يدخل إسماعيل. ينزع حذاءه، وينتعل خفّه المنزلي.

- مرحباً حبيبتي... هل تعبت اليوم كثيراً في المشغل؟

- كلاّ، ليس أكثر من العادة.

بالبيت حجرتان. المطبخ والحمّام في البستان. الصالون: أرائك على طول الحيطان. مساند صلبة. وسط الحجرة، سجّاد صغير، مشرق كالشمس. مكتب، وكرسي.

- نأكل جالسين على الأرض.

ـ حسناً، حسناً جداً...

على الحائط صورة مكبَّرة لإسماعيل. قبّعته على رأسه.

ـ كنت أريد تصوير أمينة، لكن المصوّر لا يملك ورقاً. إنه ينتظر وصوله...

ـ لِمَ لا تكبّري صورتك؟ أتعرفين، تلك التي أحملها معي دوماً؟

ـ حسناً، إذن سنتصوّر جميعاً...

دخلا غرفة النوم. أرائك، وسرير نحاسي، تزيّنه كرة في كل زاوية. كومودينة ذات مرآة في ركن، وطاولة قصيرة إلى جانب التخت. نجّار السجن هو الذي صنع الطاولة والكومودينة.

ـ أنا أنام مع ماما في هذا الفراش.

ـ هذه الليلة، أنا الذي سينام معها لو تسمحين...

احمرّت وجنتا ناريمان.

ـ سوف أعمل للصغيرة فراشاً على الديوان في الغرفة الأخرى.

ـ لا أريد أن أنام وحيدة في الغرفة الأخرى...

ـ أمينة... أنصتي جيداً... إذا أردت أن نكون على وفاق دائماً، لا تنسي أنّي لا أحبّ الفتيات الصغيرات العنيدات، اللّواتي لا يسمعن الكلام.

ها هم في الصالون، يأكلون على الصينية النحاسية الملتمعة، في صحون فخارية متقنة الصقل:

ـ أتريدين أن يكون لك أخ صغير يا أمينة؟ سأل إسماعيل، صغير صغير...

ـ هل سيأتي الآن؟

ـ كلاّ... لن يأتي الآن... ولكن حين يأتي...

ـ أودّ ذلك... سنحلق له شعره حتى لا يقمّل، وأنا أخيّط له ثياباً جميلة..

نظر إسماعيل إلى ناريمان. كانت محمرّة الوجنات. آنئذ فقط، لاحظ ثوبها.

ـ جميل هذا الثوب يا صاحبي... قفي أرينيه...

تقف ناريمان، وتدور أمام إسماعيل:

ـ هل أعجبك؟

ـ طبعاً، أأنت التي خِطته؟

ـ طبعاً، أنا أخيط ملابس زوجة الحاكم يا عزيزي.

بعد العشاء، فتح إسماعيل الراديو الذي جلبته ناريمان من اسطمبول:

ـ لنستمع إلى أخبار موسكو.

بلاغ.

ـ رفاقنا يتقدّمون. إنهم يتقدّمون، ولا شيء يمكن أن يوقفهم، كما يقول الشاعر:

« هذا الجيش جيشك، هذا الجيش جيشي،

« إنه الجيش الأحمر، جيش الكادحين... »

آه، يا إلهي! أليست الحياة جميلة، يا صاحبي؟

ـ الحياة جميلة يا صاحبي، أعادت ناريمان بصوتها الرخيم.

إنه لم يقبّلها منذ وصوله. وها هو يتذكّر ذلك فجأة. يقترب منها، ويأخذها بين ذراعيه:

ـ إنتظر، ليس أمام الصغيرة...

ـ لكن متى تنام الطفلة؟ لا بدّ للأطفال من النوم باكراً...

ـ لا أرغب في النوم يا بابا...

ـ لا تنسي ما قلته لك قبل قليل...

وضعت ناريمان الصغيرة في فراشها، وقبّلتها على خدّيها، ثم عادت إلى إسماعيل، وهمست:

ـ إذهب قربها قليلاً.

جلس إسماعيل على الأريكة بجانب أمينة:

ـ أغمضي عينيك يا بنيّتي.

أغمضت عينيها.

ـ إن نمت الآن سوف أشتري لك حلوى غداً.

فتحت عينيها:

ـ أية حلوى يا بابا؟

ـ دعي الحلوى، بل سأشتري لك دمية.

أغمضت أمينة عينيها.

خلع إسماعيل سترته. ثناها. وضعها على الديوان. وقف. خطا على أطراف أصابعه ليطفىء القنديل. كانت أمينة نائمة.

فتح باب غرفة النوم بهدوء. مصباح خفيض الضوء يتقد على الكومودينة. نناريمان في الفراش، يغطيها اللحاف المبرقش بالساتان حتى عنقها. في عينيها السّوداوين الواسعتين طيف دهشة ورهبة. تساءل إسماعيل إن كان ضرورياً إطفاء المصباح. أطفأه. خلع ثيابه.

واستسلمت ناريمان إلى ذراعيه بحنان لا نهائي...

إزمير - نهاية الخط الرابع والعشرين

رجع إسماعيل. كان أحمد مستلقياً في فراشه، وعيناه تحدّقان في السقف.

- كيف الحال؟

- أحسن قليلاً.

- جلبت لك «بيراميدون»، وقد نُصحوني أيضاً ببعض «الكافيين» و«الأوروتروبين».

- لمن كل هذه الأدوية؟ أهي لي؟

- لا، بل لي أنا. وهي - بالمناسبة - تباع بلا وصفة. خذ، واشرب هذا، وهذا أيضاً.

شرب أحمد الأدوية.

- يبدو أن عمّك شكري بك قد هرب...

- ماذا تقول؟

- إنها الحقيقة. علمت ذلك الآن. فرَّ إلى أوروبا منذ يومين.
- وكيف ذلك؟
- لا أحد يعلم. يُقال إن الإنجليز ساعدوه على الهرب. فله معهم علاقات تجارية.
- نعم، إنه نموذج للكومبرادوري.
- وزوجته... أليست خالتك؟
- بلى...
- لم تفتح الباب للشرطة، بل طلبت منهم إظهار أمر بالتفتيش. وبما أنه لم يكن معهم، فقد حاولوا الدخول بالقوة، وحينها صاحت من النافذة: «إذا أصررتم فسوف أطلق عليكم النار...» لقد أعجبتني يا صاحبي...
- كلهنّ من نفس الطراز في أسرة والدتي. أمّي نفسها، حين كانت حاملاً بي، حدثت لها قصة مشابهة. ذات يوم، أتت شرطة عبد الحميد لتفتش بيت جدّي في سكوتاري. كان جدّي صديقاً لنامق كمال وبقية شباب تركيا - الفتاة. ومع أنه كان يصغرهم سناً، فقد كان يحب كثيراً نامق كمال وخاصة ضياء باشا. وكان في البيت بالذات بعض أشعار ومقالات غير مستحبّة لدى السلطة. فسارعت أمي إلى إخفائها في فراشها، ثم رقدت. وحين دخل الغرفة رجال البوليس راحت تصيح: «أخرجوا أيها الوقحين، أخرجوا على الفور، كيف تجرؤون على اقتحام حجرة إمرأة مسلمة؟ أخرجوا وإلاّ قتلتكم». وكانت تهدّدهم بمسدس

والدي... مسدّس قديم صدىء... عندما طلبت من أبي أن يشرح لي سبب احتفاظه به، قال لتخويف اللصوص... لكن أبي مثلي؛ كان عاجزاً عن استعمال سلاح. وهل تعرف من أين أتاه هذا الخوف من اللصوص؟ يبدو أنه رأى ذات مرة في مجلة «إلّوستراسيون» صورة لصوص يقتحمون بيتاً باريسياً في الليل، ويذبحون أهله في غرفة نومهم... يا للوالد المسكين! طبعاً ليست الصورة هي السبب... بل هو رعديد بطبعه. كان رعديداً بقدر ما كانت أمي شجاعة...

لم يكن أحمد يعلم بأن الشرطة قادت أباه إلى المخفر في اسطمبول، حيث استجوبوه، وضربوه ليعرفوا المكان الذي يختبىء فيه إبنه. كان الأب يعرف أن أحمد في إزمير، لكنه لم يقل شيئاً. ولم يكن أحمد يدري.

ـ لقد فقد والدي مركزه بسببي حين كنت في موسكو. كان بإمكانه أن يصبح سفيراً، وها هو الآن وكيل فندق، ومالك الفندق رجل قذر...

ـ هل نفعتك الأدوية؟

ـ لا يمكن أن تُظهر نتيجتها بسرعة. لكنها ستنفع بالتأكيد. شكراً يا إسماعيل.

أعرف، لن تنفع الأدوية في شيء. ماذا يمكن أن يفعل البيراميدون ضد الكلَب؟ لكن هل أنا واثق من كلَبي؟ هل هذه الأوجاع في للفاصل، وهذه الحمّى عوارض الكَلَب؟ هل أنا

واثق مئة بالمئة؟ هل كان بيتروسيان واثقاً من أنه مريض بالسرطان؟ كلاّ. لم يكن واثقاً مئة بالمئة... كان يعرف، لكنه لم يكن يعتقد ذلك مئة بالمئة... وحين أتأكد من إصابتي بالكَلَب، حين أعتقد ذلك مئة بالمئة، سوف أشرب المنوّم. سوف أشرب عشرين قرصاً دفعة واحدة...

- إسماعيل، لم يبق لي حبوب منوّمة...

- سوف أجلب لك منها، لكن أرى من الأفضل ألاّ تعتادها...

لماذا لم أفكّر بذلك قبل الآن، بدلاً من أن أعاني كل هذا العذاب... طيّب. ولكن متى؟ غداً مساء؟ كلاّ. عليّ أن أنتظر... يجب أن أكون متأكّداً مئة بالمئة... إنها كالغصن، الغصن الذي يتشبّث به الغريق...

- المنوّم الذي كنت أستعمله لم يكن له مفعول يا إسماعيل، إشترِ لي منوّماً أقوى...

في داتشا أنوشكا: الخط السابع

- لكن ... ما هذه الخطوط يا أحمد؟

- إنه يومنا السابع يا أنوشكا، يبقى لنا إذاً، ثلاثة عشر يوماً.

- وبعد؟

ـ وبعد؟ أنتِ تعلمين جيداً. إجازتك وعطلتي تنتهيان، ونعود إلى موسكو...

أكذب. سنعود حقاً إلى موسكو، لكني أتصرَّف كما لو أن شيئاً لن يحدث بعد ذلك. بينما لن يمضي أسبوع أو عشرة أيام على عودتنا حتى أعود إلى تركيا مع كريم، إلى اسطمبول. أمّا نحن، فلن ننظّم سهرة وداع كالصينيين، إذ أن أوضاعنا تختلف. البوليس عندنا سيعلم على الفور بوصولنا. فنحن سنعمل ـ في العلن ـ في جريدة «الوضوح». والمهم بالنسبة لنا هو بلوغ اسطمبول دون أن يقبضوا علينا. لا يعلم برحيلنا سوى شخص أو شخصين في الكومنتيرن، وسوى الكومنتيرن وممثل حزبنا لا أحد آخر يجب أن يعلم. إنه لشيء غريب أن أخفي ذلك عن أنوشكا، وأن أتصرَّف معها كما لو كان أمامنا عام أو عامان نعيشهما معاً. بل وأكثر من ذلك. إن هذا ليقارب أن يكون دناءة من طرفي. ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟...

ـ لماذا تعدّ الأيام يا أحمد؟ أنا حين أذهب إلى المسرح، وتعجبني المسرحية، لا أتساءل مطلقاً عن الوقت الذي تدومه. آنئذ، أشعر كما لو أنها لن تتوقَّف أبداً...

ـ وهل أعجبتك المسرحية التي نشاهدها أنا وأنت، أو التي نمثلها بالأحرى؟

ـ أعجبتني جداً... غير أنني لا أحبّ هذه اللفظة: «نمثّلها»!... لا أعرف بالنسبة لك، لكن فيما يخصّني، لا يوجد

عدد كبير من النسوة السمينات يلبسن قمصاناً، وأطفالهن عراة صاخبين، يتفيأون بظلال الشمسيات ـ شمسيات سوداء للمطر ـ وبعضهم الآخر ممدّد في الشمس، على البطن، أو على الظهر، والبعض يسبح؛ إنهم يستأجرون داتشات في الغابة. وفي المساء، يلبسون أبهى حللهم، ويتسكّعون على رصيف المحطة.

إنزوينا لنخلع ملابسنا. وحين ظهرت أنوشكا في مايوهها الأزرق، بهرني جسدها، ذو الساقين الممتلئين قليلاً، مرة أخرى.

رحنا نسبح جنباً إلى جنب. كنت أرى رأسها الملفوفة بخمار أبيض، وذراعيها اللّتين تلتمعان في أشعة الشمس.

تمدّدنا على الشاطىء. كانت يدها في يدي.

ـ كم أنت جميلة يا أنوشكا.

ـ أنت تقول هذا للمرة الرابعة اليوم.

ـ وسوف أعيده لك وأكرّره حتى الليل، وفي الفراش أيضاً.

ـ لا تعجبني تلميحاتك هذه...

أرقب الناس الممدّدين تحت الشمس. أرى إبنة الراهب. جميلة وممشوقة. إنها تسلب عقول كل الشبيبة في القرية. وفي الداتشات، أفكّر بشاطىء باتوم. أتذكّر حمّام النساء في سكوتاري: سياجات تسوّره حتى في الماء. كان يسمع صياح النسوة. وأفكّر بخالتي جميلة، التي كانت في صباي تركنني بين ركبتيها لتحممني. وأحدّث أنوشكا عن ذلك.

ـ أنت ـ قالت ـ موهوب في تحويل الأشياء العادية إلى أشياء

فاحشة. إنك للئيم.

كنت أتجوّل في الغابة وحتى في المحطّة بسروال قصير، وكان جلّ الشباب الآتين من المدينة يلبسون سراويل قصيرة أيضاً.

عدنا إلى الداتشا. ماريا أندرييفنا، بخصلات شعرها الكستنائية التي بدأ يغزوها الشيب، تشبه أنوشكا: إن لها ذات العينين والساقين. ولدى دخولنا، قالت:

ـ هناك رسالة لكما يا طفليّ.

الرسالة من كريم وماروسيا. يخبراننا فيها أنهما قادمان لتمضية الأحد معنا.

سرّت أنوشكا للخبر كثيراً، وسررت أنا أيضاً.

تمدّدت أنوشكا تحت الصنوبرة الكبيرة التي تواجه الداتشا. فتحت كتبها، وانهمكت في دراستها. سوف تصبح مهندسة... وتناولت ريشتي، ورحت أرسم صورة لماريا أندرييفنا.

مديرية الشرطة: الخط الأول

اقتادوا إسماعيل ذات ليلة، وفي وقت متأخر، إلى مديرية الشرطة. كانت ناريمان حبلى في شهرها الثاني.

كانت مديرية شرطة اسطمبول في خان السنسريان الذي يقع وسط زقاق ضيّق من الأزقّة المحيطة بساحة أمينوني جوار محطة السركاجي. في نفس الزقاق خانات أخرى. لكنه خال من

الدكاكين والحوانيت. كان الخان ملكاً فيما سبق لأحد الأرمن الأثرياء، وهو يتوزّع على أربعة طوابق دائرة حول فناء واسع ومبلّط. هناك درجان يفضيان إلى الطوابق. القسم السياسي، والمكتب الرابع، والقسم الخاص بالشيوعيين تقع جميعها في الطابق الرابع. ولدى الوصول إلى الطابق الأخير، يشاهد باب فوقه هلالان، وهو ما يعني: ممنوع الدخول.

كان شتاء من تلك الشتاءات الرهيبة التي تعرفها اسطمبول أحياناً.

الفناء مليء بعربات من كل نوع. صعد إسماعيل مصحوباً برجال البوليس إلى الدور الرابع. فتحوا الباب ذا الهلالين، ودخلوا الغرفة. كان الرواق المؤدي إلى مكتب رئيس القسم محتشداً بالناس: «مشبوهون» يجلسون جنباً إلى جنب على صف من الكراسي. جلّهم مطأطئاً رأسه. وشرطي يروح ويجيء أمامهم. تابعوا خطى إسماعيل بنظرات جانبية. وعرف إسماعيل بعضهم. وقال في سريرته إذا كان الرواق محتشداً إلى هذا الحدّ، فهذا يعني أنهم اعتقلوا عدداً كبيراً هذه المرة. دخلوا مكتب المدير: طاولة عمل كبيرة. آرائك موقاة بالمشمّع. المدير رجل قصير وسمين، أصهب الشعر. في الغرفة خمسة من رجال البوليس يقفون بثياب مدنية. أحدهم مفوض شرطة. إسماعيل يعرف جيداً هذا المفوض الطويل والنحيف جداً، والأسمر جداً، ويعرف كذلك ثلاثة أو أربعة من الرجال الآخرين، فضلاً عن

أن التعرّف عليهم ليس بالأمر الصعب، فهم يرتدون جميعاً نفس البدلة الرمادية أو البنية المخطّطة، ونفس القبّعة اللبّدية الرمادية الغامقة.

قال المدير:

ـ ضياء هو الذي أعطاك الآلـة الكـاتبـة والأوراق، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف ضياء، ولا أحد أعطاني أوراقاً ولا آلة. لقد سبق وكرّرت هذا مرات في مخفر الشرطة، وقد فتّشتم بيتي. فلماذا لم تجدوا آلـة وأوراقـاً، إن كنـت أملكهـا... كما تقولون...

ـ يبدو أنك سلّمت كل شيء إلى كريم.

ـ كريم؟ من كريم هذا؟

يعيد المدير نفس الأسئلة بأشكال مختلفة، ويعيد له إسماعيل نفس الأجوبة.

ـ هاتوا السوط، قال المدير...

خرج أحد رجال الشرطة من الغرفة.

« هذه ليست هي المرة الأولى التي نعتقلك... أنت تعلم جيداً ما ينتظرك الآن... لقد اعترف الآخرون بكل شيء... وأنت ليس عليك إلاّ أن تقول لنا أين يختبىء ضياء وكريم، فنخلي سبيلك... ما رأيك؟ ما جدوى تعـذيبـك وتعبنـا... » أعـاد المدير للمزة الألف. كانت عينا إسماعيل مثبتتين على الجمر

المحمّر في الموقد الحديدي، وعقله يعمل بسرعة محرّك يدور بجنون: «لا بدّ أنهم أوقفوا عدداً كبيراً حتى لم يجدوا لهم مكاناً آخر سوى الرواق... من الذي اعترف؟ لم يجدوا بعد كريم وضياء. لكن، فيما عداي، من يعرف عنوانهما؟...»

رجع الشرطي بسياط مختلفة الأحجام، بعضها رفيع وبعضها سميك.

ـ اضطّجع...

هجم إسماعيل بعنف على المفوض ذي النظارات. كانت تلك طريقته، مع أنه كان يعلم جيداً، أنهم سينتهون إلى الإجهاز على حركته، لكنه لم يكن ليرضى أن يمتثل لإرادتهم بلا مقاومة. ثم، وحتى لو كالوا له الصاع صاعين فيما بعد، فقد كان يجد بعض القوة في مبادرتهم بالهجوم.

نهض المدير آنئذ. لم يستطع إسماعيل أن يلاحظ نهوضه، لأن الآخرين وثبوا وثبة واحدة، وطرحوه أرضاً، وانهالوا عليه رفساً، وركلاً، ولكماً، وصفعاً، مع وابل من اللعنات والشتائم. كان إسماعيل يتخبّط على الأرض، بيأس، كسمكة تحاول الإفلات من الشبكة. وفي كل مرة، يرى احمرار الجمر وراء ميكا باب الموقد الحديدي، كأن اللهيب يجتاح عينيه. وشدّوا قدميه، بمهارة، واقتعد صدره شرطيان، وخلعوا نعليه بسرعة وبخفة... رفع المدير السوط.

ـ هل قرّرت أن تتكلّم؟

ـ ليس لديّ شيء أقوله.

شرع المدير يضربه علي باطن قدميه. واحد... اثنان... ثلاثة... لم يعد إسماعيل يشعر بالوجع. ليس غير الغضب، بلا صراخ، بلا شتائم. من قال لهم إنني تسلّمت الآلة من ضياء وأعطيتها لكريم؟ كان المصباح المعلّق في السقف يؤلم عينيه. لم يخلعوا لي جواربي حتى لا يسيل الدم على الأرض. سوف تزرقّ أصابع قدمي، ثم تسقط أظافري. حلّوا وثاقه. أخذوه من إبطيه. كان يتخبّط، وكانوا يصفعونه. غطّسوا قدميه في ماء مثلّج، ثم أجبروه على السير. فعلوا ذلك، لأنهم يعلمون أن الأقدام ـ لفرط الضرب ـ تفقد حساسيتها. ومع الماء المثلّج، والسير، يدور فيها الدم من جديد. مدّدوه على الأرض مرة أخرى، واستأنفوا الضرب. عندما كان المفوض يمسك بالسوط، كان إسماعيل يعرف ذلك، ويميز ضرباته عن ضربات الآخرين... والآن، أتى دور المدير. شرع إسماعيل يصيح. كان الألم لا يطاق. توقّف المدير، ماسحاً العرق الذي يسيل على جبينه:

ـ هل قرّرت الإعتراف؟

ـ ليس لديّ ما أقوله.

وتوالت السياط. وانتبه إسماعيل فجأة إلى صياحه. كان يصرخ بأقصى جهده. كم مرَّ من الوقت منذ أدخلوه هذه الحجرة؟ لا يعرف. ساعتان ربما، وربما ثلاث. وفي السقف،

كـان المصبـاح يشحـب شيئـاً فشيئـاً، فيما الفجـر يطلــع على الشوارع...

ـ خذوه...

أمسكوه من ذراعيه. لم يعد قادراً على وطء الأرض بقدميه. راحوا يجرجرونه على الأرض. لاحظ إسماعيل صباح الشتاء وهو يعكس بياضه على النوافذ. كانوا يتقدّمون في الرواق. رفع الرجال الجالسون على الكراسي رؤوسهم لينظروا إليه. حاول بعضهم أن يبتسم. كان في ابتسامته شيء من الحزن، والخوف، والفضول. وكان فيها أيضاً بعض صداقة...

أنزلوه الدرج، محمولاً من إبطيه. كان نعلاه يتدلّيان ـ وهو يمسك بهما من الخيوط. وكانت رجلاه تتجرجران خلفه كأنما كسرت ركبتاهما. كان ضوء الصباح يزاوج ضوء المصابيح. أدخلوه زنزانة من زنازن الطابـق الأرضي. كـانـت أرضيتهـا إسمنتية. وجدرانها المطليّة بالكلس في حـالـة مـن القـذارة لا توصف. تركوه يسقط أرضاً. خلعوا له ملابسه بسرعة. لم يبقوا له سوى سرواله الداخلي الطويل، الذي يعقده حول ساقيه. جلس أسفل الحائط. كان المصبـاح المعلّـق في السقـف يشتعـل بفتور، وكانت أقدامه تؤلمه كأنّما جرحتها سكّين قاسية. أخذ رجال الشرطة صرّة ملابسه، وتركوه بعد أن أقفلوا عليه الباب. يا للبرد! بدأت أسنانه تصطكّ. راح يضرب صدره بقبضتيه على غرار ما يفعل الملاّحون ليتدفّأوا. إن هؤلاء الأقذار أسوأ حتى

من العسكر. حين كان في قبو السفينة، كان على الأقل يشعر بالحرارة. وفجأة، أحسّ أنه ليس وحيداً في الزنزانة. التفت: كان هنالك من يجلس على صندوق، وقد رفع ياقة معطفه، غير أن لحيته السوداء كانت ترى. كان يعتمر قبّعة، وهو يثبت عينيه على إسماعيل، فيما يداه تغوصان في جيبيه. «هذا ليس رفيقاً»، قال إسماعيل في سريرته.

ـ مرحباً.

ـ مرحباً.

ـ منذ وقت طويل وأنت هنا؟

ـ منذ أسبوع.

ـ وما السبب؟

ـ أنا ضحية إفتراء.

ـ طيّب، وما هذا الإفتراء؟

ـ اتهموني بطبع القرآن بالحروف العربية، وبيعه.

لم يسأل الرجل إسماعيل عن شيء، بل أغمض عينيه. حاول إسماعيل النهوض. كان ذلك مستحيلاً، فكأنه حين يلامس الأرض يضع قدميه على حديد محمًّى. كان الدم قد جمد في جاربيه.

ـ البرد شديد ههنا يا صاحبي.

فتح الرجل عينيه، ونظر إلى إسماعيل، ثم أغمضها من جديد. جلس إسماعيل على ركبتيه، وهو يكابد آلاماً حادة.

كانت ركبتاه قد تجمّدتا بفعل صقيع الإسمنت، فعاد إلى وضعه الأول. ثم ـ وقد سرّ للفكرة ـ وضع جواربه تحته.

لم يكن في الزنزانة نافذة.

تذكّر إسماعيل الخطوط التي كان أحمد يـرسمها على بـاب الكوخ بإزمير سنة ١٩٢٥. وفي الحين، خطّ بظفره على الحائط، الخط الأول. من الذي اعترف من بين الرفاق؟

لقد قبضوا على عدد كبير. كيف لم يتسنَّ لي معرفة ذلك؟ هل قبضوا على الجميع في ليلة واحدة؟

إنفتح الباب. دخل شرطي بالزي الرسمي. كان بيديه خبز وكيس من الورق.

ـ أبي...

فتح الرجل المقتعد الصندوق عينيه، وخطـا ليـأخـذ الخبـز والكيس، ثم عاد إلى مكانه على الصندوق. إنغلق الباب. فتح الرجل كيس الورق. كان فيه زيتون أسود.

ـ إنه إبني

ـ من هذا؟

ـ الذي جلب لي الخبز والزيتون.

ـ إذن، بما أنه رجل من البوليس، فسوف يستطيع إطلاق سراحك قريباً.

ـ إنه لا يستطيع شيئاً، قال الرجل وهو يمضغ. أنا ضحية مكيدة من أقذر المكائد...

أكمل أكل خبزه وزيتونه. وقف. ذهب ليتبوّل في السطل، وعاد ليعتلي صندوقه من جديد.

إنفتح الباب مرة أخرى. حان وقت الظهر بدون شك، فالإبن الملتحي، أحضر لوالده بعض الكريات من اللحم الملفوفة بالخبز، وزجاجة ماء. أكل الرجل. شرب. تجشأ.

ـ أأنت وحيد؟ سأل إسماعيل. إن لم يكن لك أهل يجلبون إليك الطعام، فسوف يقضي عليك من الجوع، هنا.

ـ أظن أنه سيقضي عليّ من البرد قبل ذلك.

مساء، انفتح الباب من جديد، وجاء الشرطي ليقدّم لأبيه لحماً وخبزاً. بدأ إسماعيل يشعر بالجوع. لا شك أن ناريمان أتته بالطعام. طرق الباب بقوة. فتح له شرطي بالزي الرسمي ـ هو غير إبن الملتحي ـ رجلاه مقوستان، حتى أن المرء ليتساءل حين يشاهده، كيف يستطيع هذا الرجل الوقوف، وله عثنون بطول إصبع

ـ ماذا حدث؟ لِمَ كلّ هذا الدويّ؟ سألها.

ـ إنه هذا الرجل يا سيدي، صاح الملتحي، دون أن يترك الوقت لإسماعيل كيما يجيب.

ـ ألم يجلب لي أهلي طعاماً؟

ـ سوف أسأل.

إنغلق الباب.

ـ ولا تعد إلى طرق الباب بهذه الطريقة. لو أتوك بأكل،

لكنت تلقّيته...

نظر إسماعيل إلى الرجل الذي كان ينظّف أسنانه بعود، نظرة غيظ.

إنفتح الباب. ظهر المفوض ذو النظارات مع شرطي آخر. ألقيا بأثواب إسماعيل على الأرض.

- ألم يأتني أحد بالطعام؟

- بلى، أتت زوجتك، ولم نأخذه منها.

- لماذا؟

- لن يضرّك الصيام لبضعة أيام.

أغلقا الباب، وانصرفا. لبس إسماعيل ثيابه بجهد. والآن، وبعد أن دفيء قليلاً، أخذته قشعريرة، وبدأ يرتجف كما لو أن تياراً كهربائياً يعبر جسده.

صرف الليل جالساً على حذائه. وقد رفع ياقة سترته - لم يعطوه معطفه. فجأة، يستيقظ مستشعراً عطشاً شديداً. كان الملتحي يغطّ على صندوقه. اقترب إسماعيل منه، زاحفاً. تناول الزجاجة، وشرب، جرعة، جرعتين. فرغت الزجاجة.

في الصباح، أيقظه صياح الملتحي:

- لقد شربت مائي.

- كنت عطشاناً...

- ممنوع عليك الأكل والشرب، سوف أشي بك...

انفتح الباب بعد قليل، ودخل الشرطي ليقدّم الخبز والزيتون

لأبيه.

- إبـراهيم، هـذا الرجـل شرب مـائـي ولم يترك لي قطـرة بالأمس.

- لا عليك يا أبي، سوف آتيك بالماء.

- ولكنهم منعوه عن الأكل والشرب.

- لا يهم... يستطيع أن يشرب قليلاً من الماء...

- طيّب، ولكنك ستجلب البلاء إلى نفسك، ألا يكفي أن أذهب ضحية مكيدة؟...

لم يجبه إبنه. كان شاباً أشقر. وكان زيّه وقبّعته نظيفين. خرج بالزجاجة، وعاد بها ملأى.

خطّ إسماعيل خطّاً ثانياً على الحائط.

عند الظهيرة، جلب الشرطي لوالده كـريـات لحم وخبـزاً. وبعد فترة، فتح الباب من جديد، وظهر المفوض ذو النظارات. لم ينظر إلى إسماعيل، بل خاطب الملتحي:

- إحذر من إعطاء الطعام لهذا الرجل أيها الشيخ، وإلاّ ألزمناك بالصيام أيضاً...

- لن أعطه شيئاً، كن مطمئناً...

بالتجربة تعلّم إسماعيل كيف يقضي شهوراً طويلة بين أربعة جدران. لكن، لا سبيـل إلى الكلام مـع هـذا الملتحـي. مـن الأفضل أن يعتبره شيئاً جامداً من جمادات الزنزانة. وراح يحدّق فيه تحديقاً مفصّلاً: إنه لا يزال يعلو صندوقه. ألا يفكّر بالنزول

عنه؟ أظافره طويلة وسوداء قذرة، وأصابعه مصفرّة كالشمع. أضف إلى ذلك أنفاً معوجّاً. سوف أعدّ حتى الألف، وفي الألف سينهض... وعدّ إسماعيل حتى الألف، وصاحبه لا يزال جالساً على صندوقه، لا يحرّك ساكناً. سوف أعدّ حتى الثلاثة آلاف. وبعدها سيغمض عينيه... وحين وصل إسماعيل إلى ألفين ومئتين وأربع وستين، أغمض الرجل جفنيه. لا أعتقد أن هذا المصباح يتجاوز خمساً وعشرين شمعة. إنه شبيه بالمصباح الذي في غرفة الحمّام عندنا... ما الذي هناك في السقف؟ هل هي بقّة؟ من أين يمكن أن يأتي البقّ إلى هذه الزنزانة؟ سوف أعدّ حتى العشرة آلاف، وسيفتح الرجل عينيه. وعدّ حتى عشرة آلاف، ولم يفتح الرجل عينيه. كم تبلغ قامة أمينة؟ هل تبلغ متراً؟ كلاّ، بل أكثر طبعاً. يجب أن أقيسها. أتراهم أخذوا الطعام الذي جلبته لي ناريمان؟ لا بدّ أنهم أكلوه. الأوغاد... يجب ألاّ أفكّر بالبرد، حتى لا أبرد...

إنفتح الباب. دخل الشرطي بالعشاء لوالده: خبز وحلوى. راح الملتحي يمضغ متمطّقاً، وقد التصقت بعض الحلوى بلحيته. ثم طرق الباب، ففتح:

- أريد الذهاب إلى المرحاض...

- أنا أيضاً، قال إسماعيل.

صاحب الحرس الملتحي، ثم أتى دور إسماعيل:

- إلى السطل، أمروه.

جرجر إسماعيل قدميه ليبلغ السطل. كان لا يقوى بعد على المشي. ساعده أحد السجانين. وفي الحمّام، ألصق فمه بالحنفية، وراح يكرع الماء بنهم. ثم عاد إلى الزنزانة. كان الملتحي يذرعها جيئة وذهاباً. أخذ إسماعيل يعدّ خطواته: خمسمئة واثنان وخمسين. ثم اعتلى الرجل صندوقه، ونام. لم ينم إسماعيل... في مثل هذه الظروف، على المرء أن يتجنَّب التفكير بكل ما هو خارج السجن. كان إسماعيل يعلم ذلك جيداً. ولا يجب أن يفكّر بأحبائه، بل بأعدائه، وبكل ما يثير غضبه... سوف يحقّقون معي هذا المساء بالتأكيد. هل سيضربونني من جديد؟ ولعدة ساعات، كان ينتظر، خافق القلب. غير أن الباب لم ينفتح.

لسعه الجوع. وأنا الذي كانت لي دوماً شهية يا صاحبي...

وفي الغداء قدّموا الطعام للرجل المعتلي صندوقه، صباحاً وظهراً، ومساء...

وجهد إسماعيل حتى لا يراه يأكل. كان ألم رجليه قد برد قليلاً، وقلَّ البرد. رسم الخط الثالث على الحائط.

أكل الملتحي، وفاحت رائحة اللحم والخبز الساخن.

- إنها للذيذة هذه اللحمة! لا بدّ أن إبني يذهب إلى بابيالي لابتياعها.

تمالك إسماعيل نفسه حتى لا يمطره بوابل من الشتائم، هو، ونساء سلالته السابقات واللاّحقات جميعاً... لم يستجوبوه تلك الليلة، ولا الليلة التالية. والرجل يصرف وقته في التهام اللحم،

والحلوى، والسجق، والخبز الساخن، ماضغاً مطرطقاً ومنظّفاً أسنانه بالأعواد، متجشّئاً، وحامداً الله ربّه.

رسم إسماعيل الخط السادس، وتمدّد على الإسمنت. فجأة، تذكّر حاشية «الباب ـ آدم» التي كانت ترعى الأعشاب الخضراء النضرة، تحت أسوار الفناء الجينوفية. هل يرتمي على هذا القذر، ويسرق منه سجقه؟... إنه يشعر بالغثيان، كأنّما تكشّط معدته بسكين. مع أني تعوّدت الجوع. مثل حمار الشيخ نصر الدين... هه؟ وحاول أن يتذكّر نادرة من نوادر الخوجة نصر الدين، ولم يفلح. وها هو الخط السابع مرسوم. ولا تزال نفس الأسئلة الثلاثة تزاوج كل شيء يراه، أو يسمعه، أو يحسّه، أو يفكّره. وتداخل كل شيء كوّن هذه الأيام السبعة: «من قال لهم إن ضياء أعطاني الورق والآلة الكاتبة؟ من قال لهم إنني سلّمت الورق والآلة إلى كريم؟ متى ينفتح الباب ويأخذونني إلى التحقيق من جديد؟» وتلك الليلة أيضاً، لم ينفتح الباب. لكن في الغد، وبينما كان الملتحي يلتهم اللحم «أحسن لحم في بابيالي»! قذفه إسماعيل بسطل البول، فأصاب رأسه. وأخذ الآخر يصيح بكل قواه، إلى أن جاء السجّانون، وأخذوا إسماعيل، بعد أن قيّدوا يديه خلف ظهره. تلك الليلة، ضربوه في حجرة من الطابق الرابع، مكسوة بطبقة من الجصّ. ضربوه، دون كلمة، حتى الإغماء. ثم جرجروه إلى زنزانة فردية مخصصة «للسياسيين»، وأغلقوا عليه. ورأى إسماعيل مرة أخرى رجالاً جالسين في

الرواق. كانوا جدد في الغالب. كان هنالك آغوب، طبيب الأسنان. وكان شعره الأشيب يلتمع في ضوء المصباح الكهربائي.

إزمير: الخط الخامس والعشرون

عندما دخل إسماعيل الكوخ، كان أحمد يرسم الخط الخامس والعشرين ء لم. وتراجع إلى الوراء حالما سمع الباب يفتح.

ـ مرحباً. ها أنت ذا تنهض. كيف هذه الحمّى؟

ـ يظهر أنها انخفضت.

ـ جئتك بمقياس حرارة. أتساءل لماذا لم يخطر ببالنا من قبل. ما رأيك يا صاحبي؟ خذه...

قاس أحمد حرارته: ٣٨ فاصل ٥.

ـ طيّب. لقد انخفضت الحرارة. كل ما هنالك أنك أصبت ببرد، لا أكثر...

لم يكن إسماعيل متأكّداً، وكذلك أحمد. غير أن الفرضيّة أعجبته، فتعلّق بها:

ـ أظن أنني مصاب بزكام. هل تسري حالياً في المدينة عدْوى الزكام الوافد؟ (: الجريب).

ـ آه، طبعاً...

« يكذب » .

ـ في المصنع أكثر من نصف العمال مصابون به .

« يكذب » .

ـ والشهية ، كيف هي ؟

ـ إنني أشعر بها يا إسماعيل . . .

« يكذب » .

ـ أظن أنه بإمكاني التهام خروف مشوي بأكمله . . .

ـ لم أجد خروفاً ، ولكني أتيتك بدجاج . . .

ـ هذا لطف . . . شكراً .

أكل أحمد شيئاً من الدجاج ، غير أن اللّقم في فمه كانت تكبر ، وتتضخّم . . .

ـ تناقصت أوجاعك بالنسبة للأمس ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ولكن شيئاً منها لا يزال . . .

ـ هذا طبيعي ، فالزكام لا يمرّ بسرعة . . .

ـ نعم . . . هو كذلك . . .

ـ لقد قلت لك إن أكثر من نصف العمال في المصنع . . .

ـ لم أعد أصرخ في الليل ، أليس كذلك ، يا إسماعيل ؟

ـ كلاّ ، لم تعد تصرخ هذه الأيام . . .

ـ هذا أفضل . . .

ـ طبعاً . . .

ـ هل قلت للرفاق إنني عدت إلى اسطمبول يا إسماعيل ؟

ـ نعم، بما أننا قرّرنا ذلك... رغم أني لا أرى جدوى. غير أنك عنيد يا صاحبي...

ـ حسناً... من الأفضل أن يعتقدوا أنني في اسطمبول. هكذا إذا حدث شيء...

ـ لن يحدث أي شيء مطلقاً. لقد كنت مريضاً، وانتهى الأمر... والآن، لننام.

قلّد إسماعيل صوّت البوق معلناً إطفاء الأضواء:

ـ كنا نعيش مقربة من ثكنة. لذلك أعرف إعلان وقت العشاء، واليفصة، وإطفاء الأضواء...

ـ إسماعيل... يجب أن تزور أنوشكا إذا ما رحت إلى موسكو...

ـ أنت ستعود قبلي حتماً...

«كلاّ... أنا سأقوم برحلة أخرى، أبعد من تلك... بعشرين قرص منوّم... إنني مشفق على نفسي... مشفق...»

ـ عندما تحين رحلتك إلى موسكو، بعد خمس سنوات، أو عشر ربّما، سوف تكون أنوشكا متزوجة، وأم أطفال. سوف تكون مهندسة في مصنع، وربما رئيسة مهندسين. باستطاعتي أن أتصوّرها بعد عشر سنوات، أو بعد خمس عشرة سنة... سوف تكون شبيهة بخالتها، ذات الشعر الأشيب. وستكون سمينة، تصنع المربّى، مربّى الفراولة، وساقاها أسمن عما هما الآن... يجب أن أعطيك عنوان الداتشا، واحذر أن تضيّعه...

ـ طيّــب... طيّــب... لاَ تنسَ أنني أعلنــت إطفــاء الأضواء...

ناما، والمحرّك يهدر: بت ـ بت ـ بت...

داتشا أنوشكا: الخط العاشر

كنت أتناول فطور الصباح مع ماريا أندرييفنا على الشرفة. مربّى فراولة، وحليب ـ أتى به بتشا ـ وخبز شعير. ولم تكن أنوشكا قد خرجت من الحجرة بعد.

سألتني ماريا أندرييفنا السؤال الذي لم أكن أتوقّعه. قالت ذلك بصوت خفيض حتى لا تسمعها أنوشكا:

ـ هل ستتزوج أنوشكا؟ أقصد، هل ستكتبان عقد زواج؟

ماذا كان بإمكاني أن أجيبها؟

ـ بالطبع... أجبت.

ـ آه... حسناً! يمكنها إذاً الذهاب معك إلى تركيا... إذ لا بدّ أنّك عائد عاجلاً أم آجلاً...

ـ طبعاً...

ـ وحتى إذا لم تتمكنا من الذهاب معاً، فهي ستلحقك فيما بعد... لذلك من الأفضل أن تكونا متزوجين... شرعياً... حسب القوانين السوفياتية...

ـ طبعاً...

جاءت أنوشكا. جلست. غيَّرت ماريا أندرييفنا الموضوع.

ـ سـوف أذهـب إلى السـوق، ربما استطعـت أن أقـايـض الفراولة بالدقيق...

كانت ماريا أندرييفنا تملك بستاناً مزروعاً بالفراولة. حوالى العشرين متراً مربعاً. وقد أعطى ثماراً كثيرة هذه السنة.

في الطريق المقابل، كانت تمرّ أسر النبهان. كنت في موسكو أتجوّل مع أنوشكا، ونحصي ما أضيف من حوانيت النبهان أو ما نقص منها. أمّا الآن، فقد حَلَّت محلّ النبهان مكتبات حكومية.

ـ سأذهب لقطف الفراولة، قالت ماريا أندرييفنا.

قضمت أنوشكا خبز الشعير المدهـون بـالمربّـى، والتمعـت أسنانها البيضاء.

ـ هل تعرفين الرماية؟

سألتها لمجرد الحديث. وحين أجابت: نعم، اندهشت.

ـ أنا لا أعرف.

ـ جائز...

ـ ألا يصدمك هذا؟...

ـ أبداً...

ـ متى وأين تعلّمت؟

ـ بعد مقتل والدي، قرّرت أن أتعلَّم الرماية.

ـ وبعد؟

ـ بعد موت أمي في سيبيريا، التحقت بفصائل المقاومة...

ـ لم تقولي لي ذلك قبل الآن.

ـ حاولت أن أكون مفيدة لمدة ستة أشهر أو سبعة.

ـ وكيف ذلك؟ حدثيني.

ـ سوف أحكي لك في يوم آخر... أمّا الآن، فسنذهب للسباحة. هيّا بنا، إلى الأمام، سر.

أنهض، وأرى «برافدا» الأمس: ١٢ حزيران ١٩٢٤. يو-بي-فو يأمر بإعدام كل قادة العمال في الصين... الأمين العام لاتحاد عمال السكك يعدم...

ـ ماذا دهاك؟

ـ الرعب في الصين...

اختطفت أنوشكا الجريدة من يدي:

ـ أين؟

ـ هنا، إقرئي...

قرأت الخبر، دون أن تقول شيئاً. وضعت الجريدة على الطاولة.

ـ هيّا بنا...

سرنا نحو البحيرة. لم أرَ في حياتي مثل ذلك العدد من البرغش. كنت وأنا أمشي، أضرب عنقي بكفيّ، ذراعي، صدري، وكانت أنوشكا لا مبالية.

ـ ولكن، ألا يقرصك البرغش؟

ـ لا، لا بدّ وأن جلدك أرقّ من جلدي...

كنت أفكّر بلا انقطاع فيما قالته لي ماريا أندرييفنا: يستحيل أن أعود إلى تركيا مع أنوشكا. أمّا أن تلحق بي فيما بعد، فهذا أيضاً من قبيل المستحيل...

كنا نتمشّى جنباً إلى جنب، ثلاثتنا. أنا، وأنوشكا، والفراق... «إسمع ما يقوله الناي الباكي على فراق الأحبة...»

- ماذا تتمتم يا أحمد؟

- بيتين من قصيدة شاعر صوفي كبير...

ترجمت لها البيتين إلى الروسية. وكشفت لها أيضاً عن معناهما الصوفي: الناي المصنوع من قصبة انتزعت من دوح القصب، يبكي عزلتها. كذلك حال الإنسان، الذي هو جزء من الكوني، أي من الله. إذ يفارقه، يشكو بعده عنه هو أيضاً.

- أنشد لي هذا الشعر بالتركية...

- القصيدة فارسية في الأصل، لكنها مترجمة إلى التركية. سوف أنشدها لك باللّغتين.

وأنشدت.

- إنه لإيقاع جميل في اللّغتين... أتعرف أنني حين أسمعكما تتحدّثان بالتركية - أنت وكريموشكا- أصغي إليكما، وأعجب باللغة.

- لماذا تسمّينه كريموشكا؟ أنا لم تناديني أبداً أحمدوشكا.

- نعم... صحيح... غريب هذا... لماذا؟ حين أفكّر بك

أقول أحدوشكا. لكني لا أقولها لك مباشرة، ولا أدري لِمَ لا أفعل.

سبحنا، ثم تمدّدنا متحاذيين، متلاصقي الكتفين. كنت أمسك بيد أنوشكا.

ـ هل تحنّ إلى اسطمبول؟

قالت ذلك كأنها لا تسألني أنا، وسحبت يدها من يدي.

ـ يدك... لماذا سحبتها؟

ـ لا أعرف... ربّما... لكي تجيبني بيسر...

تحسّست يد أنوشكا، دون التفاتة، وضغطتها بقوة. وبنفس النبرة سألتني:

ـ لِمَ لا تجيبني؟

ـ ليس الجواب صعباً... تعبرني أيام متتالية لا أفكّر إلا في وطني. ثم فجأة، تعرفين... تصفعني رائحته... وآنئذ، ولعدة أيام، وأسابيع، أعود لا أعرف سوى تلك الرائحة، ويصبح حنيني ورغبتي في الرحيل من القوة بحيث لا يمكنني أن أسكن ألمي أحياناً سوى بالبكاء...

ـ أفهم ذلك...

ـ دعي لي يدك...

ـ لكن قل لي أي نوع من الحبّ هو، وأي نوع من الروائح؟

ـ إنها ليست رائحة البحر أو الأرض أو الصنوبر، كلاّ... وليس حبّي لوطني جغرافياً... هناك طبعاً بعض المناظر التي لا

تزال تسكن عيني وتناديني... غير أن رائحة الوطن وحبّ الوطن، هـو حـبّ البشر الذيـن فيـه... وحين أقـول البشر، أقصد...

ـ طبعاً لا تقصد البرجوازيين...

ـ لا، فالبرجوازيون ليسوا بشراً بالنسبة لي. إنهم لا أتراك، ولا روس، ولا فرنسيون. إنهم ليسوا بشراً...

ـ هذا ما أعتقده أيضاً.

تلامس كتفانا.

ـ وإذا سنحت لك الفرصة بعد شهر، أو بعد أسبوع، أو غداً... أتعود إلى اسطمبول؟

ـ لماذا اسطمبول؟

ـ وأين تريد الذهاب إذن؟

ـ نعم... إلى اسطمبول بالتأكيد، وقبل كل شيء...

ـ طيّب، أتريد أن تذهب الآن؟ في هذه اللحظة بالذات؟ أتريد أن تكون هناك؟ لماذا تركت يدي؟ دعني، كلاّ، لا تلمسني... هل تريد ذلك يا أحمدوشكا؟... أحمدوشكا؟... إنني أفهم... معك حق... هيا، لنذهب من هنا، لقد بردت فجأة...

إرتدينـا ملابسنـا دون أن نتبـادل كلمـة. الآن؟ في هـذه اللحظة؟ نعم ولا... في نفس الوقت...

في الطريق، إقترحت على أنوشكا أن نمرّ لزيارة باغريتسكي.

إنه أحد أحبّ الشعراء الروس إلى نفسي. رجل جدير بكل تقدير. رجل بأتمّ معنى الكلمة.

وجدناه أمام باب بستانه. إبتسم لنا بفمه الأدرد ـ ربما كانت له أسنان ـ غير أني أتصوّره دائماً بلا أسنان قطّ.

ـ مرحباً عثمان باشا.

هكذا يناديني دائماً، بسبب عثمان باشا الذي كان رائد قاعدة بليفني.

ـ لكم أنت جميلة يا أنوشكا، إنك أشبه بحقل قمح تحت الشمس.

إن أحبّ شيء إليّ في باغريتسكي، هو رومنطيقيته الثورية ورجولته. تلك الرجولة التي تعرف كيف تحبّ وتخصب الشجرة، والعشب، والقاطرة، والربيع... أرى أن الشاعر الحقيقي، أو الرسّام الحقيقي، لا ينبغي أن يكون عنيداً.

دخلنا، كانت الداتشا صغيرة، معتمة، ورطبة. كانت أسماك يابانية تسبح في أحواض زجاجية، وعصافير تزقزق في أقفاصها. غير أنّك تشعر في تلك العتمة أنّها تطير، وأنّها تسبح بكل حرية، لكأنّ الحرية حاضرة دوماً مع باغريتسكي.

وأحضرت لنا زوجته الشاي. كانت إمرأة نحيلة.

قرأ لنا باغريتسكي قصائده الجديدة، بصوته الدافىء، الآتي من بعيد. لكم أحبّ هذا الرجل. لكم أحبّه. أستطيع قضاء أيام بين أسماكه وعصافيره ناظراً إلى عينيه الأخويتين. وفي هذه

الغرفة الغارقة في العتمة، تهبّ ريح بحر أوديسة؛ ريح البحر الأسود المتمرّدة.

ثم نمضي. وأترك جزءاً من قلبي هناك، عند إدوار باغريتسكي.

عادت ماريا أندرييفنا بالبطاطا عوضاً عن الدقيق.

منتصف الليل مضى منذ فترة، وأنا وأنوشكا مضطّجعان جنباً إلى جنب. النوافذ مفتوحة، والستارات مسدلة دوماً بسبب البرغش. لا يمكننا حتى إشعال الضوء. أنوشكا تنام على ظهرها، عارية. إنها تتنفّس تنفّساً خافتاً، كطفلة. أمسك يدها. لا أدير رأسي، ولا أنظر إلى جسدها العاري الملتمع في ضوء القمر. وفي داخلي، يطلع شيء ثقيل، لزج، وأسود. قلبي يدقّ بجنون. أضغط يد أنوشكا. أضغطها بقوة. وأثبت نظري على ضوء القمر يتخلّل الستر الحريرية. وها يكتسح جسمي ذلك الشيء الغامض، ويأسر ذراعي، وساقي: هل ضاجعت أنوشكا سي ـ يا ـ وْ، نعم أم لا؟ لا أدري. ولن أدري أبداً. لا أقدر أن أتصوّر حركات الحبّ التي قاما بها على ديوان ماروسيا ـ أعرف ذلك الديوان الذي في حجرة ماروسيا ـ أستطيع أن أراهما ربّما، لكنّي أدفعها بكل ما أوتيت من جهد، وأفكّر أنّهما كانا قريبين جداً من بعضهما. آنئذ فقط يكون الرجل والمرأة قريبين من بعضهما كل القرب، ولا مسافة تفرّقهما. إن هذا القرب بالذات هو ما يجنّني. إنها فكرة كون أنوشكا اقتربت إلى ذلك الحدّ من

رجل آخر. طيّب. ولكن حينما أمضي، سوف تلتقي أنوشكا رجلاً آخر. سوف تتزوج. وربّما سجّلا العقد في المحكمة. هذا صحيح. في ذلك الحين، أكون بعيداً. أكون غير موجود بالنسبة لأنوشكا، ميّتاً... لا، ليست المشكلة هنا. المشكلة أكثر تعقيداً. تركت يدها. نهضت. ارتديت ملابسي، خرجت لأتمشّى في الغابة، تحت ضوء القمر.

إزمير: نهاية الخط الخامس والعشرين

ـ إسماعيل...

لم يستيقظ إسماعيل...

ـ إسماعيل... كرّر أحمد رافعاً صوته.

ـ ماذا هناك؟ ماذا بك؟ أناديتني؟

ـ ليس هناك شيء... معذرة، ولكن...

ـ تكلّم إذاً يا صاحبي، ماذا هناك؟

ـ نسيت أن تجلب لي حبوب المنوّم.

ـ لم أستطع شراءها. إنها لا تباع بدون تقرير طبّي. سوف أطلب غداً تقريراً من طبيب أعرفه. حاول النوم. هيّا، عدّ حتى الخمسمئة...

ـ أرجو أن تعذرني...

ـ هيّا، لا عليك. نم...

لماذا أيقظت إسماعيل؟ إنني كريه. كان بإمكاني أن أكتب له على طرف ورقة «لا تنسَ حبوبي المنوّمة» ثم أضعها فوق ملابسه.

أتقلّب على يميني. أتقلّب على شمالي. أستلقي على ظهري. أسبل ذراعي إلى جنبي مثلما يفعل الموتى في قبورهم. سوف أتمدّد هكذا في الحفرة، مثلما يتمدّد الأموات في قبورهم. آه! تبّاً للسماء! تبّاً!... هل يحرقون الموتى في موسكو؟ أليس من الأفضل أن أُحرق إذا متّ؟ إنني أقول حماقات. إذ، هل يهمّني ما يفعلونه بي حين أموت؟... طيّب. ولكن إنجلز رغب في إحراق جثته. لقد أراد أن يذرّ رماده في المحيط... وهو ما فعلوه. إنه أحد أكبر الشيوخ حكمة في هذا العالم. وهو أصغر الرومنطيقيين، إنجلز... ينبغي أن أنام... ما من حلّ آخر... ينبغي أن أنام...

حتى قبل أن أستيقظ على صوت إسماعيل الذي كان يهزّني، سمعت صراخي. سمعت صوتي المرعب. سمعت نفسي أصيح كما لو كنت أذبح. وبدا لي أنني كنت أصرخ منذ ساعات. ولم أستطع التعرّف على المكان الذي كنت فيه: كنت في موسكو، في حجرة أنوشكا، وكنت في البيت الذي على ضفة البحر. وكنت في الحفرة، وقد أقفلوها عليّ.

ـ لكن، هلاّ أفقت يا صاحبي!...

أمسكني إسماعيل من كتفي، وهزّني، أشعل المصباح.

كان يمسك بشيء في يده. شيء لم أكد أراه لحظة حتى أخفاه وراء ظهره.

- لا تخف يا إسماعيل.

كان ينظر إليّ بعينين بدتا لي مشدوهتين.

- ولماذا أخاف؟ ممّ أخاف؟

- إهدأ يا صاحبي. أتريد قليلاً من الماء؟

- لا ، شكراً.

- كيف الحال؟

- بخير... لا تطفىء الضوء...

عاد إلى فراشه.

- حاول أن تنام.

- نعم... وأنت أيضاً.

ولكننا لم ننم تلك الليلة. ولم نتبادل الحديث. وحتى الصباح، راقب أحدنا الآخر كما يرقب الصياد وفريسته بعضهما بعضاً.

اسطمبول: خطوط مديرية الشرطة

الزنزانة التي حبسوا فيها إسماعيل مظلمة. هؤلاء الأوغاد يعبدون الظلام. كان العسكر قد حبسوني في قبو مظلم أيضاً. لم يكن إسماعيل يميّز الليل من النهار إلاّ حين يعبر الرواق متجهاً إلى الحمّام. إنه لا يزال يرسم على الحائط خطوطاً. لكنه لم يعد

يستطيع عدّها. ولم يعودوا يحقّقون معه. إنه ينتظر. ويكرّر بلا انقطاع: «سوف يأتون ليأخذوني. سوف يأتون الآن. سوف يضربونني من جديد...» ويعيد ذلك، حتى الإرهاق، وانهيار الأعصاب. الأوغاد! هذه طريقتهم في تعذيبي. هكذا يأملون أن يروني منهاراً... إنهم يقدّمون له الطعام الآن. كان يشقّ عليه أن يأكل في الظلمة أول الأمر، لكنه تعوّد ذلك. كان إسماعيل يعلم جيداً أنه بإمكانهم حبسه هناك ثلاثة، خمسة، تسعة أشهر بدون حتى أن يستجوبوه. ألم يفعلوا ذلك مع ضياء سنة ١٩٢٨ حين سجنوه سنة كاملة بعد تعذيبه؟ أما إسماعيل، فهو لم يذق شيئاً من العذاب بالقياس إلى ضياء. لقد خلعوا ملابسه، وقيّدوا يديه خلف ظهره، ثم أحرقوا صدره، وبطنه، وساقيه بسجائرهم. وقد أراني ضياء آثار الحروق، بقعاً سمراء على كامل جسمه. لقد قلعوا له ظفرين من أظافره: ظفر خنصر يده اليمنى، وظفر بنصر يده اليسرى.

في كل مرة يعبر الرواق، يرى إسماعيل رفاقاً آخرين. لكن. آغوب، طبيب الأسنان، لا يزال في مكانه ذاك، جالساً على الكرسي. يبدو مذهولاً، وكأنه غاب في دوامة الحشيش. بل لقد سقط من كرسيه ذات مرة أمام إسماعيل. أنهضوه على الفور، وأجلسوه على الكرسي وهم يتهكّمون: «يا سيد آغوب العزيز، تفضّل بالجلوس...» فهم إسماعيل. كانوا يعذّبونه بحرمانه من النوم. إنهم يمنعونك من النوم أيّاماً متتالية، ويتناوب الحراس

لحراسة « يقظتك ». وما أن تغمض جفنيك، حتى يرجّونك ويوقظونك. وتنتهي بالسقوط كركام. لكنهم ينهضونك، ويجعلونك تقف. ولمّا كان آغوب طاعناً في السنّ، أعطوه كرسيّاً.. بعد أيام من ذلك، رأى إسماعيل انهيار آغوب مرة أخرى. أوقفوه. لقد مرَّ حتى الآن ستة وعشرون أو سبعة وعشرون يوماً، وآغوب جالس على كرسيّه أبداً. يسقط عنه. ينهضونه. وفي كل مرة، يصطدم رأسه بالأرض. حتى تجمَّد الدم على شعره الأبيض، وتورَّم وجهه.

في الطابق الرابع، وأمام الباب المختوم بالهلالين، تقف أمّهات الموقوفين، ونساؤهم، وأخواتهم.

مرّت شهور عديدة على اعتقال إسماعيل. ولأن ناريمان مريضة، كان يتوجبّ على عثمان بك أن يحمل الطعام إلى صهره. أنا لي شغلي، ليس عندهم ضدّي أي شيء. لكنني أرى أن على إسماعيل أن يتعقَّل قليلاً، لا أقول إن عليه أن يتخلّى عن أفكاره. لكن مع ذلك، إنه على وشك أن يصبح أباً، وأمينة بمثابة إبنته... لا أقول إن عليه التخلّي عن الشيوعية، لا. ولكن لماذا يعرّض المرء نفسه للخطر؟

التقت ناريمان أخت كريم أمام الباب ذي الهلالين. لقد أوقفوا كريم منذ خمسة وعشرين يوماً، أي بعد إسماعيل بشهرين. أخت كريم إمرأة سمينة، مسنّة، ومبتسمة دوماً. كانت لها طريقة خاصة في صعود الدرج، جرياً، حتى ليعتقد المرء أنها

طفلة.

- التقيت كريم منذ شهر في الباص، قالت لها ناريمان. كان في الطرف الآخر من الباص، وما كدت أخترق الزحام لألحقه حتى كان الباص قد توقّف، ونزل. فنزلت وراءه. كان يمشي بسرعة ودون التفات، وكنت أركض خلفه. ثم سلك زقاقاً، وصار يعدو. آنئذ فقط فهمت أنه لم يكن يريد ملاقاتي.

كانت أخت كريم تمسك بانية الطعام، وبأربع ورود حملتها معها من سارير. قدّمت لناريمان وردة، وقالت:

- هذه الورود زرعها كريم في الحوض الزجاجي الذي بناه بيديه... أتعرفين يا طفلتي أنهم يتبعوننا لدى خروجنا من هنا، ليعرفوا إلى أي مكان نذهب، ومع من نلتقي؟ بسبب ذلك سعى كريم إلى تجنّبك. هناك رجل ذو وجه مجدور لا يفارقني كظلّي. أمس الأول، خرجت من هنا باكراً، وكان المجدور بانتظاري. رحت إلى الحمّام، ومكثت فيه حتى المساء. ولدى خروجي، رأيته واقفاً على الرصيف المقابل. كان الثلج يندف. وكان القذر يرتعش من البرد... أتظنّين أنهم يعطونهم كل ما نجلبه لهم، أم أنّ الطعام ينتهي إلى بطون البوليس؟

صاحت إمرأة:

- من واجبكم أن تقدّموا هذا الطعام الساخن إلى زوجي... فهو مسلول...

إنفتح الباب ذو الهلالين أخيراً، بعد ساعتين من الانتظار؛

وأخذ رجال البوليس آنية الطعام والورود أيضاً.

- لا تصيحوا، أرجوكم...

- وأنتم، ليس من حقّكم أن تدعونا ننتظر لساعات.

كانت المرأة المحتجّة شابة ذات جمال غريب. إنها إبنة نائب في البرلمان، وزوجها شيوعي. وهو رجل شديد السمرة. ضربوه مرتين، ولم يستطع الصمود، فتكلّم.

قالت أخت كريم:

- إنني لأستغرب أن تحبّ فتاة ذكية وشجاعة مثل نجلاء هذه رجلاً مثله... لقد تخلّت من أجله عن كل شيء، وأنكرها أبوها وعائلتها. لكن الشرطة مع ذلك لا تزال ترهب والدها... يقول المثل، الحبّ عصفور يحطّ في كل مكان، سواء كان روثاً أو ورداً... وأنا لا أستغرب كونها تخلّت عن أهلها، وثروتها لتحبّ شيوعياً. لكن كان بإمكانها أن تجد لها رجلاً مثل أخي - وابتسمت عن صف منتظم من الأسنان الجميلة - ولكن ماذا تريدين؟ القرد في عين والده غزال...

كانت النسوة واقفات ينتظرن أن نعاد إليهن أوانيهن فارغة..

إنفتح الباب ذو الهلالين، وظهر شرطيان، يتبعهما أربعة سجناء محمّلين بقفاف الفحم، التي يملأونها لإشعال مواقد المكاتب. إنهم ليسوا أقرباء النساء الحاضرات، لكنهم يبتسمون مع ذلك بسرور. وعلى الفور، فتحت نجلاء جريدة. أحد

المساجين قرأ عنوان الجريدة الفرنسية «لومانيته»: «الشيوعيون يعذّبون في تركيا... الديمقراطيون في العالم بأسره...» ولم يتسنَّ له أن يقرأ أكثر من ذلك، إذ دفعه الشرطي:

ـ هيّا، تقدَّم، بسرعة...

ـ أوَتجرؤون على إيذائهم حتى هنا، أمام أنظارنا؟ صاحت نجلاء. حدجها الشرطي وواصل طريقه. نزل السجناء الدرج، وفي أيديهم القفاف.

ـ آمل أنهم لا يعذبون أخي، همسَت أخت كريم. لقد طلبت مرات أن يسمحوا لي برؤيته، ولم يقبلوا...

ـ أنا ـ قالت ناريمان ـ لم أرَ إسماعيل منذ اعتقاله...

كريم في «التّابوت»، وللتّابوت حيطان وسقف من الإسمنت، وباب خشبي. إنه يتّسع بالكاد لرجل واحد وحين يكون واقفاً، إذ يكون الظهر والكتفان لصق الحائط، والركبتان مضغوطتان بالباب.

إنه اليوم العشرون الذي يقضيه كريم هناك. وطيلة خمسة أيام لم يذق طعاماً. إنه يخرج مرة واحدة في اليوم من «تابوته» ليذهب إلى المرحاض. وجبة واحدة في اليوم يتناولها في التابوت. واقفاً أبداً، وسط الظلام تارة، ووسط الضوء تارة أخرى، فالظلام من جديد...

إنه اليوم الثالث والعشرون الذي يقضيه كريم هناك. وحين يخرج إلى المرحاض. يرافقه رجال البوليس لمساعدته على المشي.

إنه اليوم الخامس والعشرون الذي يقضيه كريم هناك. لم يعد يفكّر. فقد ملكة التفكير. لم يعد يحسّ بتعبه، لأنه يحس شيئاً آخر غير التعب. ظلام، ثم ضوء، فظلام... في البدء، كان يغلق عينيه. كان يضغطها بقوة ليهرب من هذا الظلام، الضوء، الظلام... وها هو الآن يغمض عينيه، ويفتحهما، يغمضهما، يفتحهما، يغمضهما، يفتحهما...

في ليلة اليوم السادس والعشرين، أخذوا كريم إلى مكتب المدير. كان إسماعيل هناك أيضاً. على طاولة المدير، كانت ثلاث ورود حمراء تذبل في كأس.

ـ أتعرفه؟ سأل المدير إسماعيل.

نظر إسماعيل إلى كريم، رأى عينيه تنفتحان، تنغلقان، تنفتحان من جديد. كان وجهه كله ـ وليس فقط عينيه ـ ينثني، وينقبض، ثم يسكن. وفهم إسماعيل: إنه «التابوت»...

ـ لا أعرفه.

ـ لكنه يعرفك.

ـ إنه يكذب.

ـ أليس هو الذي أعطاك الورق والآلة؟ سأل المدير كريم.

صمت كريم. لم يكن في هذه الغرفة. كان في عالم آخر. عالم يضيء وينطفىء. يضيء وينطفىء. يضيء وينطفىء. وجهه لا يزال ينقبض ويسكن، والشرطيان يمسكانه، حتى لا يسقط.

كان إسماعيل يعرف أنهم وضعوا كريم في «التابوت» لأنه لم

يقل شيئاً.

وانبرى المدير يصيح بكريم:

ـ أيها الشّقيّ! نحن نعلم أن هذا الرجل هو الذي أعطاك الورق والآلة، لمن أعطيتها؟ أجب.

نظر إسماعيل إلى عينيّ كريم، وتملّكته رأفة عظيمة. إنهم سيقذفون بهذا الولد المسكين إلى الجنون.

ـ مدّدوهما على الأرض...

ـ هيّا... لقّنوهما درساً... هذان الوغدان...

وكالعادة، قاوم إسماعيل، فيما انهار كريم على الأرض.

ـ خذوهما...

وعاد كلاهما إلى زنزانته أو «تابوته». ثمانية أيام بعد ذلك، جنَّ كريم. أخذوه إلى المارستان في منتصف الليل.

إزمير: الخط الثامن والعشرون

تراجع أحمد إلى الوراء خطوة أمام الولاّعة المشتعلة التي مدّها إليه إسماعيل، وعبرت رأس إسماعيل فكرة، رفضها، ولم ينبس.

ـ ليست هي الولاّعة... ولا النار، قال أحمد. لكني خفت. اعتقدت أنك ستحرق لي شاربي...

أدركت غباء ما قلت، فسكتّ.

أويا إلى فراشهما. إنتظر أحمد أن يغطّ إسماعيل في النوم، ثم

نهض. وتحسّس بيديه مكان الولاّعة، على الطاولة. أخذها، وقرّبها من عينيه. إنتظر قليلاً، ثم أشعلها. أحرق اللهب عينيه. أغمض جفنيه. فتحها. نظر إلى الشعلة. هل أخاف منها؟ وحدّق فيها. كلاّ. إني لا أخافها. لا أخافها. أطفأ الولاّعة، وتمدّد على الفراش، وهو يمسكها دائماً. إنتظر قليلاً، ثم أشعلها. أغمض عينيه مرتعباً. لقد خفت. أطفأها. هي ذي البدايات. أخاف النار. ولكن الماء؟ إني لا أخافه. أي خوف يسبق الآخر؟ الخوف من النار أم من الماء؟ يجب مراجعة الكتاب. الكتاب على الطاولة. ما العمل؟ كيف أقرأه في الظلام؟ وقف. فتح الكتاب. سوف تظهر الصفحات من تلقاء نفسها الآن. أوقد الولاّعة، دون أن يثبّت نظره على الشعلة. وعلى ضوئها، راح يقلّب الصفحات، ويقرأ. تبّاً للسماء! إنهم لا يحدّدون... أعاد الكتاب إلى مكانه. أطفأ الولاّعة، وعاد إلى فراشه. الوقت لا يزال باكراً على شرب المنوّم. أستطيع أن أنتظر يوماً أو يومين آخرين.. أو ثلاثة. إذن، لم يبق لي سوى يومين أو ثلاثة. وفي غضون يومين أو ثلاثة، أقول لك وداعاً أيها الرفيق أحمد. إن الشفقة تعصر حلقي... هذه الشفقة التي آخذ بها نفسي منذ أيام...

داتشا أنوشكا: الخط الرابع عشر

أرسم الخط الرابع عشر. أنوشكا تقف بجانبي. أعدّ: بقي لي ستة أيام أخرى هنا، ثم أسبوع أو عشرة أيام في موسكو. وبعدها، وداعاً يا أنوشكا.

أنظر إليها:

ـ أعطني يدك يا أنوشكا.

أضغط يدها الطريّة، ذات الأصابع البيضاء. هناك يكمن الفراق. إنه في راحتينا المضمومتين إلى بعضهما. لكن أنوشكا لا تعلم شيئاً.

ـ سنتأخّر يا أحمد. وبعد عودتنا، علينا أن نذهب إلى بتشا أيضاً، فلربّما كان مريضاً.

منذ يومين لم يأتِ لنا بتشا بالحليب.

ـ حسناً، لنذهب.

في المحطة، كان النهّان الذين لبسوا أبهى حللهم يتجوّلون ذهاباً وإياباً فوق الرصيف الخشبي. وفي الغابة ترى كذلك داتشات جامعة الشرق. طلاب صينيون، ويابانيون، وإيرانيون، يتنزّهون. وكانت هناك إبنة القس أيضاً. كانت تغازل حسين زاده الإيراني. وهما في غدو ورواح جنباً إلى جنب. لا يوجد طالب تركي واحد هنا. كان هناك عدد كبير من الفلاحين، بأكياسهم، وقفافهم. كما يشاهد أيضاً بعض الأطفال المتشردين.

نزل كريم وماروسيا من القطار. تعانقنا. كانت ماروسيا ترتدي سترة جلدية قديمة، وعلى رأسها شال أحمر.

ـ في عشر سنوات أو في مئة سنة ـ سوف ترسم صورتك هكذا يا ماروسيا. وفتاة الكومسومول هكذا تكون ملابسها في الأفلام والمسرحيات والروايات.

ماروسيا فتاة جميلة. عيناها عسليتان وشعرها كستنائي.

ـ ذلك أن الطقس كان غائماً هذا الصباح ـ قالت، فارتديت سترتي.

ـ إخلعيها، الجو حار هنا.

خلعت سترتها الجلدية، وانطلق صدرها تحت الفستان.

ـ أيها القذر! ـ قال لي كريم بالتركية، ـ أنت عاشق حتى الجنون، غير أن هذا لا يمنعك من مغازلة نساء الآخرين.

وفي الطريق، حدّثتنا ماروسيا عن المصنع الذي تعمل فيه. ثم تحدّثنا عن «البيزبريزورني»، عن هؤلاء الأطفال المتشردين، ذوي الوجوه التي لا توصف قذارتها، والأسمال الممزّقة، الذين اعترضناهم في المحطة. إنهم يذكّرونني بأطفال الفلاحين الأتراك في الصيف. وحدّثتنا ماروسيا عن رأي كروبسكايا في هذه المشكلة.

ـ إنهم يهتمون كثيراً بالأطفال المشردين في المصنع، قالت.

وصلنا القرية التي يسكنها بتشا. لم نكن نعرف مكان بيته، ولم يكن يوجد أحد أمام البيوت المتراصة على جانبي الطريق،

ولا في الأفنية. تلفتّ إلى اليمين وإلى اليسار، فرأيت رجلاً أمام بيت: سقفه المبني من قصب قد جدّد. إطارات النوافذ مزيّنة بخشب مخرّم. كان الرجل ذو لحية، يحتذي جزمة.

ـ إنتظروني هنا، سوف أذهب لأكلّمه...

إقتربت من الرجل:

ـ مرحباً يا رفيق. هل يمكنك أن تدلّني على بيت بتشا، إبن داريا ميخايلوفنا؟ ـ والد بتشا من شهداء الجيش الأحمر في الحرب الأهلية ـ وبتشا يجلب لنا الحليب.

ركّز الرجل نظره عليّ طويلاً، قبل أن يجيبني:

ـ هل أنت تتريّ؟

ـ كلاّ، أنا تركي. من تركيا، من اسطمبول...

حكّ الرجل لحيته، ورمقني بنظرة حادّة:

ـ إذن أنت تركي. ماذا تفعل هنا؟

ـ أنا طالب في الجامعة.

ـ كالصينيين ذوي العيون المائلة الذين يسكنون تلك الداتشات؟

ـ نعم.

وهل تسكن معهم في تلك الداتشات؟

ـ كلاّ، بل عند بعض الأصدقاء.

لحقت بنا ماروسيا. كان الرجل لا يزال يحدجني بنظرة شزرة:

ـ إذن، بتشا يجلب لكم الحليب كل صباح؟

لقد بدأ يزعجني بطريقته هذه:

ـ نعم، وهل يهمك الأمر؟

ـ تقول وهل يهمني؟ أنتم تأكلون خبز الروس وتشربون حليبهم. ماذا تفعلون هنا؟ تتذرعون بالثورة العالمية وتتوكّلون علينا، في الوقت الذي لا يجد فيه الروس كفايتهم من الخبز والحليب.

ـ أيها الكولاك الخنزير، قالت ماروسيا. وراحا يتشاجران.

أخذ الرجل يشتم، وماروسيا تردّ عليه الشتائم. ولحقنا كريم وأنوشكا، وتبعها سكان القرية، رجالاً ونساء وأطفالاً. وسرعان ما التأمت حلقة حولنا. كان بعضهم يساند الكولاك، وبعضهم الآخر يشجع ماروسيا.

ووصلت أمّ بتشا:

ـ بتشا مريض، قالت. والتفتت ناحية الكولاك، وقالت له: ألا تخجل يا إيفان بيتروفيتش؟ إنك مغتاظ لأننا نبيع الحليب. نحن لا نملك سوى بقرة واحدة، بينما لك ثلاث. ليملأ الله عينيك الجشعتين تراباً! ـ ثم التفتت إلينا: بتشا مريض، وأنا كنت مشغولة، لذلك لم أستطع أن أجلب إليكم الحليب.

احتجّت أنوشكا:

ـ كلاّ، أنا التي سأجيء لاستلام الحليب حتى يتعافى بتشا.

لم نذهب لزيارة بتشا. ولم أعرف لذلك سبباً. ربما بسبب

ذلك الشجار. داريا ميخايلوفنا هي التي راحت لتجلب لنا الحليب.

وعدنا إلى البيت. فجأة، سألني كريم بالتركية:

ـ هل حدّثت أنوشكا برحيلنا؟

ـ كلاّ، طبعاً... وأنت؟ هل حدّثت ماروسيا؟

ـ لم أفعل...

وعلى مقربة من الداتشا:

ـ أنوشكا، غداً تأخذين شيئاً من الفراولة إلى بتشا.

أوقدنا، تلك الليلة، ناراً في الساحة. إن جمال تلك النيران الحطبية وسط الغابات الروسية، لجمال... ـ ليست هي الكلمة الملائمة، سأستعمل كلمة أخرى روسية ـ إن «رومنطيقية» تلك النيران، وتلك الجذوع الصنوبرية التي ننظر الى لهبها حالمين، لا يمكن أن توجد في غابات بلد آخر. كنت أمسك بيد أنوشكا، بينما كانت ماروسيا تضع رأسها على ركبتي كريم. وكان لهيب النار ينعكس على وجوهنا. وحولنا، كان السرو والصنوبر والنباتات تذوب في عتمة الليل الذي يلفّنا.

وفجأة، قالت ماروسيا:

ـ كريموشكا، هل تحبّني حقاً؟ هذه الليلة، على الأقلّ؟

لو تبجّح كريم كعادته، وقال: «لا، لا أحبّك حقاً.. أظن أنني كنت سأقذفه بشيء على...

ـ نعم يا ماروسيا. حقاً أحبّك...

إنحنى، ورفع رأس ماروسيا، وقبّلها.

كنت أنظر إلى أنوشكا، وأحدّث نفسي: هذا الجبين، يا إلهي! هذا الجبين، وهذا الشعر، وهذا الفم، وهذا الأنف، وهذه العيون، لن أراها بعد الآن. ونحن المتيّمين هياماً. أبداً لم أشعر بقربها مني مثلما أشعر الآن. حتى في الفراش. غير أن هذه الحميمية بين كائنين، هذه الحميمية المفعمة بالثقة، والتي يكاد دمعي يسيل لعذوبتها، سوف تنتهي. وكل هذا، كل ما أفكّره الآن، أعرف أنه «رومنطيقية» - ورومنطيقية، حياتي منذ سنين، رومنطيقية، حياة كريم، رومنطيقية، حياة كل الناس الذين لم أعرف، والذين سأعرف. رومنطيقية، حياة الصوفي، وحياة بتروسيان، وحياة ماروسيا، وحياة أنوشكا، وربّما رومنطيقية حياة المناضل الأحمر أيضاً، الذي يمضي على جواده الراكض. إلى أين؟ إنه يمضي إلى الموت في أغلب الأحيان. لكن لأجل أن تكون الحياة أجمل، وأنصف، وأفضل، وأعمق.

بدأ كريم ينشد بعض أغاني بلدنا. كان صوته ساحراً:

«خذي خنجرك يا حبيبة، واطعنيني حتى الموت...»

عندما يغني كريم، يتغيّر وجهه. يصبح أكثر جدية. وتلمع عيناه العسليتان بانعكاس اللهب كعيني ذئب جائع للحياة، لحياة بلا قيود، بلا حدود.

إزمير: الخط التاسع والعشرون

دوي الموتور: بت - بت - بت. دوي الموتور في الكوخ، وفي شعلة قنديل الكاز. إنه في طيفينا المتحركين على الجدران، في يديّ المرتعشتين على الطاولة. لا أستطيع تركيز نظري على فتيلة القنديل. هذه الفتيلة الحمراء، الحمراء كالدم، المرعبة. لاحظ إسماعيل ذلك. إنه يعيد عليّ ذات السؤال بلا انقطاع. لكنه لا يصدقني:

- كيف حالك؟

أصمت. لا أستطيع أن أقول له: «أنا بخير».

- هل تشعر بصداع قوي؟

لا أجيب.

- هل يتعب عينيك الضوء؟

وها هو ينتهي إلى قولها. أين وجد القسوة لكي يسألني هذا السؤال.

ألتفت إلى القنديل، إلى الفتيل، إلى الشعلة. كان إسماعيل يترصّدني بنظرة قنّاص. ركّزت عينيّ على القنديل. أحداقي تؤلمني، كأنّها تحرق بالحديد المحمّى. ألم مرعب. كنت أنظر إلى الشعلة، ولا أزال أنظر إليها. وفجأة، عميت، وغاب كل شيء في الظلام. تمالكت نفسي حتى لا أصرخ. وقفت، ودون أن أستند الى الطاولة. كنت غارقاً في الظلام، وكان اللهب يتراقص

في دماغي. خطوت خطوة، ترنّحت.

ـ إجلس، صرخ إسماعيل.

أحسّ أحمد نفسه فجأة مغلوباً. تحسّس الكرسي بيده. جلس.

ـ ولكن، إفتح عينيك يا صاحبي.

فهم أحمد أن عينيه مغلقتان، وأنه أغمضهما دون حتى أن يشعر. فتحهما. كان القنديل خلفه. يعني أن إسماعيل غيَّر موضعه. كان واقفاً وراءه. لم أره أبداً في تلك الهيئة. كان خائفاً. ولم يعد يخفي خوفه.

أراد أحمد أن يصرخ به: «لا تخف يا إسماعيل». لكنه لم يصرخ، ولم يقل شيئاً. كانت يد إسماعيل في جيب معطفه. إذن، كان المسدس هناك. حتى يستطيع إخراجه بسهولة، دون شك. هذه الليلة بالذات، سوف يشرب كل الحبوب المنوّمة. كلّ الحبوب.

ـ كيف تشعر الآن؟

ـ بخير. شعرت بدوّار، لكنه انتهى الآن. أنا بخير، أريد أن أنام.

نظر إليّ نظرة غريبة.

ـ ألا تريد أن تنام يا إسماعيل؟

ـ لا.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأقرأ الجرائد.

خلع أحمد ملابسه، مديراً ظهره للقنديل، واوى إلى فراشه. أغمضت عينيّ. فتّحت عينيّ. كان إسماعيل وراء الطاولة، يتظاهر بقراءة الجرائد، لكنه في الواقع يترصّدني. استدرت إلى الجدار. مكثت ساكناً فترة طويلة، ثم انقلبت من جديد إلى اليمين... كان إسماعيل قد غيَّر مكانه. إنه ينظر إليّ. عيناه مثبّتتان عليّ. إنه يراقبني. وأنا أيضاً أنظر إليه من فراشي، دون أن يجرح عينيّ ضوء القنديل. لكني لم أقل شيئاً لإسماعيل. كنت حاقداً عليه حقداً غريباً. بل، على العكس، كنت أغمض عينيّ وأفتحهما بلا انقطاع، وإسماعيل يراقبني. أتحسّس علبة المنوّم تحت المخدّة. هل سيبقى في مكانه ذاك حتى الصباح، هذا الرجل؟ تبّاً! لا أستطيع مع ذلك أن أشرب الحبوب أمامه. ورغم ذلك، يجب أن ننتهي هذه الليلة... أنظر إلى القنديل. لم يعد نوره يحرق عينيّ. يجب الانتهاء هذه الليلة. إسماعيل جالس وراء الطاولة، وأنا أريد أن ينهض. أريد أن يقف مثبتاً عينيه عليّ حتى الصباح...

اسطمبول: الخطوط في مديرية الشرطة

أخرجوا إسماعيل من الزنزانة المنفردة، وهو ينام الآن في الرواق، على فراش ميدان، بلا غطاء. كم مرّ عليه من الوقت في

مكانه ذاك؟ وهناك أيضاً، كان يرسم على الحائط خطوطاً الرواق الآن خال، إذ أنهم أطلقوا سراح البعض، وزجّوا بالبعض الآخر في زنازن الطابق السفلي. لم يعيدوا التحقيق مع إسماعيل منذ اليوم الذي ضربوه فيه هو وكريم. هل أوقفوا آخرين؟ لا يعلم. كلاّ، بل لقد كان ليعلم لو فعلوا، إذ أنه لم يغادر هذا السرير منذ ثلاثة أيام.

طبيب الأسنان، آغوب، وضع أيضاً في الزنزانة المنفردة.

في إحدى الغرف المجاورة لفراش الميدان يوجد سجين ـ لا يعرف من هو ـ محكوم بالجوع. وفي الليل، يتحيَّن إسماعيل غفلة الحراس، ليمدّ له من تحت الباب، بضعة قطع من الجبنة، والخبز واللحم.

مرّ عليه الآن أسبوع منذ وضعوه في الرواق. أيقظوه ذات ليلة. كانوا ثلاثة: مدير القسم، والمفوّض ذو النظّارات، وشرطي بزيّ مدني.

ـ تقدَّم.

انعطفوا إلى يمين الرواق. فتح المفوّض ذو النظّارات باباً. رأى إسماعيل ضياء. كان عارياً تماماً في الحجرة الفارغة، أمام النافذة ذات القضبان الحديدية، الخالية من الزجاج. وفي الخارج، كان يهطل مطر ربيعي. كانوا قد سحبوا ذراعيه خلف ظهره، ووضعوا في يديه القيود، وكذلك فعلوا بساقيه. كان الحبل الذي يمرّ من تحت إبطيه مربوطاً في أعلى قضيب. وكان بطن

ضياء ينحفر، ويستطيل، يستطيل، وتتوتّر جميع عضلاته تحت ضغط وزنه ذاته. كان ضياء يقف على رؤوس أصابعه. لو نسي نفسه لحظة، لقطع الحبل إبطيه. كان رأسه الضائع بين كتفيه منقلباً إلى السقف. وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما، والمطر يسوط ظهره.

وسأل مدير القسم إسماعيل:

ـ هل عرفته؟

ـ لا.

ـ ومع ذلك، فهو الذي أعطاك الورق والآلة الكاتبة.

ـ لم يعطني أحد شيئاً.

اقترب المدير من ضياء، وأشار إلى إسماعيل:

ـ هل عرفته؟

ـ كلاّ، لا أعرفه.

كان صوت ضياء كعادته دوماً، عذباً، حازماً.

ـ ألم تعطه الـ ...

قاطعه ضياء:

ـ لم أعطِ شيئاً إلى أحد.

لم يقم المدير حتى بشتمه. بل هزَّ رأسه، ومضوا.

عاد إسماعيل إلى فراش الميدان. لقد صلب الأوغاد ضياء. ـ وتملّكته شفقة عظيمة. أحسّ برغبة في البكاء لأول مرّة منذ اعتقاله. ـ صلبوه، مثلما صلب السلطان مراد مصطفى

بركليجي... ـ الأوغاد!... ـ وفكّر فجأة بشيء آخر: ـ كل ما فعلوه بكريم وضياء، لماذا لم يفعلوه لي؟ لقد قالها المدير. إنهم يعلمون جيداً أنني تسلّمت الآلة والورق من ضياء، وأنا بدوري سلّمتها إلى كريم. من أين علموا؟ لم يجدوا شيئاً لدى كريم. لا آلة، ولا ورق... ولهذا السبب يعذّبونه... ـ إنه لا يعرف شيئاً عن جنون كريم. ـ وهم يعذّبون ضياء، ويصلبونه لأنه أحد المسؤولين. فهو، إذاً، يعرف لمن أعطى كريم الآلة والورق... الورق، الآلة: بضع حزم من الورق، وآلة كاتبة قديمة، حرف الدال فيها لا يطبع...

خطّان متقاطعان

كان أحمد ينظر إلى كأس الماء الذي في يده. شرب الماء جرعة فجرعة. وضع الكأس على الطاولة، وذهب ليفتح حنفية البرميل الذي يستعملانه للتغسّل. ـ ضياء هو الذي ثبّت الحنفية فيه، ـ أغلق الحنفية. بالأمس، حين كان يغسل وجهه، أثار فيه جريان الماء خوفاً. نعم، خوفاً. وبالأمس لم يشرب قطرة واحدة. لكنه استطاع هذا الصباح أن يغتسل بهدوء. وها هو يشرب. وبإمكانه تركيز نظره على الماء. وضع مقياس الحرارة تحت إبطه: ٣٦،٨. انتهى الصداع. انتهت أوجاع المفاصل. وعاد يحصي مرة أخرى الخطوط على الباب: ٣٢. تناول اصبع

الطباشير، ورسم ثلاثة خطوط عمودية فوق الإثنين والثلاثين، من أعلى إلى أسفل. نظر إليها، ثم رسم خطين متقاطعين كبيرين فوق الخطوط الأخرى. خطان متقاطعان تصل أطرافهما زوايا الباب الأربع. ابتسم، وراح ينتظر إسماعيل منصتاً إلى دويّ الموتور.

اسطمبول: ساحة إيمينيني. محطة الترام

أمطار الربيع تهطل على اسطمبول ـ أمطار دافئة، فيما تقف ناريمان بانتظار الترام في ساحة إيمينيني، وقد فتحت مظلتها. وبلا انقطاع تمرّ الترامواي‌ات. وحتى الترامواي الذي كانت تنتظره، وهو الذاهب إلى أكساراي. لكن ناريمان لم تبال به. كانت تبتسم، وتدندن لحناً ما. وترامواي‌ات أكساراي تمرّ أمامها. غداً أرى إسماعيل. لقد وعدوني. غداً. وسآخذ أمينة معي.

أمطار الربيع تتساقط على قباب الجامع الكبير، وعلى المآذن، على القرن الذهبي، وعلى القوارب، على جسر جالاتا.

في يوم ممطر مثل هذا اليوم وقف أحمد وكريم يبيعان «المطرقة والمنجل». لا، يبدو أن المطر كان أخفّ ذلك اليوم، وأنّ أحمد كان خجلاً في البداية من بيع الجرائد.

وأحسّت ناريمان فجأة قلبها ينقبض. لقد علمت أخت كريم أنه حمل إلى المارستان، فغشي على المسكينة أمام الباب ذي

الهلالين، وبيدها الورود الحمراء الأربع التي تحملها دوماً.

أمطار الربيع تتساقط على سوق السمك، على ساحة إيمينيني، على الساعة الكبيرة التي في الساحة، على موقف الترام، على السطوح، على مظلة ناريمان.

ترامويات أكساراي تروح وتجيء. فجأة تحسّ ناريمان بوجع. تعض شفتيها لكي تمنع صرخة. كأن سكيناً تنغرز في بطنها. غداً أرى إسماعيل. تتوالى الأوجاع. تشير إلى تاكسي بالوقوف. لكم هي محظوظة بالعثور على تاكسي في مثل هذا الطقس.

ثلاث ساعات بعد ذلك، وفي حجرتها بأكساراي، ولَّدت ناريمان طفلة، بمعونة جارتها القابلة. إنها ابنة إسماعيل. وجرى الجيران ليتلفنوا إلى عثمان بك من عند البقَّال. وها هو يروح ويجيء أمام باب الغرفة، ممسكاً أمينة من يدها. كانت شفتا ناريمان مدمّاتين لفرط ما عضّتها حتى لا يسمع أخوها والآخرون صياحها. وقد مزّقت الألحفة، وولّدت طفلة. طفلة إسماعيل.

أمطار الربيع تتساقط على اسطمبول، وتتساقط على بيت أمينة. على البيت الخشبي ذي الشرفة.

في القطار

حالما دخل إسماعيل الكوخ، أراه أحمد الباب:

أنظر.

نظر إسماعيل، فهم. تعانقا.

- لم أنتظر حتى تعبر أربعين أو واحد وأربعين خطأ.

- حسناً فعلت. وبالإضافة... - لم يكمل جملته: - سأركض لشراء زجاجة عرق يا صاحبي.

- إسماعيل، سوف أذهب غداً إلى باليكيسير، عند ضياء.

- كما تريد، لكن...

- لا يمكنني العودة إلى اسطمبول بعد. يجب أن أذهب لأرى ضياء. علينا أن نجد وسيلة لاستعمال هذه الحفرة... ولا جدوى من الحديث عن ذلك في الاجتماع هنا. ضياء هو المسؤول الوحيد الذي لم يقبض عليه.

حلق أحمد شاربه، وحشا بالقطن جوف خدّيه، فتغيَّر شكل فمه تماماً. ثم أحرق بصبغة اليود حاجبه الأيسر، فبدا كأنّه جرح لم يندمل.

- هل تغيَّرت؟

- لا بأس.

- أعطني بطاقة هويتك.

كانت الصورة على البطاقة قديمة وغائمة بحيث يمكن أن

تكون صورة أيّ إنسان كان. وكان لإسماعيل طاقية بيضاء شبيهة بتلك التي يعتمرها البحارة الأميركان. جرّبها أحمد، وأسدل شعره على جبينه.

ـ لقد تغيَّرت حقاً يا صاحبي.

وفي الغد استيقظا مبكرين. تعانقا. ولم يذهب إسماعيل إلى المصنع.

ـ لا يمكن أن أترك الباب مفتوحاً يا صاحبي، وما من أحد سلّمه المفتاح.

صعد أحمد في عربة من الدرجة الثالثة. على الرصيف لاحظ رجلاً، يبدو وكأنه يراقب المسافرين. ألا أعرف هذا الرجل؟ ألا يشبه البوليس الذي كان يقف أمام باب مكتب جريدتنا في اسطمبول ليترصّد الداخلين والخارجين؟ كلاّ. ها أنذا أعود إلى أفكاري الغريبة. تبّاً!...

وتحرَّك القطار. جلس أحمد في ركن، وأسند رأسه إلى النافذة.

كنا في الطريق إلى موسكو، وكانت أنوشكا تسند رأسها إلى النافذة. كنت أمسك بيدها، والغابات تتتالى بلا انقطاع من وراء الزجاج. كنا صامتين. وكانت أنوشكا تضغط على يدي بقوة، كأنني سأهرب منها، أتركها في تلك العربة. همست: «اسمعي ما يقول الناي المشتكي من فراق الأحبّة».

ـ إنه شاعرك الصوفي، أليس كذلك؟

ـ كيف حزرت؟

ـ بالإيقاع. أعدها لي مرة أخرى، بالتركية أولاً، ثم بالروسية. لكن، همساً...

وهمست البيت في أذنها.

ـ يا له من شعر حزين. هل يمكن أن نجد هذه الآلة التي تسمّونها «ناي» في القوقاز، أو في آسيا الوسطى؟

ـ ربّما، لماذا؟

ـ سأبحث عن واحدة. لن أعرف العزف عليها طبعاً، ولكن سأعلّقها على جدار غرفتي...

دخل الشخص الذي لاحظته على الرصيف العربة. جلس أمامي. إنه حقاً يشبه الآخر. تبّاً!... يحاول ألاّ ينظر إليّ. أوه!... بما أنهم يكتفون بملاحقتي، فهم لن يوقفوني على الفور. يريدون اكتشاف الرفاق الذين سأتصّل بهم. هل ينبغي أن أذهب إلى ضياء؟ ربّما تسبّبت في... خرج الرجل من العربة. إننا نقترب من محطة. القطار يتباطأ. إذن، ليس هو نفسه. سينزل هنا...

أنظر من النافذة لأرى هل نزل أم لا. لم أره. لكن، لربّما نزل من الجهة الأخرى...

ينطلق القطار من جديد.

لا تزال أنوشكا تمسك يدي. أشجار السندر تتتالى من وراء النافذة. الروس يحبّون السندر، والأتراك؟ أية شجرة يحبّون؟

الحور، أم الدلب؟ وأنا؟ أية شجرة أفضّل؟ الصفصاف؟ كلا، لا أحبّ الصفصاف الباكي... أنا... أنوشكا، أنوشكا. كنت أظن أنني أقول إسمها في سريرتي، غير أنني قلته بصوت عال.

ـ ماذا هناك يا أحدوشكا؟

ـ أبداً لم أحبّ، ولن أحبّ أبداً إمرأة مثلما أحبّك أنت...

ـ في ظرف عام أو عامين، سوف تعود إلى بلدك يا أحدوشكا. سوف تفكّر بي طبعاً، لمدة معينة، ثم... لكن ليس هذا هو المهم: لا يزال أمامنا عام أو عامان. علينا بالتفكير بهذين العامين إذن...

قلبي ينقبض. أدرك أنه حتى ما إذا كان لي حقّ تحديثها بأمر سفري الذي سيتم في غضون أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر، فلن أجد الجرأة أبداً على الاعتراف بذلك. ربّما، في الليلة الأخيرة... على أية حال، ستفهم كل شيء بعد يوم من سفري... لمَ لا أقول لها في الليلة الأخيرة؟ لكن كيف أقول ذلك؟ هذا ما لا أستطيع أن أتصوّره بعد. لا، لا. يجب أن أفكّر بشيء آخر. ألمح الجريدة التي لفّت بها أنوشكا بعض أغراضها. أقرأ: «الرعب في رومانيا... السنة الخامسة للكومنترن...»

ها هو رجل الرصيف. إنه في الرواق. نظر إليّ نظرة خاطفة، وأدار رأسه. لقد عرفوني حين ركبت القطار إذن. إنهم يتبعونني. كيف النزول في إحدى المحطات القادمة دون أن ألفت

نظرهم؟ يجب العزوف عن الذهاب إلى ضياء. طيّب. ولكن إلى أين إذن؟ تذكرتي صالحة للذهاب إلى باليكيسير.

اقتربنا من موسكو.

ـ لقد وعدنا كريم وماروسيا باستقبالنا في المحطة، أليس كذلك؟ قالت أنوشكا.

ـ هذا ما قالاه.

ـ كريم ولد طيّب، وبقدر ما يوجد في الحزب شباب مثله، فإن الحزب سيكون قادراً على إنجاز عمله.

وقع نظري من جديد على الجريدة. قرأت مرة أخرى: «الرعب في رومانيا... السنة الخامسة للكومنترن...»

تجاوزنا ضواحي موسكو. يد أنوشكا بيدي.

مررنا بسفح جبل. الرجل جالس أمامي. نائم. هل هو نائم حقاً أم أنه يتناوم؟

ضيوفي

ضيوفي: أنوشكا، إسماعيل، أحمد ناريمان، ماروسيا، ضياء، سي-يا-وْ.

كريم ليس معنا. كريم مات. ولم يكن ذلك في المارستان، كلاّ. لقد خرج منه متعافياً. مات في أيار ١٩٥٠، بالسلّ.

ضيوفي لم يشيخوا. كونهم في نفس السن التي شاهدتهم فيها لآخر مرة. لا يزال سي-يا-وْ عاشقاً أنوشكا، ولا يزال أحمد

يغار من سي ـ يا ـ وْ.

قال ضياء: ـ ألا تنشد لنا قصيدة؟

أنشدت:

أنا شيوعي
أنا حبٌ من القدمين إلى الرأس
حبٌ: رؤية، تفكير، فهم،
حبٌ: الطفل الذي يولد، النور الذي يتقدَّم،
حبٌ: تعليق ميزان في النجوم،
حبٌ: سقي الفولاذ بكدٍّ وجهد،
أنا شيوعي،
أنا حبٌ من أخمص القدمين حتى أعلى الرأس...

ترجمت القصيدة إلى الروسية، لأنوشكا وماروسيا.

أشعل إسماعيل سيجارة من نار سيجارتي:

ـ قصيدة جميلة، قال لي. ثم نهض، فتح النافذة، دخلت الشمس الحجرة:

ـ الحياة جميلة يا صاحبي، قال.

يد أحمد في يد أنوشكا. إنها يد بيضاء. أصابعها طويلة.

ـ الحياة جميلة يا صاحبي، أعادت ناريمان بصوتها العميق.

ضيوفي لم يشيخوا. لأنهم في نفس السن التي رأيتهم فيه لآخر مرة. أمّا أنا، فقد بلغت الستّين. آه! لو أستطيع العيش خمس سنوات أخرى...

B.HAMDAN

3-8-2008